

ذخائر العرب

٦٩

المختصر في أخبار البشر
لأبي الفدا

تقديم
الدكتور حسين مؤنس

تحقيق
الدكتور محمد زينهم عزب
الأستاذ/ يحيى سيد حسين

الجزء الثالث



دار المعارف

المختصر في أخبار البشر
للأبي الفدا

ذخائر العرب
(٦٩)

المختصر في أخبار البشر

للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل
ابن علي المعروف بأبي الفدا
٦٧٢ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١ م

تقديم الدكتور / حسين مؤنس

تحقيق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب
الأستاذ يحيى سيد حسين

الجزء الثالث



دار المعارف

الجزء الثالث من كتاب المختصر في أخبار البشر

وهو ذلك التاريخ الذى سرت بذكره الركبان
وأثنى عليه أرباب هذا الفن فى كل زمان
حتى كان عمدتهم الذى يرجعون فى إحقاق
الحق إليه ، ويعولون فى مهمات
منقولاتهم عليه .

تأليف الملك المؤيد عماد الدين
إسماعيل أبى القدا

صاحب حماة

المتوفى سنة اثنتين

وثلاثين وسبعمائة

هجرية رحمه الله

تعالى آمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكر أخبار الإسماعيلية بالشام وقتلهم وحصر الفرنج دمشق

كان قد سار رجل من الإسماعيلية يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الإسترابادي ببغداد إلى الشام ودخل دمشق ، ودعا الناس إلى مذهبه ، وأعانه وزير توري صاحب دمشق وهو طاهر بن سعد المزدغاني ، وسلم إلى بهرام قلعة بانياس ، فعظم أمر بهرام بالشام ، وملك عدة حصون بالجبال ، وجرى بين بهرام وبين أهل وادي التيم مقاتلة ، فقتل فيها بهرام ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم يسمى إسماعيل ، وأقام الوزير المزدغاني عوض بهرام بدمشق رجلاً منهم يسمى أبا الوفا ، وعظم أمر أبي الوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكاتب أبو الوفا الفرنج على أن يسلم إليهم دمشق ويسلموا إليه عوضها مدينة صور ، واتفقوا على ذلك ، وأن يكون قدوم الفرنج إلى دمشق يوم الجمعة ، ليجعل أبو الوفا أصحابه على أبواب جامع دمشق ، وعلم تاج الملوك توري صاحب دمشق بذلك ، فاستدعى وزيره المزدغاني وقتله وأمر بقتل الإسماعيلية الذين بدمشق ، فثار بهم أهل دمشق وقتلوا من الإسماعيلية ستة آلاف نفر ، ووصل الفرنج إلى الميعاد ، وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء ، وكان البرد والشتاء شديداً ، فرحلوا عن دمشق شبه المهزمين ، وخرج توري بعسكر دمشق في أثرهم ، وقتلوا منهم عدة كثيرة ، وأما إسماعيل الباطني الذي كان في قلعة بانياس ، فإنه سلم قلعة بانياس إلى الفرنج وصار معهم .

ذكر ملك عماد الدين زنكي حماة

في هذه السنة : ملك عماد زنكي حماة ، وسببه أنه كان بحماة (سونج) ابن توري نائباً بها عن أبيه توري ، وكان قد سار عماد الدين زنكي من الموصل إلى جهة الشام وعبر الفرات ، وأرسل إلى توري يستجده على الفرنج ، فأرسل توري إلى ولده سونج بحماة يأمره بالمسير إلى عماد الدين زنكي فزار سونج إليه ، ففدّر عماد الدين زنكي بسونج وقبض عليه ، وارتكب أمراً شنيعاً من الغدر ونهب خيامه والعسكر الذين كانوا صحبتته ، واعتقل سونج وجماعة من

مقدمى عسكره بحلب ، ولما قبض عماد الدين زنكى على سونج سار من وقته إلى حماة وملكها لخلوها من الجند ، ثم رحل عنها إلى حمص وحاصرها مدة ، وكان قد غدر أيضا بصاحبها قيرخان بن قراجا ، وقبض عليه وأحضره صحبتته إلى حمص ممسوكا ، وأمره أن يأمر ابنه وعسكره بتسليم حمص فأمرهم قيرخان فلم يلتفتوا إليه ، فلما أيس زنكى منها رحل عنها عائداً إلى الموصل ، واستصحب سونج وأمراء دمشق معه ، واستمر بهم معتقلين ، وكتب تورى إليه وبذل له مالاً فى ابنه سونج فلم يتفق حال .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : ملك الفرنج حصن القُدُّوس .
وفيهما : توفى أبو الفتح أسعد بن أبى نصر الفقيه الشافعى ، مدرس النظامية وله طريقة مشهورة فى الخلاف ، وكان له قبول عظيم عند الخليفة والناس .
وفيهما : توفى الشريف حمزة بن هبة الله بن محمد العلوى الحسينى النيسابورى ، سمع الحديث الكثير ورواه ، ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وجمع بين شرف النسب وشرف النفس والتقوى ، وكان زيدى المذهب .
ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسائة :

ذكر فتح الأثارب

ففيها : جمع عماد الدين زنكى عساكره ، وسار من الموصل إلى الشام ، وقصد حصن الأثارب لشدة ضرره على المسلمين ، فإن أهله الفرنج كانوا يقاسمون أهل حلب على جميع أعمال حلب الغربية حتى على رضى بظاهر باب الجنان بينها وبين سور حلب عرض الطريق ، وأظن أن اسمها العربية ، وكان أهل حلب معهم فى ضيق شديد ، فسار عماد الدين إليه ونازله ، وجمع الفرنج فأرسلهم وراجلهم وقصدوا عماد الدين ، فرحل عماد الدين عن الأثارب وسار إلى ملتقاهم ، فالتقوا واقتتلوا أشد قتال ، ونصر الله المسلمين وانهزم الفرنج ، ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر ، وكثر القتل فيهم - ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الأثارب فأخذوه عنوة ، وقتلوا وأسروا كل من فيه ، وخرب عماد الدين فى ذلك الوقت حصن الأثارب المذكور وجعله دكا ، وبقي خراباً إلى الآن .

ذكر وفاة الأمر بأحكام الله العلوى

فى هذه السنة : فى ذى القعدة قتل الأمر بأحكام الله العلوى أبو على منصور بن المستعلى أحمد بن المستنصر معد العلوى صاحب مصر ، وكان قد خرج إلى مستنزه له ، فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه ، وكانت ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً ، وعمره أربعاً وثلاثين سنة ، وهو العاشر من ولد المهدي عبيد الله ، وهو العاشر من الخلفاء العلويين ، ولما قتل الأمر لم يكن له ولد ، فولى بعده ابن عمه الحافظ عبدالمجيد بن أبي القاسم ابن المستنصر بالله ولم يبايع أولاً بالخلافة بل كان على صورة نائب لانتظار حمل إن ظهر للأمر ، ولما تولى الحافظ استوزر أبا على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، فاستبد بالأمر وتغلب على الحافظ وحجر عليه ، ونقل أبو على ما كان بالقصر من الأموال إلى داره ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قتل أبوعلى سنة ست وعشرين على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : كان الرصد فى دار السلطنة شرقى بغداد ، تولاه البديع الأسطربلى ولم يتم .

وفى هذه السنة : ملك السلطان مسعود قلعة أُلوت .

وفىها : توفى إبراهيم بن عثمان بن محمد الغزى عند قلعة بلخ ودفن فيها ، وهو من أهل غزّة ومولده سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وهو من الشعراء المجيدين ، فمن قصائده المشهورة قصيدته التى مدح فيها الترك التى أولها :

أط عن الدرر الزهر اليواقيتا واجعل لحج تلاقينا مواقيتا

ومنها :

فى فتية من جيوش الترك ماتركت للرعء كراتهم صوتاً ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

ثم ترك الغزى قول الشعر وغسل كثيراً منه وقال :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة باب البواعث والدواعى مغلق

خلت البلاد فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشتري ويخان فيه مع الكساد ويسرق
ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة :

فيها : أسر ديبس بن صدقة ، وسبب ذلك مسيره من العراق إلى صرخد ، لأن صرخد كان
صاحبها خصياً وكانت له سرية ، فتوفي الخصى في هذه السنة ، واستولت سريته على قلعة
صرخد وما فيها ، وعلمت أنه لا يتم لها ذلك إن لم تتصل برجل يحميها ، فأرسلت إلى ديبس
ابن صدقة تستدعيه للتزوج به وتسلم إليه صرخد وما فيها من مال وغيره ، فسار ديبس من
العراق إليها ، فضل به الأدلاء بنواحي دمشق ، فنزل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة ،
فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك توري بن طفتكين صاحب دمشق في شعبان من هذه السنة
فحبسه توري ، وسمع عماد الدين زنكي بأسر ديبس ، فأرسل إلى توري يطلبه ويبدل له
إطلاق ولده سونج ومن معه من الأمراء الذين غدرهم زنكي وقبضهم .. كما تقدم ذكره -
فأجاب توري إلى ذلك ، وأفرج زنكي عن المذكورين وتسلم ديبس ، فأيقن ديبس بالهلاك لأنه
كان كثير الوقعة في عماد الدين زنكي ، ففعل معه زنكي بخلاف ما كان يظن ، وأحسن إلى
ديبس وحمل إليه الأموال والسلاح والدواب وقدمه على نفسه ، ولم يزل ديبس مع عماد الدين
زنكي حتى انحدر معه إلى العراق على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وسمع الخليفة المسترشد بقبض ديبس ، فأرسل يطلبه مع سديد الدولة ابن الأنباري ،
وأبي بكر بن بشر الجزري فأمسكها عماد الدين زنكي وسجن ابن الأنباري ، ووقع منه في
حق ابن بشر مكروه قوى ، ثم شفع المسترشد في ابن الأنباري فأطلقه .

ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

في هذه السنة : في شوال توفي السلطان محمود بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان بن
داود بن ميكائيل بن سلجوق بهمدان ، فأقعد وزيره أبو القاسم الأنساباذي ابنه داود بن محمود
في السلطنة ، وصار أتابكه الأقسنقر الأحمدي ، وكان عمر السلطان محمود لما توفي نحو سبع
وعشرين سنة ، وكانت ولايته للسلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، وكان
حليماً عاقلاً يسمع المكروه ولا يعاقب عليه مع قدرته عليه .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : وثبت الباطنية على تاج الملوك توري بن طفتكين صاحب دمشق فجرحوه جرحين ، برئ أحدهما وبقي الآخر ينسر عليه ، إلا أنه يجلس للناس ويركب على ضعف فيه . وفيها : توفي حماد بن مسلم الرحبي الرياش الزاهد المشهور ، صاحب الكرامات وسمع الحديث وله أصحاب وتلاميذ كثيرة ، وكان أبو الفرج بن الجوزي يذمه ويثلبه . ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة :

فيها : قتل أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحافظ لدين الله العلوي ، وكان أبو علي المذكور قد حجر على الحافظ وقطع خطبة العلويين وخطب لنفسه خاصة ، وقطع من الأذان حتى على خير العمل ، فنفرت منه قلوب شيعة العلويين وثار به جماعة من المماليك وهو يلعب بالكرة فقتلوه ونهبت داره ، وخرج الحافظ من الاعتقال ، ونقل ما بقي في دار أبي علي إلى القصر ، وبويع الحافظ في يوم قتل أبي علي بالخلافة ، واستوزر أبا الفتح يانسي الحافظي وبقي يانسي مدة قليلة ومات ، فاستوزر الحافظ ابنه الحسن بن الحافظ وخطب له بولاية العهد ، ثم قتل الحسن المذكور سنة تسع وعشرين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة : تحرك السلطان مسعود بن محمد في طلب السلطنة وأخذها من ابن أخيه ابن محمود ، وكذلك تحرك سلجوق بن محمد صاحب فارس أخو مسعود وأتابكه قراجا الساقى في طلب السلطنة ، وقدم سلجوق إلى بغداد واتفق الخليفة المسترشد معه واستنجد مسعود بعماد الدين زنكي فسار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق ، فقتله قراجا أتابك سلجوق ، وانهزم زنكي إلى تكريت وعبر منها ، وكان الدزدار بها إذ ذاك نجم الدين أيوب ، فأقام له المعابر فعبر عماد الدين وسار إلى بلاده ، وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بعماد الدين زنكي حتى ملك بنو أيوب البلاد .

ثم اتفق الحال بين مسعود وأخيه سلجوق والخليفة المسترشد على أن تكون السلطنة لمسعود ، ويكون أخوه سلجوق شاه ولي عهده ، وعادوا إلى بغداد ، ونزل مسعود بدار السلطنة وسلجوق بدار الشحنة ، وكان اجتماعهم في جمادى الأولى من هذه السنة - ثم إن السلطان سنجر سار من خراسان ومعه طغريل ابن أخيه السلطان محمد لأخذ السلطنة من مسعود ، وجرى المصاف بينه وبين مسعود وسلجوق فانهزم مسعود .

ثم إن السلطان سَنَجَرَ بذل الأمان لمسعود فحضر عنده ، وكان قد بلغ خونج ، فلما رآه سَنَجَرَ قبله وأكرمه وعاتبه وأعاده إلى كتجه ، وأجلس الملك طغريل في السلطنة ، وخطب له في جميع البلاد ، ثم عاد سَنَجَرَ إلى خراسان فوصل إلى نيسابور في رمضان من هذه السنة .

ذكر الحرب بين المسترشد الخليفة وبين عماد الدين زنكى

في هذه السنة : سار عماد الدين زنكى ومعه دُبَيْس بن صدقة وعدى الخليفة إلى الجانب الغربى ، وسار ونزل بالعباسية ، ونزل عماد الدين بالمنارية من دجيل ، والتقى بحصن البرامكة في سابع وعشرين رجب ، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة فهزمها ، وحمل الخليفة بنفسه وبقية العسكر فانهمز دُبَيْس ، ثم انهزم عماد الدين وقتل بينهم خلق كثير .

ذكر وفاة تورى صاحب دمشق

في هذه السنة : توفى تاج الملوك تورى بن طغتكين صاحب دمشق بسبب الجرح الذى كان به من الباطنية على ماتقدم ذكره ، فتوفى في حادى وعشرين رجب ، وكانت إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما ، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل ، ووصى ببعليك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد ، وكان تورى شجاعاً سد مسد أبيه ، ولما استقر إسماعيل ابن تورى في ملك دمشق وأعمالها ، واستقر أخوه محمد في ملك بعلبك ، استولى محمد على حصن الرأس ، وحصن اللبوة ، وكاتب إسماعيل صاحب دمشق أخاه محمداً صاحب بعلبك في إعادتها ، فلم يقبل محمد ذلك ، فسار إسماعيل وفتح حصن اللبوة ، ثم فتح حصن الرأس وقرر أمرهما ، ثم سار إلى أخيه محمد وحصره ببعليك وملك المدينة وحصر القلعة ، فسأله محمد في الصلح فأجابته وأعاده عليه ببعليك وأعمالها ، واستقرت أمورها ، وعاد إسماعيل إلى دمشق مؤيداً منصوراً .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة :

فيها : سار شمس الملوك إسماعيل بن تورى صاحب دمشق على غفلة من الفرنج إلى حصن بانياس ، فملك مدينة بانياس بالسيف ، وقتل وأسر من كان بها ، وحاصر قلعة بانياس وتسلمها بالأمان .

وفي هذه السنة : جمع السلطان مسعود العساكر وانضم إليه ابن أخيه داود بن محمود وسار السلطان مسعود إلى أخيه طُغريل ، وجرى بينها قتال شديد انهزم فيه طُغريل ، واستولى مسعود على السلطنة وتبع أخاه طُغريل يطرده من موضع إلى موضع حتى وصل إلى الرى ، واقتتلا ثانيا فانهزم طُغريل أيضا وأسر جماعة من أمرائه .

وفيهما : سار الخليفة المسترشد بعساكر بغداد وحصر الموصل ثلاثة أشهر ، وكان عماد الدين زنكى قد خرج من الموصل إلى سنجار وحصن الموصل بالرجال والذخائر ، ثم رحل الخليفة عن الموصل وعاد إلى بغداد ووصل إليها في يوم عرفة ولم يظفر منها بطائل .

ذكر ملك شمس الملوك إسماعيل مدينة حماة

وفي هذه السنة : سار إسماعيل بن تورى صاحب دمشق من دمشق في العشر الآخر من رمضان إلى حماة وهى لعماد الدين زنكى من حين غدر بسونج بن تورى ، وأخذها منه حسبما تقدم ذكره في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فحصرها شمس الملوك إسماعيل وقاتل من بها يوم عيد الفطر وعاد ولم يملكها ، فلما كان الغد بكر إليهم وزحف من جميع جوانب البلد فملكه عنوة وطلب من به الأمان فأمنهم وحصر القلعة ولم تكن إذ ذاك حصينة ، فإنها حصنت فيما بعد ، لأن تقي الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين قطع جبلها وعملها على ما هى عليه الآن في سنين كثيرة ، فلما حصرها شمس الملوك إسماعيل عجز النائب بها عن حفظها فسلمها إليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح ، وذلك في شوال من هذه السنة ، ولما فرغ شمس الملوك إسماعيل من حماة سار إلى شيراز وبها صاحبها من بنى منقذ ، فنهب بلدها وحصر القلعة فصانعه صاحبها ببال حمله إليه فعاد عنها ، وسار إلى دمشق ووصل إليها في ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : اجتمعت التركمان وقصدوا طرابلس ، فخرج من بها من الفرنج إليهم واقتتلوا فانهزم الفرنج ، وسار القمص صاحب طرابلس ومن في صحبته فانهضوا في حصن بعين وحصرهم التركمان بها ، ثم هرب القمص من الحصن في عشرين فارسا وخلقى بحصن بعين من يحفظه ، ثم جمع الفرنج وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعين فاقتتلوا ، فانهزى الفرنج إلى نحو رمنية وعاد التركمان عنهم .

وفيهما : اشترى الإسماعيلية حصن القُدُمُوس من صاحبه ابن عمرو .

وفيهما : في ربيع الآخر وثب على شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق بعض ممالك جده طُغتكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه ، وتكاثر على ذلك الشخص ممالك شمس الملوك فقبضوه وقرره شمس الملوك ، فقال : ما أردت إلا إراحة المسلمين من شرك وظلمك ، ثم أقر على جماعة من شدة الضرب فقتلهم من غير تحقيق ، وقتل شمس الملوك إسماعيل أيضا مع ذلك الشخص أخاه سونج بن توري الذي كان بحماة ، وأسره زنكى على ما تقدم ذكره في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فعظم ذلك على الناس ونفروا من شمس الملوك إسماعيل المذكور .

وفيهما : توفي على بن يعلى بن عوض الهروي ، وكان واعظاً ، وله بخراسان قبول كثير ، وسمع الحديث فأكثر .

وفيهما : توفي أبو فُلَيْتة أمير مكة ، وولى إمارة مكة بعده أبو القاسم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة :

ففيها : في المحرم سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق إلى حصن الشقيق ، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به ، فأخذه شمس الملوك منه ، وعظم ذلك على الفرنج ، وقصدوا بلد حوران ، وجمع شمس الملوك الجموع وناولهم ، ثم أغار على بلادهم من جهة طبرية ، ففت ذلك في أعضاء الفرنج ، ورحلوا عائدين إلى بلادهم ، ثم وقعت الهدنة بينهم وبين شمس الملوك .

وفي هذه السنة : استولى عماد الدين زنكى على جميع قلاع الأكراد الحميدية ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرها ، ثم استولى على قلاع الهكارية وكواشى .

وفيهما : أوقع ابن دانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم .

وفيهما : اصطالح الخليفة المسترشد وعماد الدين زنكى .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة :

ففيها : مات السلطان طغريل ابن السلطان محمد ، وكان بعد هزيمته من أخيه مسعود قد استولى على بلاد الجبل فمات في هذه السنة في المحرم ، وقيل إن وفاته كانت في أول سنة ثمان وعشرين وهو الأصح في ظني ، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم أيضاً ، وكان خيراً عاقلاً ولما بلغ أخاه مسعوداً خبر وفاته سار نحو همدان ، وأقبلت العساكر جميعاً إليه ، واستولى على همدان وأطاعته البلاد جميعها .

ذكر قتل إسماعيل صاحب دمشق

في هذه السنة : في رابع عشر ربيع الآخر ، قتل شمس الملوك إسماعيل بن توري بن طغتكين ، وكان مولده في سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة ، قتله على غفلة جماعة باتفاق من والدته ، وقد اختلف في سببه ، فقيل : إن الناس لفرط جور إسماعيل المذكور وظلمه ومصادرته كرهوه وشكوه لأمه ، فاتفقت مع من قتله ، وقيل : بل إن أمه اتهمت بشخص من أصحاب والده يقال له يوسف بن فيروز ، فأراد قتل أمه فاتفقت مع من قتله ، وسر الناس بقتله ، ولما قتل ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن توري وحلف له الناس . وفيها : بعد قتل شمس الملوك وصل عماد الدين زنكي إلى دمشق وحصرها وضيق عليها ، وقام في حفظ البلد معين الدين أترمملوك طغتكين القيام التام الذي تقدم به واستولى على الأمر بسببه ، فلما لم ير زنكي في أخذ دمشق مطمعا اصطاح مع أهلها ورحل عنها عائدا إلى بلاده .

ذكر قتل حسن بن الحافظ لدين الله العلوي

قد تقدم في سنة ست وعشرين وخمسمائة أن أباه استوزره ، فتغلب حسن المذكور على الأمر واستبد له وأساء السيرة ، وأكثر من قتل الأمراء وغيرهم ظلما وعدوانا ، وأكثر من مصادرات الناس ، فأراد العسكر الإيقاع به وبأبيه ، فعلم أبوه الحافظ ذلك فسقاه سنا فمات ، ولما مات حسن استوزر الحافظ تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم ، واستعمل الأرمن على الناس فكان ما سنذكره .

ذكر الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود وأسر الخليفة وقتله

في هذه السنة : كانت الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود ، وسببه أن جماعة من عسكر مسعود فارقوه مغاضيين ، واتصلوا بالخليفة المسترشد ، وهونوا عليه قتال السلطان

مسعود فاغتر بكلامهم ، وسار من بغداد إلى قتال السلطان مسعود ، وسار مسعود إليه ، واتفقوا عاشر رمضان من هذه السنة ، فصار غالب عسكر الخليفة مع مسعود وانهزم الباقون ، وأخذ الخليفة المسترشد أسيراً ونهب عسكره وأسروا ، وبقي المسترشد مع مسعود أسيراً ، ثم سار به مسعود من همدان إلى مراغة في شوال لقتال ابن أخيه داود بن محمود فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه في خيمة منفردة ، وكان قد اتفق مسعود مع الخليفة على مال يحمله الخليفة إليه وأن لا يعود يخرج من بغداد واتفق وصول رسول السلطان سنجر إلى مسعود ، فركب مسعود والعساكر للالتقاء فوثبت الباطنية على المسترشد وهو في تلك الخيمة فقتلوه ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه ، وقتل معه نفر من أصحابه .

وكان قتل المسترشد يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة بظاهر مراغة ، وكان عمره لما قتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً ، وأمه أم ولد ، وكان فصيحاً حسن الخط شهياً .

ذكر خلافة الراشد - وهو الثلاثون من خلفاء بني العباس

لما قتل المسترشد بالله ، بويج ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد فضل ابن المستظهر أحمد ، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته ، ثم بعد قتله جددت له بيعة في يوم الاثنين السابع والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة ، وكتب مسعود إلى بغداد بذلك ، فحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء .

ذكر قتل دُبَيْس

في هذه السنة : قتل السلطان مسعود دُبَيْس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خُونج - أمر غلاماً أرمنياً بقتله ، فوقف على رأس دبيس وهو ينكت في الأرض بأصبعه ، فضرب رقبتة وهو لا يشعر ، وكان ابنه صدقة بن دُبَيْس بالحلة ، فلما بلغه الخبر اجتمع عليه عسكر أبيه وكثر جمعه ، وما أكثر ما يتفق قرب موت المتعاضدين ، فإن دبيساً كان يعادى المسترشد بالله ، فاتفق قتل أحدهما عقيب قتل الآخر .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : استولى الفرنج على جزيرة جربة من أعمال أفريقية ، وهرب وأسر من كان بها من المسلمين .
وفيها : صالح المستنصر بن هود الفرنج على تسليم حصن زوطة من بلاد الأندلس وسلمه إلى صاحب طليطلة الفرنجي .
ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة :

ذكر ملك شهاب الدين حمص

في هذه السنة : في الثاني والعشرين من ربيع الأول تسلم شهاب الدين محمود بن بوري صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها ، وسبب ذلك أن أصحابها أولاد الأمير قيرخان بن قراجا والوالى بها من قبلهم ، ضجروا من كثرة تعرض عماد الدين زنكى إليها وإلى أعمالها ، فراسلوا شهاب الدين في أن يسلموها إليه ويعطيهم عوضها تدمر فأجابهم إلى ذلك وتسلم حمص وأقطعها المملوك جده معين الدين أترز وسلم إليهم تدمر ، فلما رأى عسكر حلب وحماة خروج حمص إلى صاحب دمشق ، تابعوا على بلدها ، فأرسل شهاب الدين محمود إلى عماد الدين زنكى في الصلح ، فاستقر بينهما وكف عسكر عماد الدين عن حمص .

ذكر غير ذلك

فيها : سارت عساكر عماد الدين زنكى الذين بحلب وحماة ، ومقدمهم أسوار نائب زنكى بحلب إلى بلاد الفرنج بنواحي اللاذقية ، وأوقعوا بمن هناك من الفرنج ، وكسبوا من الجوارى والممالك والأسرى والدواب ما ملأ الشام من الغنائم وعادوا سالمين .

ذكر خلع الراشد وخلافة المقتفى وهو حادى ثلاثينهم

كان الراشد قد اتفق مع بعض ملوك الأطراف مثل عماد الدين زنكى وغيره ، على خلاف السلطان مسعود وطاعة داود ابن السلطان محمود ، فلما بلغ مسعوداً ذلك جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل عليها وحصرها ، ووقع في بغداد النهب من العيارين والمفسدين ، ودام مسعود محاصرها نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم ، فارتحل إلى النهروان ، ثم وصل طرنتاي صاحب واسط بسفن كثيرة ، فعاد مسعود إلى بغداد ، وعبر إلى غربى دجلة ، واختلفت كلمة عساكر بغداد ، فعاد الملك داود إلى بلاده أذربيجان في ذى القعدة ، وسار الخليفة الراشد من بغداد مع عماد الدين زنكى إلى الموصل .

ولما سمع مسعود بمسير الخليفة وزنكى ، سار إلى بغداد واستقر بها في منتصف ذى القعدة ، وجمع مسعود القضاة وكبراء بغداد وأجمعوا على خلع الراشد بسبب أنه كان قد عاهد مسعوداً على أنه لا يقاتله ومتى خالف ذلك فقد خلع نفسه ، وبسبب أمور ارتكبها ، فخلع وحكم بفسقه وخلعه ، وكانت مدة خلافة الراشد أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً ، ثم استشار السلطان مسعود فيمن يقيمه في الخلافة فوقع الاتفاق على ابن محمد المستظهر ، فأحضر وأجلس في الميمنة ، ودخل إليه السلطان مسعود وتحالفا ، ثم خرج السلطان وأحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ولقبوه المقتفى لأمر الله .

والمقتفى : عم الراشد المذكور هو والمسترشد أبناء المستظهر وليا الخلافة - وكذلك السفاح والمنصور أخوان - وكذلك المهدي والرشيد أخوان - وكذلك الواثق والمتوكل ، وأما ثلاثة إخوة ولوا الخلافة : فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد - وكذلك المكتفى والمقتدر والقاهر بنو المعتضد - والراضى والمتقى والمطيع بنو المقتدر ، وأما أربعة إخوة ولوها : فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم .

وعمل محضر بخلع الراشد ، وأرسل إلى الموصل ، وزاد المقتفى في إقطاع عماد الدين زنكى وألقابه ، وأرسل المحضر فحكم به قاضى القضاة الزينبى بالموصل ، وخطب للمقتفى في الموصل في رجب سنة إحدى وثلاثين .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة :

فيها : عزل الحافظ وزيره بهرام النصرانى الأرمنى بسبب ما اعتمده من تولية الأرمن على

المسلمين وإهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يسمى رضوان بن الوكحشى وجمع جمعاً وقصد بهرام فهرب بهرام إلى الصعيد ، ثم عاد وأمسكه الحافظ وحبسه في القصر ، ثم إن بهرام المذكور ترهب وأطلقه الحافظ ، ولما هرب بهرام استوزر الحافظ رضوان المذكور ولقبه « الملك الأفضل » وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ، ثم إنه فسد ما بين رضوان والحافظ ، فهرب رضوان وجرى له أمور يطول شرحها ، آخرها أن الحافظ قتل رضوان المذكور ولم يستوزر بعده أحداً ، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات .

ذكر حصر زنكى حمص ورحيله إلى بارين وفتحها

في هذه السنة : نازل عماد الدين زنكى حمص وبها صاحبها معين الدين أنز ، فلم يظفر بها فرحل عنها في العشرين من شوال إلى بعرين وحصر قلعتها وهى للفرنج ، وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا إلى زنكى ليرحلوه عن بعرين ، فلما وصلوا إليه لقيهم وجرى بينهم قتال شديد ، فانهزمت الفرنج ودخل كثير من ملوكهم لما هربوا إلى حصن بعرين ، وعاود عماد الدين زنكى حصار الحصن وضيق عليه ، وطلب الفرنج الأمان ، فقرر عليهم تسليم حصن بعرين ، وخمسين ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوا إلى ذلك فأطلقهم وتسلم الحصن وخمسين ألف دينار .

وكان زنكى في مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح المعرة وكفر طاب وأخذها من الفرنج ، وحضر أهل المعرة وطلبوا تسليم أملاكهم التى كان قد أخذها الفرنج ، فطلب زنكى منهم كتب أملاكهم ، فذكروا أنها عدمت ، فكشف من ديوان حلب عن الخراج وأفرج عن كل ملك كان عليه الخراج لأصحابه .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة :

ذكر ملك عماد الدين زنكى حمص وغيرها

في هذه السنة : في المحرم وصل زنكى إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل ، وكان لصاحب دمشق ، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وسار إلى حمص وحصرها ،

ثم رحل عنها إلى سَلْمِيَّة بسبب نزول الروم على حلب على ما تذكره ، ثم عاد إلى منازلة حمص فسلمت إليه المدينة والقلعة .

أرسل عماد الدين زنكى وخطب أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق وتزوجها واسمها زمرد خاتون بنت جاولى وهى التى قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل بن بورى وهى التى بنت المدرسة المطلة على وادى الشقرا بظاهر دمشق ، وحملت الخاتون إلى عماد الدين فى رمضان ، وإنما تزوجها طمعاً فى الاستيلاء على دمشق ، لما رأى من تحكمها فلما خاب ما أمله ولم يحصل على شيء أعرض عنها .

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وما فعله

كان قد خرج ملك الروم متجهزاً من بلاده فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فاشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج ، فلما دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وسار إلى بَزَاة وهى على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكها بالأمان فى الخامس والعشرين من رجب ، ثم غدر بأهلها وقتل فيهم وأسروا وسبوا ، وتنصر قاضيتها وقدر أربعمائة نفس من أهلها ، وأقام على بَزَاة بعد أخذها عشرة أيام ، ثم رحل عنها بمن معه من الفرنج إلى حلب ، ونزل على فويق وزحف على حلب وجرى بين أهلها وبينهم قتال كثير ، فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم ، فعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى الأتارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بَزَاة وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم ، وسار ملك الروم بجموعه من الأتارب نحو شيزر فخرج الأمير أسوار نائب زنكى بحلب بمن عنده ، وأوقع بمن فى الأتارب من الروم فقتلهم ، واستفكت أسرى بَزَاة وسباياها ، وسار ملك الروم بجموعه إلى شيزر وحاصرها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً ، وأرسل صاحب شيزر أبو العساكر سلطان بن على بن مقلد ابن نصر بن منقذ الكنانى إلى زنكى يستنجد به ، فسار زنكى ونزل على العاصى بين حماة وشيزر ، وكان يركب عماد الدين زنكى وعسكره كل يوم ويشرفون على الروم وهم محاصرون لشيزر بحيث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فيأخذون كل ما يظفرون به منهم ، وأقام ملك الروم محاصراً شيزر أربعة وعشرين يوماً ، ثم رحل عنها من غير أن ينال منها غرضاً ، وسار زنكى فى أثر الروم فظفر بكثير ممن تخلف منهم ، ومدح الشعراء زنكى بسبب ذلك فأكثروا ، فمن ذلك ما قاله مسلم بن خضر بن قسيم الحموى من أبيات :

لعزمك أيها الملك العظيم تذلُّ لك الصعابُ وتستقيمُ

ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنه الملك الرحيم
وقد نزل الزمان على رضاه ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك في خميس تيقن فوت ما أمسى يروم
كأنك في العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم

ذكر مقتل الراشد

كان الراشد قد سار من بغداد إلى الموصل مع عماد الدين زنكى وخلع كما تقدم ذكره ، ثم فارق الراشد زنكى وسار من الموصل إلى مراغة ، واتفق الملك داود ابن السلطان محمود وملوك تلك الأطراف على خلاف السلطان مسعود وقتاله وإعادة الراشد إلى الخلافة ، فسار السلطان مسعود إليهم واقتتلوا ، فانهزم داود وغيره ، واشتغل أصحاب السلطان مسعود بالكسب وبقي وحده ، فحمل عليه أميران يقال لهما بوزابة وعبدالرحمن طغايرك ، فانهزم مسعود من بين أيديهما ، وقبض بوزابة على جماعة من أمرائه وعلى صدقة بن دُبيس صاحب الحلة ، ثم قتلهم أجمعين .

وكان الراشد إذ ذاك بهمدان ، فلما كان من الوقعة ما كان سار الملك داود إلى فارس وتفرقت تلك الجموع ، وبقي الراشد وحده فسار إلى أصفهان ، فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة ، وكان من أعقاب مرض قد برئ منه ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان ، ولما وصل خبر قتل الراشد إلى بغداد جلسوا لعزائه يوماً واحداً .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : ملك حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين قلعة الهناخ من ديار بكر أخذها من بعض بنى مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهو آخر من بقى منهم . وفيها : قتل السلطان مسعود البقش شحنة بغداد .

وفيها : جاءت زلزلة عظيمة بالشام والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيراً وهلك تحت الهدم عالم كثير .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة :

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوازم شاه

في هذه السنة : في المحرم سار سنجر بجموعه إلى خوازم شاه أتسز بن محمد بن أنوش تكين ، وقد تقدم ذكر ابتداء أمر محمد بن أنوش تكين في سنة تسعين وأربعمائة ، ووصل سنجر إلى خوازم ، وخرج خوازم شاه لقتاله واقتلوا ، فانهزم أتسز خوازم شاه ، واستولى سنجر على خوازم ، وأقام بها من يحفظها ، وعاد إلى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة ، وبعد أن عاد سنجر إلى بلاده عاد أتسز إلى خوازم واستولى عليها .

ذكر قتل محمود صاحب دمشق

في هذه السنة : في شوال قتل شهاب الدين محمود بن بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، قتله غيلة على فراشه ثلاثة من خواص غلمانته وأقرب الناس منه ، وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا ، فنجوا أحدهم وأخذ الاثنان وصلبا ، واستدعى معين الدين أنز أخاه جمال الدين محمد بن بوري ، وكان صاحب بعلبك ، فحضر إلى دمشق وملكها .

ذكر ملك زنكي بعلبك

في هذه السنة : في ذى القعدة سار عماد الدين زنكي إلى بعلبك ووصل إليها في العشرين من ذى الحجة وحصرها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وسلموا إليه المدينة ، واستمر الحصار على القلعة حتى طلبوا الأمان أيضا فأمنهم وسلموا إليه القلعة ، فلما نزلوا منها وملكها غدرهم وأمر فصلبوا عن آخرهم ، فاستقبح الناس ذلك واستعظموه وحذره الناس ، وكانت بعلبك لمعين الدين أنز ، أعطاه إياها جمال الدين محمد لما ملك دمشق ، وكان أنز قد تزوج بأم جمال الدين محمد صاحب دمشق ، وكان له جارية يحبها

فأخرجها أنز إلى بعلبك ، فلما ملك بعلبك أخذ الجارية المذكورة وتزوجها في حلب ، وبقيت مع زنكى حتى قتل على قلعة جعبر فأرسلها ابنه نور الدين محمود بن زنكى إلى أنز ، وهى كانت أعظم الأسباب فى المودة بين نور الدين وأنز .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : توالى الزلازل بالشام ، وخربت كثير من البلاد لاسيما حلب فإن أهلها فارقوا بيوتهم وخرجوا إلى الصحراء ، ودامت من رابع صفر إلى تاسع عشره .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : سار عماد الدين زنكى إلى دمشق وحصرها وزحف عليها وبذل لصاحبها جمال الدين محمد بعلبك وحمص فلم يأمنوا إليه بسبب غدره بأهل بعلبك وكان نزوله على داريا فى ثالث عشر ربيع الأول ، واستمر منازل لدمشق ، فمرض فى تلك المدة جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق ومات فى ثامن شعبان ، فطمع زنكى حينئذ فى ملك دمشق وزحف إليها واشتد القتال فلم ينل غرضه ، ولما مات جمال الدين محمد أقام معين الدين أنز فى الملك ولده مجير الدين أرتق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، واستمر أنز يدير الدولة ، فلم يظهر لموت جمال الدين محمد أثر ، ثم رحل زنكى ونزل بعذرا من المرج فى سادس شوال ، وأحرق عدة من قرى المرج ورحل عائداً إلى بلاده .

وفى هذه السنة : ملك زنكى شهرزور وأخذها من صاحبها قبجق بن ألب أرسلان شاه التركمانى ، وبقي قبجق فى طاعة زنكى ومن جملة عسكره .

وفىها : قتل المقرب جوهر من كبراء عسكر سنجر ، وكان قد عظم فى الدولة ، وكان من جملة إقطاع المقرب المذكور الرى ، قتله الباطنية ووقفوا له فى زى النساء واستغثن به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه .

وفىها : توفى هبة الله بن الحسين بن يوسف المعروف بالبيديع الأسطربلى ، وكانت له اليد الطولى فى عمل الأسطربلاب والآلات الفلكية ، وله شعر جيد وأكثره فى الهزل .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة :

فى هذه السنة : وصل رسول السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا أخذاً من المسترشد ، فأعادهما الآن إلى المقتفى .

وفي هذه السنة : ملك الإسماعيلية حصن مصياث بالشام ، وكان واليه مملوكا لبني منقذ أصحاب شيزر ، فاحتال عليه الإسماعيلية ومكروا به حتى سعدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن .
وفيها : توفي الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان قتيلا في فندق بمراكش ، وكان فاضلا في الأدب ، ألف عدة كتب منها قلائد العقيان ، ذكر فيه عدة من الفضلاء وأشعارهم ، ولقد أجاد فيه .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة :

في هذه السنة : في المحرم وقيل في صفر كان المصاف العظيم بين الترك الكفار من الخطا وبين السلطان سنجر ، فإن خوارزم شاه أئسز بن محمد لما هزمه سنجر وقتل ولد أئسز عظم ذلك عليه وكاتب الخطا وأطمعهم في ملك ما وراء النهر ، فساروا في جمع عظيم ، وسار إليهم السلطان سنجر في جمع عظيم ، والتقوا بما وراء النهر فانهزم عسكر سنجر وقتل منهم خلق عظيم ، وأسرت امرأة سنجر ، ولما تمت الهزيمة على الميزان سار خوارزم شاه أئسز إلى خراسان ونهب من أموال سنجر ومن بلادها شيئا كثيرا ، واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة :

في هذه السنة : بعث عماد الدين زنكى جيشا ففتحوا قلعة أشب ، وكانت من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها ، ولما ملكها زنكى أمر بإخربها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنها ، وكانت العمادية حصنا عظيما خرابا ، فلما عمره عماد الدين زنكى سمى العمادية نسبة إليه .

وفيها : سارت الفرنج في البحر من صقلية إلى طرابلس الغرب فحاصروها ثم عادوا عنها .
وفيها : توفي محمد بن الدانشمند صاحب ملطية والثغر ، واستولى على بلاده الملك مسعود ابن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة :

في هذه السنة : كان الصلح بين السلطان مسعود وبين عماد الدين زنكى .

وفيها : سار زنكى بعساكره إلى ديار بكر ففتح منها طنزة واستعرد وحيزان وحصن الروق وحصن قطليس وحصن باتاسا وحصن ذى القرنين ، وأخذ من بلد ماردین مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر من حصون شختان .

وفيها : سار السلطان سنجر بعساكره إلى خوارزم ، وحصر أئسز بها ، فبذل خوارزم شاه أئسز الطاعة فأجابه سنجر إلى ذلك واصطلحا وعاد سنجر إلى مرو .

وفيهما : ملك زنكى عانة من أعمال الفرات .

وفيهما : قتل داود ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، قتله جماعة اغتالوه ولم يعرفوا .

وفيهما : توفي أبو القاسم محمود بن عمر النحوى الزمخشري ، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، وهو من زمخشر : قرية من قرى خوارزم ، كان إماماً في العلوم ، صنف الفصل في النحو والكشاف في التفسير وجهر القول فيه بالاعتزال وافتتحه بقوله : الحمد لله الذى خلق القرآن منجماً ، ثم أصلحه أصحابه فكتبوا : الحمد لله الذى أنزل القرآن ، وله غير ذلك من المصنفات ، فمنها كتاب الفائق في غريب الحديث ، وقدم الزمخشري بغداد وناظر بها ثم حج ، وجاور بمكة سنين كثيرة فسمى لذلك جار الله ، وكان حنفى الفروع ، معتزلى الأصول ، وللزمنخشري نظم حسن ، فمنه من جملة أبيات :

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت عيونهم والله يحزى من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدر
ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر منصوراً :

وقائلة ما هذه الدرر التى تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذى كان قد حشا أبو مضر أذن تساقط من عيني

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة :

في هذه السنة : فتح عماد الدين زنكى الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية وعشرين يوماً ، ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ، وأما البيرة فنزل عليها وحاصرها ، ثم رحل عنها بسبب قتل نائبه بالموصل وهو نصير الدين جقر ، وسبب قتله أنه كان عند زنكى ألب أرسلان ابن السلطان محمود بن محمد السلجوقى ، وكان زنكى يقول : إن البلاد التى بيدي إنما هى لهذا الملك ألب أرسلان المذكور وأنا أتابكه ، ولهذا سمى أتابك زنكى ، وكان ألب أرسلان المذكور بالموصل وجقر يقوم بوظائف خدمته ، فحسن بعض المناحيس لألب أرسلان المذكور قتل جقر وأخذ البلاد من عماد الدين زنكى ، فلما دخل جقر إلى ألب أرسلان على عادته وثب عليه من عند ألب أرسلان فقتلوه ، فاجتمعت كبراء دولة زنكى وأمسكوا ألب أرسلان ولم يطمعه أحد ، ولما بلغ زنكى ذلك وهو محاصر للبيرة عظم عليه قتل جقر وخشى من الفتن فرحل عن البيرة لذلك ، وخشى الفرنج الذين بها من معاودة الحصار ، وعلموا بضعفهم عن عماد الدين فراسلوا نجم الدين صاحب ماردين وسلموا البيرة إليه وصارت للمسلمين .

وفيها : خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل أفريقية وملكوا مدينة برسك وقتلوا أهلها وسبوا الحرير .

وفيها : توفي تاشفين بن عليّ بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، وولى بعده أخوه إسحق بن عليّ ، وضعف أمر الملتزمين وقوى عبدالمؤمن ، وقد تقدم ذكر ذلك في سنة أربع عشرة وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة :

وفيها : هرب علي بن ديبس بن صدقة من السلطان مسعود ، وكان قد أراد حبسه في قلعة تكرت ، فهرب إلى الحلة واستولى عليها وكثر جمعه وقويت شوكته .

وفيها : اعتقل الخليفة المقتفى أخاه أبا طالب وضيق عليه ، وكذلك احتاط على غيره من أقاربه .

وفيها : ملك الفرنج شنترين وتاجر وماردة وأشبونة وسائر المعامل المجاورة لها من بلاد الأندلس .

وفيها : توفي مجاهد الدين بهروز ، وحكم في العراق نيفاً وثلاثين سنة ، وكان بهروز خصياً أبيض .

وفيها : توفي الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد الحواليقي اللغوي ، ومولده في ذى الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة ، أخذ اللغة عن أبي زكريا التبريزي ، وكان يؤم بالخليفة المقتفى ، وكان طويل الصمت ، كثير التحقيق ، لا يقول الشيء إلا بعد فكر كثير ، وكان يقول كثيراً إذا سئل لا أدري ، وأخذ العلم عنه جماعة منهم تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، ومحّب الدين أبو البقاء ، وعبد بن سكيّنة .

وفيها : توفي أبو بكر يحيى بن عبدالرحمن بن تقي الأندلسي القرطبي ، الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة ، ومن شعره ما أورده في قلائد العقيان :

يا أفتك الناس الحاظاً وأطيبهم	ريقاً متى كان فيك الصاب والعسل
في صحن خدك وهو الشمس طالعة	ورد يزيدك فيه الراح والخجل
إيمان حيك في قلبي مجدده	من خدك الكتب أو من لحظك الرسل
إن كنت تجهل أنى عبد مملكة	مرنى بما شئت آتیه وأمثل
لو اطلعت على قلبي وجدت به	من فعل عينيك جرحاً ليس يندمل

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة :

ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب

وسبب ملكها أنهم نزلوا عليها وحصروها ، فلما كان اليوم الثالث من نزولهم سمع الفرنج في المدينة ضجة عظيمة ، وخلت الأسوار من المقاتلة ، وكان سببه أن أهل طرابلس اختلفوا ، فأراد طائفة منهم تقديم رجل من الملتزمين ليكون أميرهم ، وأرادت طائفة أخرى تقديم بني مطروح ف وقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار فانتهاز الفرنج الفرصة وصعدوا بالسلام وملكوها بالسيف في المحرم من هذه السنة ، وسفكوا دماء أهلها ، وبعد أن استقر الفرنج في ملك طرابلس بذلوا الأمان لمن بقى من أهل طرابلس وتراجعت إليها الناس وحسن حالها .

ذكر حصار عماد الدين زنكى

حصنى جعبر وفنك ومقتله

في هذه السنة : سار زنكى ونزل على قلعة جعبر وحصرها وصاحبها على بن مالك بن سالم ابن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي ، وأرسل عسكرياً إلى قلعة فنك وهي تجاور جزيرة ابن عمر فحصرها أيضاً وصاحبها حسام الدولة الكردي البشنوي - ولما طال على زنكى منازلة قلعة جعبر أرسل مع حسان البعلبكي الذي كان صاحب منبج يقول لصاحب قلعة جعبر : قل لي مَنْ يخلصك مني ، فقال صاحب قلعة جعبر لحسان : يخلصني منك الذي خلصك من بك بن بهرام بن أرتق ، وكان بك محاصراً لمنبج فجاءه سهم قتله ، فرجع حسان إلى زنكى ولم يخبره بذلك ، فاستمر زنكى منازلاً قلعة جعبر ، فوثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه في خامس ربيع الآخر من هذه السنة بالليل وهربوا إلى قلعة جعبر ، فصاح مَنْ بها على العسكر وأعلموهم بقتل زنكى ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، وكان عماد الدين زنكى حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان قد زاد عمره على ستين سنة ، ودفن بالركة ، وكان شديد الهيبة على عسكره عظيمها ، وكان له الموصل وما معها من البلاد ، وملك الشام خلا دمشق ، وكان شجاعاً ، وكانت الأعداء محيطة بمملكته من كل جهة وهو ينتصف منهم ويستولى على بلادهم .

ولما قتل زنكى كان ولده نور الدين محمود حاضراً عنده ، فأخذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه ، وسار إلى حلب فملكها ، وكان صحبة زنكى أيضاً الملك ألب أرسلان بن محمود بن

السلطان محمد السلجوقي ، فركب في يوم قتل زنكى واجتمعت عليه العساكر ، فحسن له بعض أصحاب زنكى الأكل والشرب وسماع المغاني ، فسار ألب أرسلان إلى الرقة وأقام بها منعكاً على ذلك ، وأرسل كبراء دولة زنكى إلى ولده سيف الدين غازى بن زنكى يعلمونه بالحال وهو بشهرزور ، فسار إلى الموصل واستقر في ملكها ، وأما ألب أرسلان ففترقت عنه العساكر ، وسار إلى الموصل يريد ملكها ، فلما وصل قبض عليه غازى بن زنكى وحبسه في قلعة الموصل ، واستقر ملك سيف الدين غازى للموصل وغيرها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : أرسل عبدالمؤمن بن عليّ جيشاً إلى جزيرة الأندلس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام واستولوا عليها .

وفيها : بعد قتل عماد زنكى ، قصد صاحب دمشق بجزير الدين أبق حصن بعلبك وحصره ، وكان به نجم الدين أيوب بن شاذى مستحفظاً ، فخاف أن أولاد زنكى لا يمكنهم إنجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة إليه ، وأخذ منه إقطاعاً ومالا ، وملكه عدة قرى من بلاد دمشق ، وانتقل أيوب إلى دمشق وسكنها وأقام بها .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة :

في هذه السنة : دخل نورالدين محمود بن زنكى صاحب حلب بلاد الفرنج ، ففتح منها مدينة أرتاح بالسيف وحصر مأمولة وبصرفوت وكفرلانا .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة :

ذكر ملك الفرنج المهديّة بإفريقية

وحال مملكة بني باديس

كان قد حصل بإفريقية غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، ودام من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى هذه السنة ، ففارق الناس القرى ، ودخل أكثرهم إلى جزيرة صقلية ، فاغتنم رجار الفرنجى صاحب صقلية هذه الفرصة ، وجهاز أسطولا نحو مائتين وخمسين شينياً مملوءة رجالاً وسلاحاً ، واسم مقدمهم جرج وساروا من صقلية إلى جزيرة قوصرة وهى ما بين المهديّة وصقلية وساروا منها وأشرفوا على المهديّة ثانی صفر من هذه السنة .

وكان في المهديّة الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب إفريقية ، فجمع كبراء البلد واستشارهم ، فرأوا ضعف حالهم وقلة المؤونة عندهم ، فاتفق رأي

الأمير حسن بن عليّ عليّ إخلاء المهديّة فخرج منها ، وأخذ معه ما خف حمله ، وخرج أهل المهديّة على وجوههم بأهليهم وأولادهم ، وبقي الأسطول في البحر تمنعه الرياح من الوصول إلى المهديّة ، ثم دخلوا المهديّة بعد مضي ثلثي النهار المذكور بغير ممانع ولا مدافع ، ولم يكن قد بقي من المسلمين بالمهديّة ممن عزم على الخروج أحد ودخل جرج مقدم الفرنج إلى قصر الأمير حسن بن عليّ فوجده على حاله لم يعد منه إلا ما خف حمله ، ووجد فيه جماعة من حظايا الحسن بن عليّ ، ووجد الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة من كل شيء غريب بقل وجود مثله ، وسار الأمير حسن بأهله وأولاده إلى بعض أمراء العرب ممن كان يحسن إليه. وأقام عنده ، وأراد الحسن المسير إلى الخليفة العلوي الحافظ صاحب مصر ، فلم يقدر على المسير لخوف الطرق فسار إلى ملك بجاية يحيى بن العزيز من بني حماد ، فوكل يحيى المذكور على الحسن وعليّ أولاده من يمنعهم من التصرف ، ولم يجتمع يحيى بهم ، وأنزلهم في جزائر بني مرغان ، وبقي الحسن كذلك حتى ملك عبدالمؤمن بن عليّ بجاية في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وأخذها هي وجميع ممالك بني حماد ، فحضر الأمير الحسن عنده ، فأحسن إليه عبدالمؤمن وأكرمه ، واستمر على ذلك في خدمة عبدالمؤمن إلى أن فتح المهديّة فأقام فيها واليّا من جهته وأمره أن يقتدى برأى الأمير حسن ويرجع إلى قوله .

وكان عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناذ إلى الحسن تسعة ملوك ، وكانت ولايتهم في سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وانقضت في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم إن جرج بذل الأمان لأهل المهديّة ، وأرسل وراءهم بذلك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع . فترجعوا إلى المهديّة .

ذكر حصر الفرنج دمشق

في هذه السنة : سار ملك الألمان ، والألمان بلادهم وراء القسطنطينية حتى وصل إلى الشام في جمع عظيم ، ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين أرتق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، والحكم وتدير المملكة إنما هو لمعين الدين أنز مملوك جده طغتكين وفي سادس ربيع الأول زحفوا على مدينة دمشق ، ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر ، وأرسل أنز إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستعجده ، فسار بعسكره من الموصل إلى الشام ، وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ، ففت ذلك في أعضاد الفرنج ، وأرسل أنز إلى فرنج الشام ، يبذل لهم تسليم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الألمان ، وأشاروا عليه بالرحيل ، وخوفوه من أمداد المسلمين ، فرحل عن دمشق وعاد إلى بلاده ، وسلم أنز قلعة بانياس إلى الفرنج حسيما شرطه لهم .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : كان بين نور الدين محمود وبين الفرنج مصاف بأرض يغرى من العمق فانهمز الفرنج ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة ، وأرسل من الأسرى والغنيمة ، إلى أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل .

وفيها : ملك الفرنج من الأندلس مدينة طرطوشة وجميع قلاعها وحصون لاردة .

وفيها : كان الغلاء العام من خراسان إلى العراق إلى الشام إلى بلاد المغرب .

وفي ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، قتل نور الدولة شاهنشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، قتله الفرنج لما كانوا منازلين دمشق ، فجرى بينهم وبين المسلمين مصاف قتل فيه شاهنشاه المذكور ، وهو أبو الملك المظفر عمر صاحب حماة ، وأبو فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان شاهنشاه أكبر من صلاح الدين وكانا شقيقين . ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة :

ذكر وفاة غازي بن زنكي

في هذه السنة : توفي سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك زنكي صاحب الموصل بمرض حاد في أواخر جمادى الآخرة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً وكان حسن الصورة ، ومولده سنة خمسمائة ، وخلف ولداً ذكراً ، فرباه عمه نور الدين وأحسن تربيته ، وتوفي المذكور شاباً ، وانقرض بموته عقب سيف الدين غازي .

وكان سيف الدين المذكور كريماً ، يصنع لعسكره كل يوم طعاماً كثيراً بكرة وعشية ، وهو أول من حما على رأسه السنجق في ركوبه ، وأمر الأجناد ألا يركبوا إلا بالسيوف في أوساطهم ، والدبوس تحت ركبتهم ، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف ، ولما توفي سيف الدين غازي ، كان أخوه قطب الدين مودود بن زنكي مقيماً بالموصل ، فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تملكه فحلفاه وحلفاء له ، وكذلك باقى العسكر ، وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين - ولما تملك تزوج الخاتون ابنة تمرتاش صاحب ماردين ، وكان أخوه سيف الدين قد تزوجها ومات قبل الدخول بها ، وهى أم أولاد قطب الدين .

ذكر وفاة الحافظ لدين الله العلوى وولاية الظافر

فى هذه السنة : فى جمادى الآخرة ، توفى الحافظ لدين الله عبدالمجيد ابن الأمير أبى القاسم بن المستنصر العلوى صاحب مصر ، وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر ، وكان عمره نحو سبع وسبعين سنة ، ولم يل الخلافة من العلويين المصريين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاقد على ما سنذكره .

ولما توفى الحافظ بويغ بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ عبدالمجيد ، واستوزر ابن مصال فبقى أربعين يوماً ، وحضر من الاسكندرية العادل بن السلار ، وكان قد خرج ابن مصال من القاهرة فى طلب بعض المفسدين فأرسل العادل بن السلار ربيه عباس ابن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان أبوه أبو الفتوح قد فارق أخاه على بن يحيى صاحب أفريقية وقدم إلى الديار المصرية وتوفى بها ، فتزوج العادل بن السلار بزوجة أبى الفتوح المذكور ومعها ولدها عباس بن أبى الفتوح ، فرباه العادل وأحسن تربيته ، ولما قدم العادل إلى مصر يريد الاستيلاء على الوزارة أرسل ربيه عباساً فى عسكر إلى ابن مصال ، فظفر به عباس وقتله وعاد إلى العادل بالقاهرة ، فاستقر العادل فى الوزارة وتمكن ، ولم يكن للخليفة الظافر معه حكم ، وبقى العادل كذلك إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فقتله ربيه عباس المذكور ، وتولى الوزارة على ما سنذكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : حصر نور الدين محمود بن زنكى حصن حارم ، فجمع البرنس صاحب أنطاكية الفرنج وسار إلى نور الدين واقتتلوا ، فانتصر نور الدين وقتل البرنس ، وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم ، ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل وتزوجت أمه برجل آخر وتسمى بالبرنس ، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر ، وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند ، فتمكن حينئذ بيمند فى ملك أنطاكية .

وفيها : زلزلت الأرض زلزلة شديدة .

وفيها : توفى معين الدين أنز صاحب دمشق ، وهو الذى كان إليه الحكم فيها ، وإليه ينسب

وفيهما : تولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفى يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر ، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام .

وفيهما : توفى القاضي ناصح الدين الأرجاني ، وأرجان من أعمال تستر ، وتولى المذكور قضاء تستر ، واسمه أحمد بن محمد بن الحسين وله الشعر الفائق ، فمن ذلك قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلب عندهم	أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعتُ في حالي رخاءً وشدة	وناديتُ في الأحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءني غير شامت	ولم أر فيما سرني غير حاسد
تمتعنا يا ناظري بنظرة	وأوردتنا قلبي أمر الموارد
أعني كفا عن فؤادي فإنه	من البغي سعى اثنين في قتل واحد

وفيهما : توفى بمراكش القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، ومولده بها في سنة ست وسبعين وأربعمائة ، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء المحدثين الأدباء وتأليفه وأشعاره شاهدة بذلك ، ومن تصانيفه الإجمال في شرح كتاب مسلم ، ومشارك الأنوار في تفسير غريب الحديث .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة :

في هذه السنة : رابع عشر المحرم ، أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة ، ذكر أن اسم ذلك المكان الغرابي فهلك أكثرهم ، ولم يصل منهم إلى البلاد إلا القليل .

وفيهما : سارنور الدين محمود بن زنكي إلى فامية وحصر قلعتها ، وتسلمها من الفرنج وحصنها بالرجال والذخائر ، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنها فملكها قبل وصولهم ، فلما بلغهم فتحها تفرقوا .

وفيهما : سار الأدفونش صاحب طليطلة بجموع الفرنج إلى قرطبة وحصرها ثلاثة أشهر ثم رحل عنها ولم يملكها .

وفيهما : مات الأمير علي بن ديبس بن صدقة صاحب الحلة .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة :

ذكر هزيمة نور الدين من جوسلين ثم أسر جوسلين

كان جوسلين من أعظم فرسان الفرنج ، قد جمع بين الشجاعة وجودة الرأي ، وكان نور الدين قد عزم على قصد بلاده ، فجمع جوسلين الفرنج فأكثر وسار نحو نور الدين والتقوا ، فانهزم المسلمون وقتل وأسر منهم جمع كثير ، وكان من جملة من أسر السلحدار ومعه سلاح نور الدين ، فأرسله جوسلين إلى مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وأقسرا وقال : هذا سلاح زوج ابنتك وسأتيك بعده بما هو أعظم منه ، فعظم ذلك على نور الدين وهجر الملاذ وافتكروا في أمر جوسلين ، وجمع التركمان ، وبذل لهم الوعود إن ظفروا به إما يأمساك أو يقتل ، فاتفق أن جوسلين طلع إلى الصيد فكبسه التركمان وأمسكوه ، فبذل لهم مالا فأجابوه إلى إطلاقه ، فسار بعض التركمان وأعلم أبا بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب ، فأرسل عسكريا كبسوا التركمان الذين عندهم جوسلين وأحضروه إلى نور الدين أسيرا .

وكان أسر جوسلين من أعظم الفتوح ، وأصبحت النصرانية كافة بأسره ، ولما أسر سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وقلاعه فملكها ، وهى تل باشر وعين تاب وذلوك وعزاز وتل خالد وقورس والرواندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفر سود وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك في مدة يسيرة ، وكان نور الدين كلما فتح منها موضعاً حصنه بما يحتاج إليه من الرجال والذخائر .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة :

من الكامل في هذه السنة : سار عبدالمؤمن بن على إلى بجاية وملكها ، وملك جميع ممالك بني حماد وأخذها من صاحبها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد ، وكان يحيى المذكور مولعاً بالصيد واللهو ، لا ينظر في شيء من أمور مملكته ، ولما هزم عبدالمؤمن عسكري يحيى - هرب يحيى وتحصن بقلعة قسطنطينية من بلاد بجاية ، ثم نزل يحيى إلى عبدالمؤمن بالأمان فأمنه وأرسله إلى بلاد المغرب وأقام بها ، وأجرى عبدالمؤمن عليه شيئاً كثيراً - وقد ذكر في تاريخ القيروان : أن مسير عبدالمؤمن وملكه تونس وأفريقية إنما كان في سنة أربع وخمسين وخمسمائة .

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه وملك ملكشاه ومحمد ابني محمود

في هذه السنة : وقيل في أواخر سنة ست وأربعين في أول رجب ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان ، ومولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة ، ومات معه سعادة البيت السلجوقي ، فلم يبق لهم بعده راية يعتديها ، وكان حسن الأخلاق ، كثير المزاح والانبساط مع الناس ، كريماً عفيفاً عن أموال الرعايا .

ولما مات عهد بالملك إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، فقعد في السلطنة ، وخطب له ، وكان المتغلب على المملكة أميراً يقال له : خاص بك ، وأصله صبي تركماني اتصل بخدمة السلطان مسعود ، فتقدم على سائر أمرائه ، ثم إن خاص بك المذكور قبض على السلطان ملكشاه بن محمود وسجنه وأرسل إلى أخيه محمد بن محمود وهو بخورستان فأحضره وتولى السلطنة ، وجلس على السرير ، وكان قصد خاص بك أن يمسه ويخطب لنفسه بالسلطنة ، فبدره السلطان محمد في ثاني يوم وصوله ، فقتل خاص بك وقتل معه زنكي الجاندار ، وألقى برأسيهما ففترقا أصحابهما .

ذكر فتح دلوک

في هذه السنة : جمعت الفرنج وساروا إلى نور الدين وهو محاصر دلوک ، فرحل عنها وقاتلهم أشد قتال رآه الناس ، وانهزمت الفرنج ، وقتل وأسر كثير منهم ، ثم عاد نور الدين إلى دلوک فملكها ، وبما مدح به في ذلك اليوم :

أعدت بعصرك هذا الجديد بد فتوح النبي وأعصارها
وفي تل باشر باشرتهم بزحف تسور أسوارها
وإن دالكتهم دلوک فقد أسرت فصدقت أخبارها

ذكر ابتداء ظهور الملوك الغورية وانقراض دولة آل سبكتكين

أول من اشتهر من الملوك الغورية أولاد الحسين ، وأولهم محمد بن الحسين ، وكان قد صاهر بهرام شاه بن مسعود صاحب غزنة من آل سبكتكين ، وسار محمد بن الحسين المذكور إلى غزنة

يظهر الطاعة لبهرام شاه ويبطن الغدر فأمسكه بهرام شاه وقتله ، فتولى بعده في ملك الغورية أخوه سودى بن الحسين وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه ، وجرى القتال بينه وبين بهرام شاه ، فظفر بهرام شاه بسودى وقتله أيضاً وانهزم عسكره ، ثم ملك بعدها أخوها علاء الدين الحسين ابن الحسين وسار إلى غزنة ، فانهزم عنها صاحبها بهرام شاه واستولى علاء الدين الحسين على غزنة وأقام فيها أخاه سيف الدين سام بن الحسين ، وعاد علاء الدين الحسين بن الحسين إلى الغور ، فكاتب أهل غزنة بهرام شاه فسار إليهم واقتتل مع سيف الدين الغورى ، فانتصر بهرام شاه وظفر بسيف الدين سام فقتله ، واستقر بهرام شاه في ملك غزنة .

ثم توفي بهرام شاه ، وملك بعده ابنه خسرو شاه ، وتجهز علاء الدين الحسين ملك الغورية وسار إلى غزنة في سنة خمسين وخمسمائة ، فلما قرب منها فارقها صاحبها خسرو شاه بن بهرام شاه وسار إلى هاور ، وملك علاء الدين الحسين بن الحسين غزنة ونهبها ثلاثة أيام ، وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم ، وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية ، وأقام الحسين على ذلك مدة ، واستعمل على غزنة ابنى أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وأخوه شهاب الدين محمد بن سام ، ثم جرى بينها وبين عمها علاء الدين الحسين حرب انتصرا فيه على عمها وأسراه ، ولما أسراه أطلقاه وأجلساه على التخت ووفقا في خدمته واستمر عمها في السلطنة ، وزوج غياث الدين بابنته وجعله وليّ عهده ، وبقي كذلك إلى أن مات علاء الدين الحسين بن الحسين في سنة ست وخمسين وخمسمائة على ما سنذكره ، وملك بعده غياث الدين محمد بن سام بن الحسين ، وخطب لنفسه في الغور وغزنة بالملك ، ثم استولى الغز على غزنة وملكوها منه مدة خمس عشرة سنة ، ثم أرسل غياث الدين أخاه شهاب الدين إلى غزنة فسار إليها ، وهزم الغز وقتل منهم خلقاً كثيراً ، واستولى على غزنة وما جاورها من البلاد مثل كرمان وشنوران وماه السند ، وقصد هاور وبها يومئذ خسرو شاه بن بهرام شاه السبكتكيني فملكها شهاب الدين في سنة تسع وسبعين وخمسمائة بعد حصار ، وأعطى خسرو شاه الأمان وحلف له ، فحضر خسرو شاه عند شهاب الدين بن سام المذكور ، فأكرمه شهاب الدين ، وأقام خسرو شاه على ذلك شهرين .

ولما بلغ غياث الدين بن سام ذلك أرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب منه خسرو شاه فأمره شهاب الدين بالتوجه ، فقال خسرو شاه : أنا ما أعرف أخاك ، ولا سلمت نفسي إلا إليك فطيب شهاب الدين خاطره وأرسله ، وأرسل أيضاً ابن خسرو شاه مع أبيه إلى غياث الدين وأرسل معها عسكراً يحفظونها ، فلما وصلوا إلى الغور لم يجتمع بها غياث الدين ، بل أمر بها فرفعا إلى بعض القلاع ، وكان آخر العهد بها - وخسرو شاه المذكور هو ابن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ، وهو آخر ملوك ال سبكتكين ، وكان

ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة ، وملكوا مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً ، فيكون انقراض دولتهم في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقدّمنا ذلك لتتصل أخبارهم ، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ، وقيل إن خسروشاہ توفى في الملك ، وملك بعده ابنه ملكشاہ على ما نشير إليه في مواضعه إن شاء الله تعالى .

ولما استقر ملك الفورية بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم ، كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة ، وتلقّب باللقاب منها معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ، ولما استقر ذلك سار شهاب الدين إلى أخيه غياث الدين واجتمعا وسارا إلى خراسان وقصدا مدينة هراة وحاصراها ، وتسلمها غياث الدين بالأمان ، ثم سار ومعه شهاب الدين في عساكرهما إلى بوشنج فملكها ، ثم عاد إلى بادغيس وكالين وبيوار فملكها ، ثم رجع غياث الدين إلى بلده فيروزكور ، ورجع أخوه شهاب الدين إلى غزنة ، ولما استقر شهاب الدين بغزنة قصد بلاد الهند وفتح مدينة آجّر ، ثم عاد إلى غزنة ، ثم قصد الهند فذلّل صعاها وتيسّر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم ، وبلغ منهم ما لم يبلغ أحد من ملوك المسلمين ، ولما كثرت فتوحه في الهند اجتمعت الهنود مع ملوكهم في خلق كثير ، والتقوا مع شهاب الدين ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فانهزم المسلمون ، وجرح شهاب الدين ، وبقي بين القتلى ، ثم اجتمعت عليه أصحابه وحملوه إلى مدينة آجّر ، واجتمعت عليه عساكره وأقام شهاب الدين في آجّر حتى أتاه المدد من أخيه غياث الدين ، ثم اجتمعت الهنود وتنازل الجمعان وبينها نهر ، فكبس عساكر المسلمين الهنود ، وتمت الهزيمة عليهم ، وقتل المسلمون من الهنود ما يفوق الحصر ، وقتلت مملكتهم ، وتمكن شهاب الدين بعد هذه الواقعة من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلي ، وهى من كرامى ممالك الهند ، فأرسل أيبك عسكرياً مع مقدم يقال له محمد بن بختيار ، فملكوا من الهند مواضع ما وصلها مسلم قبله حتى قاربوا جهة الصين .

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنة : توفى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيافاً وثلاتين سنة ، لأنه ولى بعد موت أبيه في سنة ست عشرة وخمسمائة حسبما تقدم ذكره ، وتولى بعده ابنه نجم الدين البلى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة :

ذكر أخبار الغز وهزيمة السلطان سنجر منهم وأسرهم

في هذه السنة : في المحرم انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز ، وهم طائفة من الترك ، وكانوا بما وراء النهر ، فلما ملكه الخطأ أخرجوهم منه فقصدوا خراسان ، وكانوا كفاراً ، وكان من أسلم منهم وخالط المسلمين يصير ترجماناً بين الفريقين حتى صار من أسلم منهم قيل عنه : إنه صار ترجماناً ، ثم قيل تركماناً بالكاف العجمية ، وجمع على تراكمين ، ثم أسلم الغز جميعهم فقبل لهم تراكمين ، ولما قدموا إلى خراسان أقاموا بنواحي بلخ مدة طويلة ، ثم عن الأمير قماح مقطع بلخ أن يخرجهم من بلاده فامتنعوا ، فسار قماح إليهم في عشرة آلاف فارس ، فحضر إليه كبار الغز وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم ، ويعطوه عن كل بيت مائتي درهم فلم يجيبهم إلى ذلك ، وأسراً^(١) على إخراجهم أو قتالهم فاجتمعوا واقتتلوا ، فانهزم قماح وتبعه الغز يقتلون ويأسرون ، ثم عاثوا في البلاد ، فاسترقوا النساء والأطفال ، وخرّبوا المدارس وقتلوا الفقهاء ، وعملوا كل عظيمة .

ووصل قماح إلى السلطان سنجر منهزماً وأعلمه بالحال ، فجمع سنجر عساكره وسار إليهم في مائة ألف فارس ، فأرسل الغز يعتذرون إليه بما وقع منهم ، وبذلوا له بذلاً كثيراً ليكف عنهم فلم يجيبهم ، وقصدهم ووقعت بينهم حرب شديدة ، فانهزمت عساكر سنجر وتبعهم الغز يقتلون فيهم ويأسرون ، فقتل علاء الدين قماح ، وأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الأمراء فضربوا أعناقهم ، وأما سنجر فلما أسروه ، اجتمع أمراء الغز وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له : نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك ، وبقي معهم كذلك شهرين أو ثلاثة ، ودخلوا معه إلى مرو وهي كرسى ملك خراسان فطلبها منه بختيار أقطاعاً ، وهو من أكبر أمراء الغز ، فقال سنجر : هذه دار الملك ولا يجوز أن يكون إقطاعاً لأحد فضحكوا منه ، وحبّق له بختيار بقمه ، فلما رأى سنجر ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانقاه مرو وتاب من الملك ، واستولى الغز على البلاد ، فنهبوا نيسابور ، وقتلوا الكبار والصغار ، وقتلوا القضاة والعلماء والصلحاء الذين بتلك البلاد ، فقتل الحسين بن محمد الأرسانيدي ، والقاضي علي بن مسعود ، والشيخ محيي

(١) هكذا في ط ومعنى أسراً : أظهر ، والأقرب إلى الصواب أصراً : أي عزم .
انظر : لسان العرب مادة : (سَرَر) و (صَرَر) .

الدين بن يحيى الفقيه الشافعى الذى لم يكن فى زمانه مثله ، وكان رحلة الناس من الشرق والغرب وغيرهم من الأئمة والفضلاء ، ولم يسلم شىء من خراسان من النهب غير هراة ودهستان لحصانتها .

ولما كان من هزيمة سنجر وأسرده ما كان ، اجتمع عسكره على مملوك لسنجر يقال له : (أى به) ولقبه المؤيد ، واستولى المؤيد على نيسابور وطوس ونسا وأبيورد وشهرستان والدامغان وأزاح الغز عنها ، وأحسن السيرة فى الناس ، وكذلك استولى فى السنة المذكورة على الرى مملوك لسنجر يقال له : إينانج وهادى الملوک ، واستقر قدمه وعظم شأنه .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : قتل العادل بن السلار وزير الظافر العلوى ، قتله ربيبه عباس بن أبى الفتوح الصنهاجى بإشارة أسامة بن منقذ ، وكان العادل قد تزوج بأم عباس المذكور ، وأحسن تربية عباس فجازاه بأن قتله وولى مكانه ، وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب .
وفىها : كان بين عبدالمؤمن ملك الغرب وبين العرب حرب شديدة انتصر فيها عبدالمؤمن .
وفىها : مات رجار الفرنجى ملك صقلية بالخوانيق ، وكان عمره قريب ثمانين سنة ، وملكه نحو عشرين سنة ، وملك بعده ابنه غليالم .

وفىها : فى رجب توفى بغزنة بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم السبكتكىنى صاحب غزنة ، وقام بالملك بعده ولده نظام الدين خسروشاه ، وكانت مدة ملك بهرام شاه نحو ست وثلاثين سنة وذلك من حين قتل أخاه أرسلان شاه بن مسعود فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وكان ابتداء ولايته من حين انهزم أخوه قبل ذلك فى سنة ثمان وخمسمائة حسبما تقدم ذكره فى السنة المذكورة ، وكان بهرام شاه حسن السيرة .

وفىها : ملك الفرنج مدينة عسقلان ، وكانت لحلفاء مصر ، والوزراء يجهزون إليها المؤن والسلاح ، فلما كانت هذه السنة قتل العادل بن السلار واختلفت الأهواء فى مصر ، فتمكن الفرنج من عسقلان وحاصروها وملكوها .

وفىها : وصلت مراكب من صقلية فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية .

وفىها : توفى أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستانى المتكلم على مذهب الأشعرى ، وكان إماماً فى علم الكلام والفقه ، وله عدة مصنفات منها : نهاية الإقدام فى علم الكلام ، والملل والنحل ، والمناهج ، وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام ، ودخل بغداد سنة عشر وخمسمائة ، وكانت ولادته سنة سبع وستين وأربعمائة بشهرستان ، وتوفى بها .

وشهرستان : اسم لثلاث مدن :

الأولى : شهرستان خراسان بين نيسابور وخوارزم عند أول الرمل المتصل بناحية خوارزم وهي التي منها محمد الشهرستاني المذكور ، وبناها عبدالله بن طاهر أمير خراسان .
الثانية : شهرستان بأرض فارس .

الثالثة : مدينة جى بأصفهان يقال لها شهرستان ، وبينها وبين اليهودية مدينة أصفهان نحو ميل ، ومعنى هذه الكلمة مدينة الناحية بالعجمي ، لأن شهر اسم المدينة وأستان الناحية .
ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة :

ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز

في هذه السنة : في المحرم قتل الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبدالمجيد العلوي ، قتله وزيره عباس الصنهاجي ، وسببه أنه كان لعباس ولد حسن الصورة يقال له نصر ، فأحبه الظافر ومابقى يفارقه ، وكان قد قدم من الشام مؤيد الدولة أسامة بن منقذ الكتاني في وزارة العادل ، فحسن لعباس قتل العادل فقتله وتولى مكانه ، ثم حسن لعباس أيضاً قتل الظافر ، فإنه قال له : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ، فقال له عباس : ما هو ؟ فقال : إن الناس يقولون إن الظافر يفعل بابنك نصر ، فأنف عباس وأمر ابنه نصرًا فدعا الظافر إلى بيته وقتلاه وقتلا كل من معه ، وسلم خادم صغير فحضر إلى القصر وأعلمهم بقتل الظافر ، ثم حضر عباس إلى القصر وطلب الاجتماع بالظافر وطلبه من أهل القصر فلم يجدوه ، فقال : أنتم قد قتلتموه ، فأحضر أخوين للظافر يقال لهما : يوسف وجبريل ، وقتلها عباس المذكور أيضاً .

ثم أحضر الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل ثاني يوم قتل أبوه ، وله من العمر ثلاث سنين ، فحملة عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس ، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر النفيسة شيئاً كثيراً ، ولما فعل عباس ذلك اختلفت عليه الكلمة وثارت الجند والسودان ، وكان طلائع بن رزيك في منية ابن خصيب والياً عليها ، فأرسل إليه أهل القصر من النساء والخدام يستغيثون به ، وكان فيه شهامة ، فجمع جمعه وقصد عباساً ، فهرب عباس إلى نحو الشام بما معه من الأموال والتحف التي لا يوجد مثلها ، ولما كان في أثناء الطريق خرجت الفرنج على عباس المذكور فقتلوه وأخذوا ما كان معه وأسروا ابنه نصرًا ، وكان قد استقر طلائع بن رزيك بعد هرب عباس في الوزارة ، ولقب الملك

الصالح ، فأرسل الصالح بن رزيك إلى الفرنج وبذل لهم مالاً وأخذ منهم نصر بن عباس وأحضره إلى مصر ، وأدخل القصر فقتل على باب زويلة .

وأما أسامة بن منقذ فإنه كان مع عباس ، فلما قتل عباس هرب أسامة ونجا إلى الشام ، ولما استقر أمر الصالح بن رزيك وقع في الأعيان بالديار المصرية فأبادهم بالقتل والهروب إلى البلاد البعيدة .

ذكر حصر تكريت

في هذه السنة : سار المقتفى لأمر الله الخليفة بعساكر بغداد وحصر تكريت وأقام عليها عدة مجانيق ، ثم رحل عنها ولم يظفر بها .

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغتكين

كان الفرنج قد تغلبوا بتلك الناحية بعد ملكهم مدينة عسقلان ، حتى إنهم استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قهراً كل من أراد منهم الخروج من دمشق واللاحق بوطنه شاء صاحبه أو أبى ، فخشى نور الدين أن يملكوا دمشق ، فكاتب أهل دمشق واستمالهم في الباطن ، ثم سار إليها وحصرها ففتح له الباب الشرقي فدخل منه وملك المدينة وحصر مجير الدين في القلعة وبذل له إقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها نور الدين وأعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها إلى العراق ، وأقام ببغداد ، وابتنى داراً بقرب النظامية وسكنها حتى مات بها .

وفي هذه السنة والتي بعدها : ملك نور الدين قلعة تل باشر وأخذها من الفرنج . ثم دخلت سنة خمسين وخسمائة :

في هذه السنة : سار الخليفة المقتفى إلى دقوقا فحصرها ، وبلغه حركة عسكر الموصل إليه فرحل عنها ولم يبلغ غرضاً .

وفيها : هجم الغزنيسابور بالسيف ، وقيل كان معهم السلطان سنجر معتقلاً وله اسم السلطنة ولكن لا يلتفت إليه ، وكان إذا قدم إليه الطعام يدخر منه ما يأكله وقتاً آخر خوفاً من انقطاعه عنه لتقصيرهم في حقه .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخسمائة :

في هذه السنة : نارت أهل بلاد أفريقية على من بها من الفرنج فقتلوهم ، وسار عسكر عبدالمؤمن فملك بونة ، وخرجت جميع أفريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهديّة وسوسة . وفيها : قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن أفسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، وكان سليمان المذكور قد قدم إلى بغداد ، وخطب له بالسلطنة في هذه السنة ، وخلع عليه الخليفة المقتفى وقلده السلطنة على عاداتهم ، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل ، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه ، فانهزم سليمان شاه وسار يريد بغداد على شهرزور ، فخرج إليه على كوجك بعسكر الموصل فأسره وحبسه بقلعة الموصل مكرماً إلى أن كان منه ما نذكره في سنة خمس وخمسين وخسمائة .

ذكر وفاة خوارزم شاه

في هذه السنة : تاسع جمادى الآخرة ، توفي خوارزم شاه أئمز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد أصابه فالج ، فاستعمل أدوية شديدة الحرارة فاشتد مرضه وتوفي ، وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربعمائة ، وكان حسن السيرة ، ولما توفي ملك بعده ابنه أرسلان بن أئمز .

ذكر وفاة ملك الروم

في هذه السنة : توفي الملك مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان ابن سلجوق صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم ، ولما توفي ملك بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان المذكور .

ذكر هرب السلطان سنجر من أسر الغز

في هذه السنة : في رمضان ، هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وسار إلى قلعة ترمذ ، ثم سار من ترمذ إلى جيحون ، ووصل إلى دار ملكه بمرور في رمضان من هذه السنة ، فكانت مدة أسره من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : بايع عبدالمؤمن لولده محمد بولاية العهد بعده ، وكانت ولاية العهد لأبي حفص عمر ، وكان من أصحاب ابن تومرت وهو من أكبر الموحدين ، فأجاب إلى خلع نفسه والبيعة لابن عبدالمؤمن .

وفيها : استعمل عبدالمؤمن أولاده على البلاد ، فاستعمل ابنه عبدالله على بجاية وأعمالها وابنه عمر على تلمسان وأعمالها ، وابنه علياً على فاس وأعمالها ، وابنه أبا سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة ، وكذلك غيرهم .

وفي هذه السنة : سار الملك محمد ابن السلطان محمود السلجوقي من همدان بعساكر كثيرة إلى بغداد وحصرها وجرى بينهم قتال ، وحصن الخليفة المقتفى دار الخلافة واعتد للحصار واشتد الأمر على أهل بغداد ، وبينما الملك محمد على ذلك ، إذ وصل إليه الخبر أن أخاه ملكشاه ابن السلطان محمود والدكز صاحب بلاد أران ومعه الملك أرسلان ابن الملك طغريل بن محمد ، وكان الدكز مزوجاً بأم أرسلان المذكور قد دخلوا إلى همدان ، فرحل الملك محمد عن بغداد وسار نحوهم في الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

وفيها : احترقت بغداد ، فاحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الأزج وسوق السلطان وغير ذلك .

وفيها : توفي أبو الحسن بن الخل شيخ الشافعية في بغداد ، وهو من أصحاب الشاشي ، وجمع بين العلم والعمل .

وتوفي : ابن الآمدى الشاعر وهو من أهل النيل في طبقة العزى والأرجاني وكان عمره قد زاد على تسعين سنة .

وفيها : قتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة ، قتل في الحمام وتولى بعده ابنه .

وفيها : توفي الواواء الحلبي الشاعر المشهور .

وفيها : توفي الحكيم أبو جعفر بن محمد البخاري بإسفرائن ، وكان عالماً بعلوم الفلسفة .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة :

ذكر الزلازل بالشام وأخبار بني منقذ أصحاب شيزر إلى أن ملك نور الدين شيزر

في هذه السنة : في رجب كان بالشام زلازل قوية ، فخربت بها حماة وشيزر وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وأنطاكية وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الأسوار والقلاع ، فقام نور الدين محمود بن زنكى في ذلك الوقت المقام المرضى من تداركها بالعمارة ، وإغارته على الفرنج ليشغلهم عن قصد البلاد ، وهلك تحت الهدم ما لا يحصى ، ويكفى أن معلم كتاب كان بمدينة حماة فارق المكتب ، وجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم : فلم يحضر أحد يسأل عن صبي كان له هناك ، ولما خربت قلعة شيزر بهذه الزلزلة ، ومات بنو منقذ تحت الردم سار الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى إلى شيزر وملكها يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، واستولى على كل من فيها لبني منقذ وسلمها إلى مجد الدين أبى بكر بن الداية .

وقد ذكر ابن الأثير : أن شيزر لم تزل لبني منقذ يتوارثونها من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب ، وليس الأمر كذلك ، فإن صالح المذكور كانت وفاته في سنة عشرين وأربعمائة ، وملك بني منقذ لشيزر كان في سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، فيكون ملكهم لشيزر بعد وفاة صالح بن مرداس بأربع وخمسين سنة .

ونحن نورد أخبار بني منقذ محققة حسبها نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، وكان المذكور أفضل بني منقذ قال : وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة ، بدأ جدى سديد الملك أبو الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكتاني بعمارة حصن الجسر وحصر به حصن شيزر ، (أقول) : ويعرف الجسر المذكور في زماننا بجسر ابن منقذ ، وموضع الحصن اليوم تل خال من العمارة ، وهو غربى شيزر على مسافة قريبة منها .

رجعنا إلى كلام ابن منقذ قال : وكان في شيزر وال للروم اسمه دمتري ، فلما طالت المضايقة لدمتري المذكور ، راسل جدى هو ومن عنده من الروم في تسليم حصن شيزر إليه باقتراحات اقترحوها عليه ، منها مال يدفعه إلى دمتري المذكور ، ومنها إبقاء أملاك الأسقف الذى بها عليه ، فإنه استمر مقيما تحت يد جدى حتى مات بشيزر ، ومنها أن القنطارية وهم

رجال الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين ، فسلم إليهم جدى ما التمسوه ، وتسلم حصن شيزر يوم الأحد في رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، واستمر سيد الملك على بن مقلد المذكور مالكاها إلى أن توفى فيها في سادس المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وتولى بعده ولده أبو المرهف نصر بن على إلى أن توفى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وتولى بعده أخوه أبو العساكر سلطان بن على إلى أن توفى فيها ، وتولى ولده محمد بن سلطان إلى أن مات تحت الردم هو وثلاثة أولاده بالزلزلة في هذه السنة المذكورة ، أعنى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في يوم الاثنين ثالث رجب ، انتهى ما نقلناه من تاريخ ابن منقذ .

ولنرجع إلى كلام ابن الأثير قال : فلما انتهى ملك شيزر إلى نصر بن على بن نصر بن منقذ ، استمر فيها إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة - فلما حضره الموت استخلف أخاه مرشد بن على بن على حصن شيزر ، فقال مرشد : والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها - ومرشد هو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ، فلما امتنع مرشد من الولاية ولاها نصر أخاه الصغير سلطان بن على ، واستمر مرشد مع أخيه سلطان على أجل صحة مدة من الزمان ، وكان لمرشد عدة أولاد نجباء ، ولم يكن لسلطان ولد ، ثم جاء لسلطان الأولاد فخشى على أولاده من أولاد أخيه مرشد ، وسعى المفسدون بين مرشد وسلطان ، فتغير كل منها على صاحبه ، فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبياتاً يعاتبه ، وكان مرشد عالماً بالأدب والشعر ، فأجابه مرشد بقصيدة طويلة منها :

شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها	فيا عجباً من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما	عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بهاتيه الجمال إلى القلى	وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا

ومنها :

ولما أتاني من قريظك جوهر	جمعت المعالي فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حيناً لأنه	تولى برغمي حين ولى شبابيا

ومنها :

وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى	ويحفظ عهدي فيهم وذمابيا
فمالك لما أن حنى الدهر سعدتى	وثلم منى صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة	وقربك منهم جفوة وتنائيا
على أننى ما حلت عما عهدته	ولا غيرت هذى السنون وداديا

وكان الأمر بين مرشد وأخيه سلطان فيه تماسك إلى أن توفى مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فأظهر سلطان التغير على أولاد أخيه مرشد المذكور وجاهرهم بالعداوة ففارقوا

شيزر ، وقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكى وشكوا إليه من عمهم سلطان فغاضه ذلك ، ولم يمكنه قصده لاشتغاله بجهاد الفرنج ، وبقي سلطان كذلك إلى أن توفى ، وولى بعده أولاده ، فلما خربت القلعة فى هذه السنة بالزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين كانوا بها أحد ، فإن صاحبها منهم كان قد ختن ولده ، وعمل دعوة للناس وأحضر جميع بنى منقذ فى داره ، فجاءت الزلزلة فسقطت الدار والقلعة عليهم فهلكوا عن آخرهم ، وكان لصاحب شيزر ابن منقذ المذكور حصان يحبه ولا يزال على باب داره فلما جاءت الزلزلة وهلك بنو منقذ تحت الهدم ، سلم منهم واحد وهرب يطلب باب الدار ، فلما خرج من الباب رفسه الحصان المذكور فقتله ، وتسلم نور الدين القلعة والمدينة .

ذكر وفاة السلطان سنجر

فى هذه السنة : فى ربيع الأول توفى السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق ، أصابه قولنج ثم إسهال فمات منه ، ومولده بسنجر فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، واستوطن مدينة مرو من خراسان وقدم إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد ، واجتمع معه بالخليفة المستظهر ، فلما مات محمد خطب سنجر بالسلطان ، واستقام أمره وأطاعته السلاطين ، وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة ، وكان قبلها يخاطب بالملك نحو عشرين سنة ، ولم يزل أمره عالياً إلى أن أسره الغز ، ولما خلاص من أسرهم وكاد أن يعود إليه ملكه أدركه أجله ، وكان مهيباً كريماً ، وكانت البلاد فى زمانه آمنة - ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته ، ولما حضر سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن أخت سنجر ، فأقام خائفاً من الغز .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : استولى أبوسعيد بن عبدالمؤمن على غرناطة من الأندلس وأخذها من المثلثين ، وانقرضت دولة المثلثين ولم يبق لهم غير جزيرة ميورقة ، ثم سار أبوسعيد فى جزيرة الأندلس وفتح المرية وكانت بأيدي الفرنج مدة عشر سنين .

وفىها : ملك نور الدين بعلبك وأخذها من إنسان كان قد استولى عليها من أهل البقاع يقال له ضحاك البقاعى ، كان قد ولاه صاحب دمشق عليها ، فلما ملك نور الدين دمشق استولى ضحاك المذكور على بعلبك .

وفىها : قلع المقتفى الخليفة باب الكعبة وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً يدفن فيه .

وفيها : مات محمد بن عبداللطيف بن محمد الخجندی ، رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان ، وكان صدراً مقدماً عند السلاطين .
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة :

فيها : قصد ملكشاه ابن السلطان محمود السلجوقي قم وقاشان ونهبها ، وكان أخوه السلطان محمد بن محمود بعد رحيله عن حصار بغداد قد مرض فطال مرضه ، فأرسل إلى أخيه ملكشاه أن يكف عن النهب ويجعله ولي عهده ، فلم يقبل ملكشاه ذلك ، ثم سار ملكشاه إلى خورستان واستولى عليها وأخذها من صاحبها شملة التركماني .

وفي هذه السنة : توفي يحيى بن سلامة بن الحسن بيمافارقين الحصكفي الشاعر ، وكان يتشيع ، ومن شعره :

وخلع بت أعذله	ويرى عذلي من العبث
قلت إن الخمر مخبثة	قال حاشاها من الخبث
قلت فالأرفاث تتبعها	قال طيب العيش في الرفث
قلت منها القيء قال أجل	شرفت عن مخرج الخبث
وسأسلوها فقلت متى	قال عند الكون في الجثث

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة :

ذكر فتح المهديّة

في أواخر هذه السنة : نزل عبد المؤمن على مدينة المهديّة وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وملك جميع أفريقية - وكان قد ملك الفرنج المهديّة في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وأخذوها من صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي ، وبقيت في أيديهم إلى هذه السنة ، ففتحها عبد المؤمن ، فكان ملك الفرنج المهديّة اثنتي عشرة سنة تقريباً ، ولما ملكها عبد المؤمن أصلح أحوالها ، واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها ، وكان قد سار إلى بني حماد ملوك بجاية ، ثم اتصل بعبد المؤمن حسبما تقدم ذكر ذلك ، فأقام عنده مكرماً إلى هذه السنة ، فأعاد عبد المؤمن إلى المهديّة ، وأعطاه بها دوراً نفيسة وأقطاعاً ، ثم رحل عبد المؤمن عنها إلى الغرب .

ذكر وفاة السلطان محمد

وفي هذه السنة : وقيل في سنة خمس وخمسين ، توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في ذي الحجة ، وهو الذي حاصر بغداد - ولما عاد عنها لحقه سل وطلال به فمات بباب همدان ، وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وكان كريماً عاقلاً ، وخلف ولداً صغيراً ، ولما حضره الموت سلم ولده إلى أقسنقر الأحمدي وقال : أنا أعلم أن العساكر لا تطيع مثل هذا الطفل فهو وديعة عندك ، فارحل به إلى بلادك فرحل به أقسنقر إلى بلدة مراغا ، ولما مات السلطان محمد اختلفت الأمراء ، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان الذي كان قد اعتقل في الموصل وهم الأكثر ، ومنهم من طلب أرسلان بن طغريل الذي كان مع الدكر ، وبعد موت محمد سار أخوه ملكشاه إلى أصفهان فملكها .

ذكر مرض نور الدين

وفي هذه السنة : مرض نور الدين بن زنكي مرضاً شديداً ، أرجف بموته بقلعة حلب ، فجمع أخوه أمير ميران بن زنكي جمعاً وحصر قلعة حلب ، وكان شيركوه بجمص وهو من أكبر أمراء نور الدين ، فسار إلى دمشق ليستولي عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب ، فأنكر عليه أيوب ذلك وقال : أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فإننا في دمشق تفعل ما تريد من ملكها ، فعاد شيركوه إلى حلب مجداً ، وجلس نور الدين في شباك يراه الناس فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير ميران واستقامت الأحوال .

ذكر أخبار اليمن (من تاريخ اليمن لعمارة)

وفي هذه السنة : استقر في ملك اليمن علي بن مهدي ، وأزال ملك بني نجاح على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة ، وعلى بن مهدي المذكور من حمير من أهل قرية يقال لها العنبرة من سواحل زبيد ، كان أبوه مهدي المذكور رجلاً صالحاً ، ونشأ ابنه على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالصلاح ، ثم حج واجتمع بالعراقيين وتضلع من معارفهم ، ثم صار علي بن مهدي المذكور واعظاً ، وكان فصيحاً صبيحاً حسن الصوت عالماً بالتفسير غزير المحفوظات ،

وكان يتحدث في شيء من أحواله المستقبلات فيصدق ، فمالت إليه القلوب ، واستفحل أمره ، وصار له جموع ، فقصد الجبال وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، ثم عاد إلى أملاكه ، وكان يقول في وعظه : أيها الناس ، دنا الوقت ، أظف الأمر ، كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموني عياناً ، ثم عاد إلى الجبال إلى حصن يقال له الشرف ، وهو لبطن من خولان فأطاعوه وسماهم الأنصار ، وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وأقام على خولان رجلاً اسمه سبا ، وعلى المهاجرين رجلاً اسمه التويتي ، وسمى كلا من الرجلين شيخ الإسلام وجعلهما نقيبين على الطائفتين فلا يخاطبه أحد غيرهما ، وهما يوصلان كلامه إلى الطائفتين ، وكلام الطائفتين وحوائجها إليه ، وأخذ يفادي الغارات ويرأوحها على التهائم حتى أخلى البوادي وقطع الحرث والقوافل ، ثم إنه حاصر زبيد واستمر مقيماً عليها حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بني نجاح ، قتله عبيده وجرى بين ابن مهدي وعبيد فاتك حروب كثيرة ، وآخرها أن ابن مهدي انتصر عليهم وملك زبيد ، واستقر في دار الملك يوم الجمعة رابع عشر رجب من هذه السنة ، أعني سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وبقي بن مهدي في الملك شهرين وأحد وعشرين يوماً ، ثم مات على بن مهدي المذكور في السنة التي ملك فيها في شوال .

ثم ملك اليمن بعده ولده مهدي بن علي بن مهدي ، ولم يقع تاريخ وفاته ، ثم ملك اليمن بعده ولده عبدالنبي بن مهدي ، ثم خرجت المملكة عن عبدالنبي المذكور إلى أخيه عبدالله ، ثم عادت إلى عبدالنبي واستقر فيها حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر في سنة تسع وستين وخمسمائة ، وفتح اليمن واستقر في ملكه وأسر عبدالنبي المذكور ، وهو عبدالنبي بن مهدي بن علي بن مهدي الحميري ، وهو من ملك اليمن من بني حمير .

وكان مذهب علي بن مهدي التكفير بالمعاصي وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة واستباحة وطء سباياهم واسترقاق ذرارهم ، وكان حنفي الفروع ، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقدونه الناس في الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومن سيرته قتل من شرب ومن سمع الغناء .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة :

ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان وما كان منه إلى أن قتل

مات محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، أرسلت الأمراء وطلبوا عمه

قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل بشيء كثير وجهاز يليق بالسلطنة ، وسار معه زين الدين على كجك بعسكر الموصل إلى همدان ، وأقبلت العساكر إليهم ، كل يوم تلقاه طائفة وأمير ، ثم تسلطت العساكر عليه ولم يبق له حكم ، وكان سليمان فيه تهور وخرق ، وكان يدمن شرب الخمر ، حتى إنه شرب في رمضان نهاراً ، وكان يجمع عنده المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء ، فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه ، وكان قد رد جميع الأمور إلى شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مسايخ الخدم السلجوقية يرجع إلى دين وحسن تدبير ، فاتفق يوماً أن سليمان شرب بظاهر همدان بالكشك ، فحضر إليه كردبازو ولامه ، فأمر سليمان مَنْ عنده من المساخر فعبثوا بكردبازو ، حتى إن بعضهم كشف له سوءته ، فاتفق كردبازو مع الأمراء على قبضه ، وعمل كردبازو دعوة عظيمة ، فلما حضرها الملك سليمان في داره قبض عليه كردبازو وحبسه ، وبقي في الحبس مدة ، ثم أرسل إليه كردبازو من خنقه وقيل سقاه سماً ، فمات في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وخمسمائة .

ولما مات سار الدكر في عساكر تيزيد على عشرين ألفاً ومعه أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان ، ووصل إلى همدان فلقبه كردبازو وأنزله في دار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة - وكان الدكر مزوجاً بأم أرسلان شاه ، فولدت للدكر أولاداً منهم البهلوان محمد وقرل أرسلان عثمان أبناء الدكر ، وبقي الدكر أتابك أرسلان وابنه البهلوان وهو أخو أرسلان لأمه حاجبه ، وكان هذا الدكر أحد مماليك السلطان مسعود ، اشتراه في أول أمره ، ثم أقطعه أران وبعض بلاد أذربيجان فعظم شأنه وقوى أمره .

ولما خطب لأرسلان شاه بالسلطنة في تلك البلاد أرسل الدكر إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه على عادة الملوك السلجوقية فلم يجب إلى ذلك ، ونحن قد قدمنا ذكر موت سليمان وولاية أرسلان ليتصل ذكر الحادثة ، وهى في الكامل مذكورة في موضعين في سنة خمس وسنة ست وخمسمائة .

ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين

في هذه السنة : توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر خليفة مصر ، وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين ، وكان عمره لما ولى ثلاث سنين ، وقيل خمس سنين ، ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر وسأل عمن يصلح ؟ فأحضر له منهم إنسان كبير السن - فقال بعض أصحاب الصالح له سرا : لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير ، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه ، وأمر بإحضار العاضد لدين الله أبي محمد عبدالله

ابن الأمير يوسف بن الحافظ ، ولم يكن أبوه خليفة ، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقاً فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح بابنته ، ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله .

ذكر وفاة المقتفى لأمر الله

في هذه السنة : ثاني ربيع الأول ، توفي الخليفة المقتفى لأمر الله أبو عبدالله محمد بن المستظهر أبي العباس أحمد بعلّة التراقي ، وكان مولده ثاني ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد ، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً ، وكان حسن السيرة ، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه ، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد ، حتى كان لا يفوته منها شيء .

ذكر خلافة المستنجد وهو ثاني ثلاثينهم

ولما توفي المقتفى لأمر الله محمد بويق ابنه يوسف ، ولقب المستنجد بالله ، وأم المستنجد أم ولد تدعى طاووس ، ولما بويق المستنجد بالخلافة بايعه أهله وأقاربه ، فمنهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى ، وكان أكبر من المستنجد ، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة وغيرهم .

ذكر وفاة صاحب غزنة

في هذه السنة : في رجب ، توفي السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم ابن مسعود بن محمد بن سبكتكين صاحب غزنة ، وكان عادلاً حسن السيرة ، وكانت ولايته في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ولما مات ملك بعده ابنه ملكشاه بن خسروشاه وقيل والده خسروشاه المذكور توفي في حبس غياث الدين الفوري ، وأنه آخر ملوك بني سبكتكين حسبها تقدم ذكره في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، والله أعلم بالصواب .

ذكر وفاة ملكشاه السلجوقي

في هذه السنة : توفي السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموماً .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيش نور الدين محمود بن زنكى .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة :

في هذه السنة : في ربيع الآخر ، توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغورى ملك الغور ، وكان عادلا حسن السيرة ، ولما مات ملك بعده ابن أخيه غياث الدين محمد ، وقد تقدم ذكر ذلك في سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ذكر نهب نيسابور وتخريبها وعمارة الشاذباخ

في هذه السنة : تقدم المؤيد (أى به) بإمساك أعيان نيسابور ، لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين ، وأخذ المؤيد يقتل المفسدين ، فخربت نيسابور ، وكان من جملة ما خرب مسجد عقيل ، وكان مجمعا لأهل العلم ، وكان فيه خزائن الكتب الموقوفة وخرب من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة ، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب .

وأما الشاذباخ ، فإن عبدا لله بن طاهر بن الحسين بناها لما كان أميراً على خراسان للمأمون وسكنها هو والجند ، ثم خربت بعد ذلك ، ثم جددت في أيام السلطان ألب أرسلان السلجوقى ، ثم تشعثت بعد ذلك ، فلما كان الآن وخربت نيسابور أمر المؤيد (أى به) بإصلاح سور الشاذباخ وسكنها هو والناس ، فخربت نيسابور كل الخراب ولم يبق بها أحد .

ذكر قتل الصالح بن رزك

في هذه السنة : في رمضان ، قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزك الأرمنى وزير العاضد العلوى ، جهزت عليه عمه العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ، ولم يمت في تلك الساعة ، بل حمل إلى بيته ، وأرسل يعتب على العاضد ، فأرسل العاضد إلى طلائع المذكور يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك ، وأمسك العاضد عمته وأرسلها إلى طلائع فقتلها ، وسأل العاضد أن يولى ابنه رزك الوزارة ولقب العادل ، ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزك في الوزارة ، وكان للصالح طلائع شعر حسن ، فعمته في الفخر :

أبي الله إلا أن يدين لنا الدهر ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفتى ألفه ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا سحاب لديه البرق والرعد والقطر

ذكر ملك عيسى مكة (حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة قاسم بن أبي فليته بن قاسم بن أبي هاشم العلوي الحسيني ، فلما سمع بقرب الحاج من مكة صادر المجاورين وأعيان مكة ، وأخذ أموالهم وهرب إلى البرية ، فلما وصل الحاج إلى مكة رتب أمير الحاج مكان قاسم عمه عيسى بن قاسم بن أبي هاشم فبقى كذلك إلى شهر رمضان ، ثم إن قاسم بن أبي فليته جمع العرب وقصد عمه عيسى ، فلما قارب مكة رخل عنها عيسى ، فعاد قاسم فملكها ، ولم يكن معه ما يرضى به العرب فكاتبوا عمه عيسى وصاروا معه ، فقدم عيسى إليهم ، فهرب قاسم وصعد إلى جبل أبي قبيس فسقط عن فرسه ، فأخذه أصحاب عمه عيسى وقتلوه ، فغسله عمه عيسى ودفنه بالمعلّى عند ابنه أبي فليته ، واستقرت مكة لعيسى .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : عبر عبدالمؤمن بن علي المجاز إلى الأندلس ، وبني على جبل طارق من الأندلس مدينة حصينة وأقام بها عدة أشهر ، ثم عاد إلى مراکش .
وفيها : ملك قرار أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان ، وكانت لطائفة من الأكراد ، ولما ملكها خربها وأضاف أعمالها إلى حصن طالب .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة :

في هذه السنة : نازل نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم وهى للفرنج مدة ، ثم رحل عنها ولم يملكها .

وفيها : سارت الكرج في جمع عظيم ودخلوا بلاد الإسلام وملكوا مدينة دوين من أعمال أذربيجان ونهبوها ، ثم جمع الدكر صاحب أذربيجان جمعاً عظيماً وغزا الكرج وانتصر عليهم .

وفيها : حج الناس فوقعت فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحج ، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على الطواف بعد الوقفة .

قال ابن الأثير : وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه فوصلت إلى بلادها وهي على إحرامها ، واستفتت الشيخ أبا القاسم بن البرزى فأفتى : أنها إذا دامت على ما بقى من إحرامها إلى قابل وطافت ، كمل حجها الأول ، ثم تفدى وتحل ثم تحرم إحراماً ثانياً وتقف بعرفات وتكمل مناسك الحج فيصير لها حجة ثانية ، فبقيت على إحرامها إلى قابل وفعلت كما قال ، فتم حجها الأول والثاني .

وفيها : مات الكيا الصنهاجى صاحب الأملوت مقدم الإسماعيلية وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة .

وفيها : فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الكهارية من أعمال الموصل ، وأصل الشيخ عدى من الشام من بلد بعلبك فانتقل إلى الموصل ، وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحي وأطاعوه وأحسنوا الظن به .
ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة :

ذكر وزارة شاور ثم الضرغام

فى هذه السنة : فى صفر وزر شاور العاضد لدين الله العلوى ، وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزّيك فولاه الصعيد ، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة ، ولما خرج الصالح أوصى ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور ، فلما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل ، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة ، فهرب العادل وطرده ووراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رزّيك ابن الصالح طلائع بن رزّيك ، وانقرضت بمقتله دولة بنى رزّيك ، وفيهم يقول عمارة التميمى من أبيات طويلة :

ولت لىالى بنى رزّيك وانصرمت والمدح والشكر فيهم غير منصرم
كان صالحهم يوما وعاد لهم فى صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

واستقر شاور فى الوزارة وتلقب بأمير الجيوش ، وأخذ أموال بنى رزّيك وودائعهم ، ثم الضرغام جمع جمعا ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وقوى على شاور ، فانهزم شاور إلى الشام مستنجدا بنور الدين ، ولما تمكن ضرغام فى الوزارة قتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد ، فضعفت الدولة لهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم .

ذكر وفاة عبدالمؤمن

فى هذه السنة : فى العشرين من جمادى الآخرة ، توفى عبدالمؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وأفريقية والأندلس ، وكان قد سار من مراكش إلى سلا ، فمرض بها ومات ، ولما

حضره الموت ، جمع شيوخ الموحدين وقال لهم : قد جربت ابني محمداً فلم أره يصلح لهذا الأمر ، وإنما يصلح له ابني يوسف فقدموه ، فبايعوه ودعى بأمر المؤمنين ، واستقرت قواعد ملكه ، وكانت مدة ولاية عبدالمؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً ، وكان حازماً سديد الرأي حسن السياسة للأمور ، كثير سفك الدم على الذنب الصغير ، وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس بالصلاة بحيث إنه من روى وقت الصلاة غير مصل قتل ، وجمع الناس في المغرب على مذهب مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : ملك المؤيد (أى به) قوس ، ولما ملكها أرسل إليه السلطان أرسلان بن طغرل بن ملكشاه خلعة وألوية وهدية جليلة ، فلبس المؤيد (أى به) الخلع وخطب له في بلاده .

وفي هذه السنة : كبس الفرنج نور الدين محمود وهو نازل بعسكره في البقعة تحت حصن الأكراد ، فلم يشعر نور الدين وعسكره إلا وقد أطلت عليهم صلبان الفرنج وقصدوا خيمة نور الدين فأسرعة ذلك ركب نور الدين فرسه وفي رجله السنبجة ، فنزل إنسان كردى فقطعها فنجأ نور الدين وقتل الكردى ، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ، وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق به من سلم من المسلمين .

وفيها : أمر الخليفة المستنجد بإجلاء بنى أسد ، وهم أهل الحلة المزيديّة ، فقتل منهم جماعة وهرب الباقيون وتشتتوا في البلاد ، وذلك لفسادهم في البلاد ، وسلمت بطائعهم وبلادهم إلى رجل يقال له ابن معروف .

وفيها : توفي سديد الدولة محمد بن عبدالكريم بن إبراهيم المعروف بابن الأنبارى ، كاتب الإنشاء بدار الخلافة ، وكان فاضلاً أديباً ، وكان عمره قريب تسعين سنة .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة :

في هذه السنة : سير نور الدين محمود بن زنكى عسكراً مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى الديار المصرية ومعهم شاور ، وكان قد سار من مصر هارباً من ضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجد به وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة ، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام ، وقتل ضرغام عند قبر السيدة نفيسة ، وأعاد شاور إلى وزارة العاضد العلوى .

وكان مسير أسد الدين في جمادى الأولى من هذه السنة ، واستقر شاور في الوزارة ،

وخرجت إليه الخلع في مستهل رجب من هذه السنة ، ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشيء مما شرط ، فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية ، فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من البلاد ، فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر ، وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار مدة ثلاثة أشهر ، وبلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذته حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له ، فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا إلى الشام سالمين .

وفي هذه السنة : في رمضان ، فتح نور الدين محمود قلعة حارم وأخذها من الفرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والفرنج ، انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر من الفرنج عالماً كثيراً ، وكان في جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وغنم منهم المسلمون شيئاً كثيراً .

وفي هذه السنة : أيضاً ، في ذى الحجة سار نور الدين إلى بانياس وفتحها ، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

وفي هذه السنة : توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في شعبان مقبوضاً عليه ، وكان قد قبض عليه قطب الدين في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكان قد تعاهد جمال الدين المذكور وأسد الدين شيركوه أنهما من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر إلى مدينة الرسول ﷺ فيدفنه فيها ، فنقله شيركوه ، واكترى له من يقرأ القرآن عند شيله وحطه ، وكان ينادى في كل بلد ينزلونه بها بالصلاة عليه ، ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتبكي رماله عليه وبالننادى فثنى أرامله

وطيف به حول الكعبة ، ودفن في رباط بالمدينة بناء لنفسه ، وبينه وبين قبر النبي ﷺ نحو خمسة عشر ذراعاً .

وهذا جمال الدين هو الذى جدد مسجد الخيف ببنى ، وبنى الحجر بجانب الكعبة ، وزخرف الكعبة ، وغرم جملة طائفة لصاحب مكة وللمقتنى حتى مكته من ذلك ، وهو الذى بنى المسجد الذى على جبل عرفات وعمل الدرج إليه ، وعمل بعرفات مصانع الماء ، وبنى سوراً على مدينة النبي ﷺ ، وبنى على دجلة جسراً عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، فقبض قبل أن يفرغ ، وبنى الربط وغيرها .

وفي هذه السنة : توفي نصر بن خلف ملك سجستان وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة ، وملك بعده ابنه أبو الفتح أحمد بن نصر .

وفيهما : توفي الإمام عمر الخوارزمي خطيب بلخ ومفتيها - والقاضي أبو بكر المحمودي صاحب التصانيف والأشعار ، وله مقامات بالفارسية على نظم مقامات الحريري .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة :

في هذه السنة : في ربيع الأول ، توفي شاه مازندران رستم بن علي بن شهریار بن قارن ، وملك بعده ابنه علاء الدين الحسن .

وفيهما : ملك المؤيد (أى به) مدينة هراة .

وفيهما : كان بين قليج أرسلان صاحب قونية وما جاورها من بلاد الروم وبين باغى أرسلان ابن الدانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلاد الروم حروب شديدة ، انهزم فيها قليج أرسلان ، واتفق موت باغى أرسلان صاحب ملطية في تلك المدة ، وملك بعده ملطية ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن الدانشمند ، واستولى ذو النون بن محمد بن الدانشمند على قيسارية ، وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قليج أرسلان مدينة أنكورية واصطلاح المذكورون على ذلك ، واستقرت بينهم القواعد واتفقوا .

وفيهما : توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة ، واسمه يحيى بن محمد بن المظفر ، وكان موته في جمادى الأولى ومولده سنة سبعين وأربعمائة ، ودفن بالمدرسة التي بناها للحنابلة بباب البصرة ، وكان حنبلي المذهب ، وأنفق على المقتفى إنفاقاً عظيماً ، حتى إن المقتفى كان يقول : لم يتوزر لبني العباس مثله ، ولما مات قبض على أولاده وأهله .

وفيهما : توفي الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى ، الفقيه الشافعي تفقه على الكيا الهراسي ، وكان أوحده زمانه في الفقه ، وهو من جزيرة ابن عمر .

وفيهما : توفي أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بأمين الدولة ابن التلميذ ، وقد ناهز المائة من عمره ، وكان طيب دار الخلافة ببغداد ، ومحظياً عند المقتفى ، وكان حاذقاً فاضلاً ظريف الشخص عالى الهمة مصيب الفكر ، شيخ النصارى وقسيسهم ، وكان له في الأدب يد طولى ، وكان متفنناً في العلوم ، وكان فضلاء عصره يتعجبون : كيف حرم الإسلام مع كمال فهمه وغزارة علمه ، والله يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يريد بحكمه .

وكان أوحده الزمان أبو البركات هبة الله بن ملكان الحكيم المشهور ، صاحب كتاب المعتبر في الحكمة معاصراً لابن التلميذ المذكور ، وكان بينها تنافس كما يقع كثيراً بين أهل كل فضيلة وصناعة ، وكان أبو البركات المذكور يهودياً ، ثم أسلم في آخر عمره ، وأصابه الجذام ، وتداوى وبرئ منه ، وذهب بصره وبقي أعمى وكان متكبراً ، وكان ابن التلميذ متواضعاً فعمل ابن التلميذ في أبي البركات المذكور :

لنا صديق يهودى حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه
ولا بن التلميذ أيضا :

يامن رماني عن قوس فرقته بسهم هجر على تلافيه
ارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

وله التصانيف الحسنة : منها كتاب أقرباذين ، وله على كليات القانون حواشى ، وكتاب
أقرباذين ابن التلميذ المذكور هو المعتمد عليه عند الأطباء ، وكان شيخه فى الطب أبا الحسن
هبة الله بن سعيد صاحب المغنى فى الطب ، ولا بن سعيد المذكور أيضا الإقناع فى الطب ، وهو
كتاب جيد فى أربعة أجزاء .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام ، وكان بيد الفرنج .
وفىها : فى ربيع الآخر ، توفى الشيخ عبد القادر بن أبى صالح الجبلى ، وكنيته أبو محمد ،
وكان مقىما ببغداد ، ومولده سنة سبعين وربعمائة ، قال ابن الأثير : كان من الصلاح على حال
عظيم ، وهو حنبلى المذهب ، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة :

فى هذه السنة : عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ، وجهزه نور الدين بعسكر
جيد ، عدتهم ألفا فارس ، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة ، وأرسل شاور إلى
الفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا فى إثر شيركوه إلى جهة الصعيد ، والتقوا على بلد يقال له
إيوان ، فانهزم الفرنج والمصريون ، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ، ثم سار إلى
الإسكندرية وملكها ، وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد شيركوه إلى
جهة الصعيد ، فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية مدة ثلاثة
أشهر ، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم
الإسكندرية ويعود إلى الشام ، فتسلم المصريون الإسكندرية فى منتصف شوال من هذه السنة ،
وسار شيركوه إلى الشام فوصل إلى دمشق فى ثامن عشر ذى القعدة ، واستقر الصلح بين
الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج بالقاهرة شحنة ، ويكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون
لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

وفى هذه السنة : فتح نور الدين صافيتا والغربية .

وفىها : عصا غازى بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه نور الدين

عسكرياً أخذوا منه منبج ، ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور ، فبقى فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيها : توفي فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، وملك بعده ولده نور الدين محمود بن قرا أرسلان بن داود .

وفيها : توفي عبدالكريم أبو سعيد بن محمد بن منصور بن أبي بكر المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي ، وكان مكثراً من سماع الحديث ، سافر في طلبه إلى ما وراء النهر ، وسمع منه ما لم يسمعه غيره ، وله التصانيف المشهورة الحسنة ، منها : ذيل تاريخ بغداد ، وتاريخ مدينة مرو ، وكتاب الأنساب في ثمان مجلدات ، وقد اختصر كتاب الأنساب المذكور الشيخ عز الدين علي بن الأثير في ثلاثة مجلدات ، والمختصر المذكور هو الموجود في أيدي الناس ، والأصل قليل الوجود ، وله غير ذلك ، وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فأوقع فيه ، فمن جملة قوله فيه : أنه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى ويقول : حدثني فلان بما وراء النهر - وهذا بارد جداً لأن السمعاني المذكور سافر إلى ما وراء النهر حقاً ، فأى حاجة به إلى هذا التدليس ، وإنما ذنبه عند ابن الجوزي أنه شافعي وله أسوة بغيره ، فإن ابن الجوزي لم يبق على أحد غير الحنابلة .

وكانت ولادة أبي سعيد السمعاني المذكور في شعبان سنة ست وخمسمائة ، وكان أبوه وجده فاضلين ، والسمعاني منسوب إلى سمعان وهو بطن من تميم .
ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

وفي هذه السنة : فارق زين الدين علي كجك بن بكتكين نائب قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة قطب الدين واستقر بأربل ، وكانت في إقطاع زين الدين علي المذكور قد عمى وطرش .
ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة :

ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر

في هذه السنة : ملك نور الدين محمود قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك ابن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المشيب العقيلي ، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه ، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحب مالك المذكور

بنو كلاب وأحضروه إلى نور الدين محمود ، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فأرسل عسكرياً مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبي على الزعفراني ، وردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية ، وكان رضيع نور الدين ، وحصروا قلعة جعبر فلم يظفروا منها بشيء ، ومازالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضاً مدينة سرو بأعمالها ، والمملوحة من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة ، وباب بزاعة .

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ، ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

في هذه السنة : أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة في ربيع الأول ، سار أسد الدين شيركوه ابن شاذى إلى ديار مصر ومعه العساكر النورية ، وسبب ذلك تمكن الفرنج من البلاد المصرية ، وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبس قهراً في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ، ثم ساروا من بلبس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فأحرق شاور مدينة مصر خوفاً من أن يملكها الفرنج ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ، فأرسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به ، وأرسل في الكتب شعور النساء .

وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم ، فحمل إليهم مائة ألف دينار وسألهم أن يرحلوا على القاهرة ليقدر على جمع المال وحمله فرحلوا - فجهز نور الدين العسكر مع شيركوه ، وأنفق فيهم المال ، وأعطى شيركوه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك ، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾^(١) ، ولما قارب شيركوه مصر رحل الفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم ، فكان هذا لمصر فتحاً جديداً ، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في ربيع الآخر ، واجتمع بالعاضد وخلع عليه ، وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية ، وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة ، وشرع شاور يماطل شيركوه فيما بذله لنور الدين من تقرير المال ،

وإفراد ثلث البلاد له ، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعدّه
ويعينه ﴿ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾^(١) .

ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك ، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور ، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف ، وعزالدين جرديك وغيرهما وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه ، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضى الله عنه ، فلقى صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعي ، فساروا جميعاً إلى شيركوه ، فوثب صلاح الدين وجرديك ومن معها على شاور وألقوه إلى الأرض عن فرسه وأمسكوه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة - أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة - فهرب أصحابه عنه ، وأرسلوا أعلموا شيركوه بما فعلوه فحضر ، ولم يمكنه إلا إتمام ذلك .

وسمع العاضد الخبر ، فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور فقتله ، وأرسل رأسه إلى العاضد ، ودخل بعد ذلك شيركوه إلى القصر عند العاضد ، فخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش ، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور واستقر في الأمر ، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلى أو له بعد البسملة :

من عبدالله ووليه أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجلّ الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة بحير الأمة أسد الدين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

ونسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً .

ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه ووصايا أضر بنا عنها للاختصار ، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور : « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة البنوة » .

ومدحت الشعراء أسد الدين ، ووصل إليه من الشام مديح لعماد الكاتب قصيدة أولها :
بالجد أدركت ما أدركت لا اللب كم راحة جُنيت من دَوحة التعب

يا شيركوه بن شاذى الملك دعوة مَنْ
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
قل من ملك مصر رتبة قصرت
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
نادى فعرف خير ابن خير أب
من المدى فى العلا ما حزت بالخبب
عنها الملوك فظالت سائر الرتب
فتح البلاد فباد نحوها وثب
وفى شيركوه وقتل شاور يقول عرقله الدمشقى :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه
بغى وطفى حتى لقد قال صحبه
فلا رحم الرحمن تربة قبره
وأما الكامل بن شاور ، فلما قتل أبوه دخل القصر ، فكان آخر العهد به .
ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله ﴿ حَتَّى إِذَا فَرَحوْا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً ﴾^(١) ، وتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ،
فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

وكان شيركوه وأيوب ابنى شاذى من بلد دوين ، قال ابن الأثير : وأصلها من الأكراد
الروادية ، فقصدا العراق وخرما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من
شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً لقلعة تكريت ، ولما انكسر عماد الدين زنكى من عسكر
الخليفة ومراً على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنساناً بتكريت فأخرجها
بهروز من تكريت فلاحقاً بخدمة عماد الدين زنكى فأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جليلة ،
ولما ملك عماد الدين زنكى قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها ، ولما حاصره عسكر دمشق
بعد موت زنكى سلمها أيوب إليهم على إقطاع كبير شرطوه له ، وبقي أيوب من أكبر أمراء
عسكر دمشق ، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكى ، وأقطعه نور الدين
حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها ، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين
ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب ، فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق وبقي
مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها وتوفى فيها فى هذه
السنة على ما ذكرناه .

ولما توفى شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذى ، وكان قد سار
معه على كره ، قال صلاح الدين : أمرنى نور الدين بالسير مع عمى شيركوه ، وكان قد قال
نيركوه بحضرته لى : تجهز يا يوسف للمسير ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت

إليها ، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية ما لا أنساه أبداً ، فقال لنور الدين : لا بد من مسيره معي : فأمرني نور الدين وأنا أستقبل ، فقال نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت الضائقة ، فأعطاني ما تجهزتُ به ، فكأنما أنساق إلى الموت ، فلما مات شيركوه ، طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية ، منهم : عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال النيجى ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكارى ، وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين ، فأرسل العاضد [مَنْ] أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، فلم تطعه الأمراء المذكورون ، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكارى ، فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمى وقال : هذا ابن أختك ، وعزه وملكه لك ، فمال إليه أيضا ، ثم فعل بالباقيين كذلك ، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقى فإنه قال : أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام .

وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين ، وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الإسفهلار" ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده بكتاب بل إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله ، فأرسلهم إليه نور الدين ، فأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر ، وتمكن من البلاد ، وضعف أمر العاضد ، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى .

قال ابن الأثير مؤلف الكامل : رأيت كثيراً من ابتدئ بالملك ينتقل إلى غير عقبه :
* فإن معاوية تغلب وملك ، فانتقل الملك إلى بنى مروان بعده .

* ثم ملك السفاح من بنى العباس ، فانتقل الملك إلى أخيه المنصور وعقبه .

* ثم السامانية أول من ابتدئ بالملك منهم نصر بن أحمد ، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبه .

* ثم عماد الدولة بن بويه ملك ، فانتقل الملك إلى عقب أخيه ركن الدولة .

* ثم ملك طغريل بك السلجوقى ، فانتقل الملك إلى عقب أخيه داود .

* ثم شيركوه ملك ، فانتقل الملك إلى ابن أخيه - ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه ، بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب ،

وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك أولاً وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبه ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤمن الخلافة وكان مقدم السودان ، فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصر في عدد كثير ، وجرى بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان ، وقتل منهم خلق كثير ، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلاً وتهجيماً ، وحكم صلاح الدين على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدى وكان خصياً أبيض ، وبقي لا يجرى في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : كان بين إينانج صاحب الرى والدكر حرب انتصر فيها الدكر وملك الرى ، وهرب إينانج وانحصر في بعض القلاع ، فأرسل الدكر ورغب غلمان إينانج في الإقطاعات إن قتلوا إينانج أستاذهم فقتلوه ولحقوا بالدكر فلم يف لهم وقال : مثل هؤلاء لا ينبغي الإبقاء عليهم ، فهربوا إلى البلاد ، ولحق بعضهم وهو الذى قتل أستاذه بخوارزم شاه فصلبه لخيانته أستاذه .

وفيهما : توفى الشيخ أبو محمد الفارقى وكان أحد الزهاد وله كرامات كثيرة ، كان يتكلم على الخاطر ، وكلامه مجموع مشهور .

وفيهما : توفى ياروق أرسلان التركمانى ، وكان مقدماً كبيراً ، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة ، يسكن بظاهر حلب ، وبني على شاطئ قويق هو وأتباعه عمائر كثيرة ، وتعرف الآن بالياروقية وهى مشهورة هناك .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة :

فيها : سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها ، وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر ، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة ، فحصروها خمسين يوماً ، وأخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام ، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها ، قال صلاح الدين : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها .

وفيهما : سار نور الدين وحاصر الكرك مدة ثم رحل عنه .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين في عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام ، وكذلك خربت بلاد الفرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خرب من بلاده .

وفيها : في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن أقسنقر صاحب الموصل ، وكان مرضه حمى حادة ، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود إلى أخيه الذى هو أصغر منه وهو سيف الدين غازى بن مودود ، فسار عماد الدين زنكى إلى عمه نور الدين مستنصرًا به ، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبًا ، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفًا ، وكان من أحسن الملوك سيرة .

وفي هذه السنة : توفي الملك طغرل بك بن قاورد بك صاحب كرمان ، واختلف أولاده بهرام شاه ، وأرسلان شاه وهو الأكبر ، واستنجد كل منها وطلب الملك فاتفق في تلك المدة أن أرسلان شاه الأكبر مات فاستقر بهرام شاه في ملك كرمان .

وفيها : توفي مجد الدين أبو بكر بن الداية رضيع نور الدين ، وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر إقطاع ، فأقر نور الدين أخاه عليًا بن الداية على إقطاعه .

وفيها : توفي محمد بن محمد بن ظفر صاحب كتاب « سلوان المطاع » صنفه لبعض القواد بصقلية سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وله أيضًا كتاب « نجباء الأبناء » ، وشرح مقامات الحريرى ، ومولده بصقلية ، وتنقل بالبلاد ، وأقام بمكة شرفها الله تعالى ، وسكن آخر وقت مدينة حماة وتوفي بها ، ولم يزل يكابد الفقر حتى مات رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة :

ذكر وفاة المستنجد وخلافة المستضىء

وهو ثالث ثلاثينهم

في هذه السنة : تاسع ربيع الآخر ، توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتضى لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية ، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خاف منه أستاذ داره عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء ، وقطب الدين قيمان المقتوى وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد ، فاتفقا ووضعوا الطبيب على أن يصف له ما يهلكه فوصف له دخول الحمام فامتنع منه لضعفه ، ثم إنه دخلها وغلق عليه الباب فمات .

ولما مات المستنجد أحضر عضد الدين وقطب الدين المستضيء بأمر الله ابن المستنجد واشترطاً عليه شروطاً : أن يكون عضد الدين وزيراً ، وابنه كمال الدين أستاذ داره ، وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك ، واسم المستضيء الحسن وكنيته أبو محمد ، ولم يل الخلافة من اسمه حسن غير الحسن بن علي المستضيء فبايعوه بالخلافة يوم مات أبوه بيعة خاصة وفي غده بيعة عامة ، وكان المستنجد حسن السيرة ، أطلق كثيراً من المكوس^(١) ، وكان شديداً على أهل العبث والفساد .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : سار نور الدين محمود بن زنكى إلى الموصل وهى بيد ابن أخيه غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ، فاستولى عليها نور الدين وملكها ، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها ، وأطلق المكوس منها ، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازى المذكور ، وأعطى سنجار لعماد الدين زنكى بن مودود ، وهو أكبر من أخيه سيف الدين غازى ، فقال كمال الدين الشهر زورى : فى هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكى ، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء .

وفي هذه السنة : سار صلاح الدين عن مصر ، فغزا بلاد الفرنج قرب عسقلان والرملة ، وعاد إلى مصر ، ثم خرج إلى أيلة وحصرها ، وهى للفرنج على ساحل البحر الشرقى ، ونقل إليها المراكب وحصرها براً وبحراً ، وفتحها فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر ، ولما استقر صلاح الدين بمصر ، كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يجلس فيها فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية ، وكذلك بنى دار الغزل مدرسة للشافعية ، وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة ، ورتب قضاة شافعية ، وذلك فى العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقي الدين عمر ابن أخيه صلاح الدين منازل الغز وبنها مدرسة للشافعية .

وفي هذه السنة : توفى القاضى ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم ، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها .

(١) المكس : الجباية انظر لسان العرب مادة مكس .

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة :

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

في هذه السنة : ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد ، ولم يل الخلافة ابن المستنصر بالله أبي تميم معد ابن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور ابن العزيز بالله أبي منصور ابن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد ابن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله أول الخلفاء العلويين من هذا البيت ، وقد مر ذكر نسبه في ابتداء دولتهم .

وكان سبب الخطبة العباسية بمصر ، أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر وحكم على القصر وأقام فيه قراقوش الأسدي ، وكان خصياً أبيض ، وبلغ نور الدين ذلك ، أرسل إلى صلاح الدين يأمره حتماً جزماً بقطع الخطبة العلوية ، وإقامة الخطبة العباسية ، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة ، فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك وأصر عليه .

وكان العاضد قد مرض ، فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضى ويقطعوا خطبة العاضد فامثلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته ، فتوفي العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته ، ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ، وكان كثرته تخرج عن الإحصاء ، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق المثمنة والكتب والتحف ، فمن ذلك الحبل الياقوت ، وكان وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً - قال ابن الأثير مؤلف الكامل : أنا رأيته ووزنته .

ومما حكى أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب الإنسان به ضَرْطٌ ، فكُسِرَ ولم يعلموا به إلا بعد ذلك ، ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم ، وأخرج جميع من فيه من عبيد وأمة ، فباع البعض وعتق البعض ووهب البعض ، وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس ، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ، فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه ، فلما توفي علم صدقه فتقدم لتخلفه عنه .

وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربع عشرة خليفة : المهدي والقائم والمنصور والمعز

والعزيز والحاكم والطاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاقد - جميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاقد في هذه السنة ، أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة - مائتان واثنان وسبعون سنة تقريباً ، وهذا دأب الدنيا ، لم تعط إلا واستردت ، ولم تحل إلا وقررت ، ولم تصف إلا وتكدت ، بل صفوها لا يخلو من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ، ضربت لها البشائر عدة أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل - وهو من خواص الخدم المقتوية - إلى نور الدين وصلاح الدين ، والخطباء وسيرت الأعلام السود .

وكان العاقد المذكور قد رأى في منامه أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاقد ، ولدغته ، فاستيقظ العاقد مرعوباً ، واستدعى من يعبر الرؤيا ، وقصَّ ما رآه عليه فعبره له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد ، فتقدم العاقد إلى والي مصر بإحضار مَنْ بذلك المسجد ، فأحضر إليه شخصاً صوفياً يقال له نجم الدين الخبوشاني ، فاستخبره العاقد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد المذكور ، فأخبره بالصحيح في ذلك ، فرآه العاقد أضعف من أن يناله بمكروه فوصله ببال وقال له : ادع لنا ياتشيخ وأمره بالانصراف ، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك ، فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء ، وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم ، فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساوئهم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام في ذلك ، فصح بذلك رؤيا العاقد .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في الباطن ، فإن صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهي للفرنج ، ثم رحل عنه خوفاً أن يأخذه ، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك ، وبلغ نور الدين ذلك فكتمه ، وتوحش باطنه لصلاح الدين .

ولما استقر صلاح الدين بمصر ، جمع أقاربه وكبراء دولته وقال : بلغني أن نور الدين يقصدنا فما الرأي ؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه : نقاتله ونصدّه ، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب ، فأنكر على تقي الدين ذلك وقال : أنا والدكم ، لو رأيت نور الدين ، نزلت وقبلت الأرض بين يديه ، بل اكتب وقل لنور الدين ، إنه لو جاءني من عندك إنسان واحد ،

وربط المنديل في عنقي وجرتني إليك ، سارعتُ إلى ذلك ، وانفضوا على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له : لو قصدنا نور الدين ، أنا كنتُ أول من يمنعه ويقاتله ، ولكن إذا أظهرنا ذلك ، يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ، ولا ندرى ما يكون من ذلك ، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله ، فكان كما قال .

وفي هذه السنة : توفي الأمير محمد بن مردانيش ، صاحب شرقى بلاد الأندلس ، وهي مرسية وبلنسية وغيرهما ، فقصد أولاده أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب ، وسلموا إليه بلادهم ، فسُرَّ يوسف بذلك وتسلمها منهم ، وتزوج بأختهم ، وأكرمهم ووصلهم بالأموال الجزيلة ، وكان قد قصدهم يوسف المذكور في مائة ألف مقاتل ، فأجابوا بدون قتال كما ذكرنا .

وفي هذه السنة : عبر الخطا نهر جيحون ، فجمع خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد ابن أنوش تكين عساكره ، وسار إلى لقائهم ، فمرض خوارزم شاه ، ورجع مريضاً ، وأرسل عسكرياً مع بعض المقدمين ، فاقتتلوا مع الخطا ، وانهزم عسكر خوارزم شاه وأسر مقدمهم ، ورجع الخطا إلى بلادهم بعد ذلك .

وفي هذه السنة : اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي ، وتسمى المناسيب لنقل البطايق والأخبار .

وفيها : عزل المستضيء وزيره عضد الدين بن رئيس الرؤساء مكرهاً ، لأن قطب الدين قيمانز ألزمه بعزله ، فلم يمكنه مخالفته .

وفيها : مات يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي الأندلسي القرطبي ، وكان إماماً في القراءة والنحو وغيره من العلوم ، توفي بالموصل .

وفيها : توفي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ، المعروف بابن الخشاب البغدادي ، العالم المشهور في الأدب والنحو والتفسير والحديث ، وكان متضلعا في العلوم ، وكان قليل الاكتراث بالمأكل والملبس .

وفيها : توفي نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد النور بن قلاقس الشاعر المشهور الإسكندري ، مدح القاضي الفاضل ، وكان كثير الأسفار ، سار إلى صقلية في سنة ثلاث وخمسين ، ثم عاد وسار إلى اليمن في سنة خمس وستين وخمسمائة وفي كثرة أسفاره يقول :

الناس كثر ولكن لا يقدر لي إلا مرافقة الملاح والحادي

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة :

في هذه السنة : توفي خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد عاد

من قتال الخطا مريضاً ، ولما مات ملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود ، ودبرت والدته المملكة ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكين مقيماً في جند قد أقطعه أبوه إياه ، فلما بلغه موت أبيه ، وولاية أخيه الصغير أنف من ذلك واستنجد بالخطا ، وسار إلى أخيه سلطان شاه وطرده ، ثم إن سلطان شاه قصد ملوك الأطراف ، واستنجدهم على أخيه تكش وطرده ، وكانت الحرب بينهم سجلاً حتى مات سلطان شاه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، واستقر في ملك خوارزم أخوه تكش بن أرسلان ، وفي تلك الحروب بين الأخوين قتل المؤيد (أى به) ، قتله تكش صبراً ، وملك بعده ابنه طغانشاه ابن المؤيد (أى به) .

وفي هذه السنة : سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة للتغلب عليها ، فلم تعجبه تلك البلاد ، فغنم وعاد إلى مصر .

وفي هذه السنة : توفي شمس الدين الدكر يهمدان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد ، وكان الدكر هذا مملوكاً للكمال السميرى وزير السلطان محمود ، ثم صار للسلطان محمود ، فلما ولي السلطان مسعود ولاء وكبره حتى صار ملك أذربيجان وغيرها من بلاد الجبل وأصفهان والرى ، وكان عسكره خمسين ألف فارس ، وكان يخطب في بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغريل بك ، ولم يكن لأرسلان معه حكم ، وكان الدكر حسن السيرة .

وفي هذه السنة : سار طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى أفريقية ، ونزلوا على طرابلس الغرب فحاصروها مدة ثم فتحها ، واستولى عليها قراقوش المذكور ، وملك كثيراً من بلاد أفريقية .

وفيها : غزا أبو يعقوب بن عبد المؤمن بلاد الفرنج بالأندلس .

وفيها : سار نور الدين محمود بن زنكى إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، واستولى على مرعش وهنسا ومرزبان وسيواس ، فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح ، فقال نور الدين : لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذى النون بن الدانشمند ، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه ، فبذل له سيواس ، واصطلح معه نور الدين ، فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس ، وطرد ابن الدانشمند .

وفيها : سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها ، وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك ، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم ، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين ، فرحل صلاح الدين عن الكرك عائداً إلى مصر ، وأرسل تحفاً إلى نور الدين ، واعتذر أن أباه أيوب مريض ويخشى أن يموت فتذهب مصر ، فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود ، ولما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وجد أباه أيوب قد مات ، وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذى المذكور أنه

ركب بمصر فنفرت به فرسه ، فوقع وحمل إلى قصره ، وبقي أياماً ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة ، وكان أيوب خبيراً عاقلاً حسن السيرة كريماً كثير الإحسان .
وفيهما : توفي أبوتزار حسن بن أبي الحسن صافي بن عبد الله بن نزار النحوى ، وقد ناهز الثمانين ، وهو المعروف بملك النحاة ، وبرع في النحو حتى فاق فيه أهل طبقة ، وكان معجباً بنفسه ، ولقب نفسه بملك النحاة ، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وكذلك قرأ الأصولين والخلاف ، وسافر إلى خراسان وكرمان وغزنة ، ثم رحل إلى الشام ، واستوطن دمشق .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة :

ذكر ملك شمس الدولة توران شاه ابن أيوب اليمن

كان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين ، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر ، بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه ، فإن هزمهم التجثوا إلى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها ، ثم سيره في هذه السنة بعسكر إلى اليمن ، وكان صاحب اليمن حينئذ إنساناً يسمى عبد النبي المقدم الذكر في سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبي قتال ، فانتصر توران شاه وهزم عبد النبي ، وهجم زييد وملكها وأسر عبد النبي ، ثم قصد عدن ، وكان صاحبها إنساناً اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه ، فهزمه توران شاه وهجم عدن وملكها ، وأسر ياسر أيضاً ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن ، واستقرت في ملك صلاح الدين ، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن .

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمنى

في هذه السنة : في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين ، فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية ، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب ، والقاضى العويرس ، وداعى الدعاة ، وعمارة بن على اليمنى الشاعر الفقيه ، وله

أسعار حسنة ، فمنها ما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها :

رمى يادهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
جدعت مارنك الأتقى فأنفك لا	ينفك ما بين أمر الشين والتجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة	على فجيعتها فى أكرم الدول
بإعاذلى فى هوى أبناء فاطمة	لك الملامة أن أقصرت فى عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معى	عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلها والله لا التحمت	فيكم جروحي ولا قرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة	فى نسل آل أمير المؤمنين على

ومنها :

وقد حصلت علىها واسم جدكم	محمد وأبوكم خير متعل
مررت بالقصر والأركان خالية	من الوفود وكانت قبله القبل

ومنها :

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم	ولا نجا من عذاب الله غير ولى
أئمتى وهداى والذخيرة لى	إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
والله لاحت عن حبي لهم أبداً	ما أخر الله لى فى مدة الأجل

وأيضاً له فيهم :

غصبت أمية إرث آل محمد	سفها وشتت غارة الشنآن
وغدت تخالف فى الخلافة أهلها	وتقابل البرهان بالبرهان
لم تقتنع حكاهم بركوبهم	ظهر النفاق وغارب العدوان
وقعودهم فى رتبة نبوية	لم بينها لهم أبو سفيان
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم	أخذوا بشار الكفر فى الإيمان
فأتى زياد فى القبيح زيادة	تركت يزيد يزيد فى النقصان

ذكر وفاة نور الدين محمود

في هذه السنة : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن أفسنفر ، صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة ، وكان نور الدين قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، وكان يريد أن يخلى ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود في الشام قبالة الفرنج ، ويسير هو بنفسه إلى مصر ، فأتاه أمر الله الذى لا مرد له ، وكان نور الدين أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية إلا في حنكه ، حسن الصورة ، وكان قد اتسع ملكه جدًا ، وخطب له بالحرمين ، واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب ، وكذلك كان يخطب له بمصر ، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله ، وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم ، وكان يصلى كثيرًا من الليل ، فكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب
وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وليس عنده فيه تعصب ، وهو الذى بنى أسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل ، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله .

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بالملك بعده ، وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها ، وأطاعه صلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضربت السكة باسمه ، وكان المتولى لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المقدم ، ولما مات نور الدين ، وتملك ابنه الملك الصالح ، سار من الموصل سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ، وملك جميع البلاد الجزرية .

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة :

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

في أول هذه السنة : اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير ، وأظهر الخلاف على صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين إليه عسكريًا ، فاقتلوا وقتل الكنز وجماعة معه وانهزم الباقيون .

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة : سلخ ربيع الأول ، ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وحصص وحماة ، وسببه أن شمس الدين بن الداية المقيم بحلب ، أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ، ليكون مقامه بها ، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين ، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين ، قبض على شمس الدين بن الداية وإخوته ، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وإخوته ، وهو رئيس حلب ، واستبدَّ سعد الدين بتدبير الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر ، واستدعوه ليملكوه عليهم ، فسار صلاح الدين جريدة^(١) في سبعمائة فارس ، ولم يلبث ووصل إلى دمشق ، فخرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه وخدموه ، ونزل بدار والده أيوب ، المعروفة بدار العقيقى وعصت عليه القلعة ، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ربحان ، فراسله صلاح الدين واستماله ، فسلم القلعة إليه ، فصعد إليها صلاح الدين ، وأخذ ما فيها من الأموال .

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وسار إلى حصص مستهل جمادى الأولى ، وكانت حصص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة ، في إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني ، فلما مات نور الدين ، لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحصص وحماة لسوء سيرته مع الناس ، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها ، فإن قلاعها كان فيها ولاية لنور الدين ، وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين ، فإن قلعتها كانت له أيضًا ، ونزل صلاح الدين على حصص في حادى عشر جمادى الأولى ، وملك المدينة ، وعصت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك ، أحد الماليك النورية ، فامتنع في القلعة ، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل ، وإنما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة ، فاستحلفه جرديك على ذلك ، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين ، واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك إلى حلب ، قبض عليه كمشتكين وسجنه ،

(١) جريدة : أى لم يكن معه راجلا في السير ، أوجد في السير .

فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها ، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها وبها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، فجمع أهل حلب ، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب ، ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص ، ووصل صلاح الدين إلى حماة ثامن رجب ، وسار إلى حمص فرحل الفرنج عنها ، ووصل صلاح الدين إلى حمص ، وحصر قلعتها ، وملكها في الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة ، ثم سار إلى بعلبك فملكها .

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد ، أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، يستنجده على صلاح الدين ، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ، ولقبه سلقندار ، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضاً ، فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، فسار بسيف الدين غازى وحصره بسنجار ، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وعلقندار إلى حلب ، وانضم إليهم عسكر حلب ، وساروا إلى صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين يئذل حمص وحماة ، وأن تقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوا إلى ذلك ، وساروا إلى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة ، فانهزم عسكر الموصل وحلب ، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم ، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب ، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الملك الصالح ابن نور الدين ، وأزال اسمه عن السكة ، واستبد بالسلطنة ، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقى بيده منه ، فصالحهم على ذلك ، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة ، أعنى سنة سبعين وخمسمائة .

وفي العشر الأخير من شوال من هذه السنة : ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : ملك البهلوان بن الدكر مدينة تبريز ، وأخذها من أفسنقر الأحمد يلي .
وفيها : مات شملة التركمانى صاحب خورستان ، وملك ابنه بعده .

وفيها : وقع بين الخليفة وبين قطب الدين قيمانز مقدم عسكر بغداد فتنة ، فنهبت دار قيمانز وهرب إلى الحلة ، ثم إلى الموصل ، فلحق قيمانز في الطريق عطش شديد ، فهلك أكثر أصحابه ، ومات قطب الدين قيمانز قبل أن يصل إلى الموصل ، فحمل ودفن بظاهر باب العمادى ، ولما هرب قيمانز خلع الخليفة على عضد الدولة الوزير ، وأعادته إلى الوزارة .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة :

ذكر انهزام سيف الدين غازى صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

في هذه السنة : عاشر شوال ، كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بتل السلطان ، فهرب سيف الدين غازى والعساكر التى كانت معه ، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردین وغيرهما ، وتمت على سيف الدين غازى الهزيمة حتى وصل الموصل مرعوباً ، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل ، واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم ما فيها ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى بزاعة فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال ، وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وكان شديد البغض لصلاح الدين ، وفتحها عنوة ، وأسرينال ، وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه ، فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى إعزاز ونازما ثالث ذى القعدة ، وتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، فوثب إسماعيل على صلاح الدين في حصاره أعزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه ، فأمسك صلاح الدين يدى الإسماعيلى ، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر ، حتى قتل الإسماعيلى على تلك الحال ، ووثب آخر عليه فقتل أيضاً ، وجاء السلطان إلى خيمته مذعوراً ، وأعرض جنده ، وأبعد من أنكره منهم .

ولما ملك السلطان أعزاز رحل عنها ، وتنازل حلب في منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين ، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب ، فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم إليه ، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين محمود فأكرمها السلطان صلاح الدين ، وأعطاهما شيئاً كثيراً ، وقال لها : ما تريدين ؟ فقالت : أريد قلعة أعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها إليهم ، واستقر الصلح ، ورحل السلطان صلاح الدين عن حلب في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : سار أمير الحاج العراقي طاشتكين ، وأمره الخليفة بعزل صاحب مكة مكث ابن عيسى ، فجرى بين الحجاج وبينه قتال ، فانهزم مكث في البرية ، وأقام أخاه داود مكانه بمكة .

وفيهما : في رمضان ، قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام ، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب إليه أبياتاً من شعر ابن المنجم المصري :

وإلى صلاح الدين أشكو أننى	من بعده مضى الجوانح مولع
جزعاً لبعد الدار عنه ولم أكن	لولا هواه لبعد دار أجزع
ولأركبن إليه متن عزائمي	ويحب بي ركب الغرام ويوسع
ولأسرين الليل لا يسرى به	طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمنَّ إليه قلبي مخبراً	أنى بجسمى عن قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة	من أفقها صبح السعادة يطلع

وفيهما : توفي الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب بنور الدين ، كان إماماً في الحديث ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، صنف تاريخ دمشق في ثمانين مجلداً على وضع تاريخ بغداد ، أتى فيه بالغرائب ، ومولد المذكور في أول سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة :

فيها : قصد السلطان صلاح الدين بلد الإسماعيلية في المحرم ، فنهب بلدهم وخرّب به وأحرقه ، وحصر قلعة مصياف ، فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين ، وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله أن يسعى في الصلح ، فسأل الحارمي الصفع عنهم ،

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ، ورحل عنهم ، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ، ووصل إلى مصر ، فإنه كان قد بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام .

ولما وصل إلى مصر في هذه السنة ، أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ، ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين .

وفي هذه السنة : أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على الشافعي بالقرافة بمصر وعمل بالقاهرة مارستان .

وفيها : تولى القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهر زوري قاضي دمشق وجميع الشام .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة :

في هذه السنة : في جمادى الأولى ، سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الفرنج ، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر ، فنهب وتفرق عسكره في الإغارات ، وبقي السلطان في بعض العسكر ، فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه ، فقاتلهم أسد قتال ، وكان لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد ، وهو من أحسن الشباب أول ما قد تكاملت لحيته ، فأمره أبوه تقى الدين بالحملة على الفرنج ، فحمل عليهم وقتلهم ، فأثر فيهم أثراً كبيراً وعاد سالماً ، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية ، فحمل عليهم فقتل شهيداً ، وتمت الهزيمة على المسلمين ، وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزماً إلى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً ، وهلك كثير من الدواب ، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الإغارات أسرى ، وأسر الفقيه عيسى ، وكان من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين ، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار ، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة .

قال الشيخ عز الدين علي بن الأثير مؤلف الكامل : « رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الواقعة ، وفي أوله :

ذكرتك والخطي تَخْطُرُ بيننا وقد نهلت منا الثقافة السمر :

ويقول فيه : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه

وتعالى :

* وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر * .

وفي هذه السنة : سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الأولى ، وطمع الفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الفرنج ، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه صلاح الدين ، وليس عنده كثير من العسكر ، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك في اللذات ، مائلا إلى الراحة ، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض ، واشتد حصار الفرنج لحماة ، وطال زحفهم عليها ، حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة ، وكادوا يملكون البلد قهراً ، ثم جدّ المسلمون في القتال ، وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور ، وأقام الفرنج كذلك على حماة أربعة أيام ، ثم رحلوا عنها إلى حارم ، وعقيب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمى ، وكان له ابن من أسن الناس نسباً مات قبله بثلاثة أيام .

وفي هذه السنة : قبض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين ، وكان قد تغلب على الأمر ، وكانت حارم لكمشتكين ، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه ، فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك ، فلم يقبلوا منه ، فأمر تعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة ، فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ، فمات في العذاب ، وأصبر أصحابه على الامتناع ، ووصل الفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة ، وحصروا حارم مدة أربعة أشهر ، فأرسل الملك الصالح مالا للفرنج وصالحهم ، فرحلوا عن حارم ، وقد بلغ بأهلها الجهد ، وبعد أن رحل الفرنج عنها ، أرسل إليها الملك الصالح عسكراً وحصروها ، فلم يبق بأهلها ممانعة ، فسلموها إلى الملك الصالح ، فاستتاب بقلعة حارم مملوكا كان لأبيه اسمه سرخك .

وفي هذه السنة : في المحرم ، خطب للسلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل ابن السلطان محمد ابن السلطان ملكشاه ، المقيم ببلاد الدكز ، وكان أبوه أرسلان الذى تقدم خبره قد توفى ، ولم يذكر ابن الأثير وفاة أرسلان بن طغريل إلا في هذا الموضع ، وكان ينبغي أن يذكره قبل هذه السنة .

وفيهما : في ذى الحجة ، قتل عضد الدين محمد بن عبد الله بن هبة الله وزير الخليفة ، وكان قد عبر دجلة عازماً على الحج فقتله الإسماعيلية ، وحمل مجروحاً إلى منزله فمات به ، وكان مولده في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة .

وفيهما : توفى صدقة بن الحسين الحداد الذى ذيل تاريخ ابن الزعفرانى ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة :

في هذه السنة : طلب توران شاه من أخيه السلطان صلاح الدين بعلبك ، وكان السلطان

اعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، لما سَلَّم دمشق إلى صلاح الدين ، فلم يكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك ، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها ، فأرسل السلطان وحصره بعلبك ، وطال حصارها ، فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض ، فعوض عنها وتسلمها السلطان ، وأقطعها أخاه توران شاه .

وفيهما : كان بالبلاد غلاء عام ، وتبعه وباء شديد .

وفيهما : سير السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر إلى حماة ، وابن عمه محمد ابن سيركوه إلى حمص ، وأمرهما بحفظ بلادهما ، فاستقر كل منها ببلده .

وفيهما : توفي الحصيص الشاعر ، واسمه سعد بن محمد بن سعد ، وشعره مشهور ، فمته :

لا تلمني في شقائي بالعللا رغد العيش لربات الحجال
سيف عزا زانه رونقه فهو بالطبع غني عن صقال

وفيهما : ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر الأبري ، سمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما ، وعمرت حتى قاربت مائة سنة ، وسمع عليها خلق كثير لعلو إسنادها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة :

فيها : سار السلطان صلاح الدين وفتح حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحران بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب ، وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي :

أتسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى إيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وفيهما : كان حرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وبين عسكر قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، صاحب بلاد الروم ، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم ، فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل إليه عسكراً كثيراً ليحصره ، وكانوا قريب عشرين ألفاً ، فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم ، وكان تقي الدين يفتخر ويقول : « هزمت بألف عشرين ألفاً » .

ذكر وفاة المستضىء وخلافة الإمام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هذه السنة : ثاني ذى القعدة ، توفي المستضىء بأمر الله ، أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد ، وأمه أم ولد أرمنية ، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر ، وكان مولده سنة ست وثلثين وخمسمائة ، وكان عادلاً ، حسن السيرة ، وكان قد حكم في دولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر ، المعروف بابن العطار ، بعد قتل عضد الدين الوزير ، فلما مات المستضىء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله ، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل ، فقبض في سابع ذى القعدة على ظهير الدين بن العطار ونقل إلى التاج ، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذى القعدة ، فثارت به العامة ، وألقوه عن رأس الحمال ، وشدوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد ، وكانوا يضعون في يده مغرفة ، يعنى أنها قلم ، وقد غمس تلك المغرفة في العذرة ويقولون : وقع لنا يا مولانا ، هذا فعلهم به ، مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم ، ثم خلص منهم ودفن .

وفي هذه السنة : في ذى القعدة ، نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك ، وطلب عوضها الإسكندرية ، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك ، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فسار إليها فرخشاه ، وسار شمس الدين توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات بها .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة :

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

في هذه السنة : ثالث صفر ، توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية ، وكان مرضه السل وطال ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر ، وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلاً عادلاً عفيفاً شديد الغيرة ، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً ، فإذا كبر أحدهم منعه ، وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه ، وحين حضره الموت ،

أوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود ، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه بن غازي ، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره ، وكان مدير الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز .

وفي هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، ووصل إلى رعيان ثم اصطلحوا ، فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني ، وشن فيها الغارات ، فصالحه ابن ليون على مال حمله ، وأسرى أطلقهم . وفيها : توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية ، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ، ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرها ، وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً ، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ، ودخل الإسكندرية ، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصرية ديناً عليه ، فوفاهما أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر ، ووصل السلطان صلاح الدين إلى مصر في هذه السنة في شعبان ، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة :

في هذه السنة : عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق ، فجمع وقصد بلاد الكرك وأغار عليها ، وأقام في مقابلة البرنس ، ففرق البرنس جموعه ، وانقطع عزمه عن الحركة .

وفيها : وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف ، فخشى السلطان صلاح الدين على اليمن ، فجهز إليه عسكرياً مع جماعة من أمرائه ، فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه ، وكان نواب توران شاه : على عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلي ، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر .

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

في هذه السنة : في رجب ، توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى بن أقيسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولنج ، وصف له

الأطباء الخمر ، فمات ولم يستعمله ، وكان حليماً عفيف اليد والفرج واللسان ، ملازماً لأمر الدين ، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب ، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل ، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيمان من الموصل إلى حلب ، واستقر في ملكها ، ولما استقر مسعود بن مودود في ملك حلب ، كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ، ويأخذ منه سنجار ، فأشار قيمان بذلك فلم يمكن مسعود إلا موافقته ، فأجاب إلى ذلك ، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها ، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود ، وعاد مسعود إلى الموصل .

وفي هذه السنة : في شعبان ، توفي أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد النحوي ، المعروف بابن الأنباري ببغداد ، وله تصانيف حسنة في النحو ، وكان فقيهاً .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة :

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

في هذه السنة : خامس المحرم ، سار السلطان صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة ، وخرجت أعيان الناس لوداعه ، أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه ، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنتد :

تمتع من شميم عرار تجدد فلما بعد العشيّة من عرار فتطير صلاح الدين ، وانقبض بعد انبساطه ، وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة ، وسار السلطان صلاح الدين ، وأغار في طريقه على بلاد الفرنج وغنم ، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من السنة ، ولما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه ، فانتهز فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق الفرصة ، وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتح ، وأغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج ، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك .

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن

في هذه السنة : سير السلطان أخاه سيف الإسلام طفتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها ، وكان بها حطان بن منقذ الكناني ، وعز الدين عثمان الزنجيلي ، وقد عادا إلى ولايتهما ، فإن الأمير الذي كان سيره السلطان نائباً إلى اليمن تولى وعزلها ثم توفي ، فعاد بين حطان وعثمان الفتن قائمة ، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد ، فتحصن حطان في بعض القلاع ، فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته ، ثم إن حطان طلب دستوراً ليسير إلى الشام فلم يجبه إلا بجهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه ، ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل استرجع أثقاله ، وأخذ جميع أمواله ، وكان في جملة ما أخذه سيف الإسلام من حطان سبعين غلاف زردية مملوءة ذهباً عينا ، ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن ، فكان آخر العهد به .

وأما عثمان الزنجيلي ، فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام ، وسير أمواله في البحر ، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام ، فأخذوا كل ما لعثمان الزنجيلي وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام .

ذكر غارات السلطان الملك صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

في هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين من دمشق في ربيع الأول ، ونزل قرب طبرية وشن الإغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجنين والغور ، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق ، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها ، وأغار على بلادها ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية ، وعبر الفرات من البيرة ، فصار معه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على بن بكتكين ، وكان حينئذ صاحب حران ، وكاتب السلطان صلاح الدين ملوك تلك الأطراف واستمالهم ، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه ، ونازل السلطان الرها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران ، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبيجي ، فسار ينال

إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسيا وماكسين وعربان والخابور ، واستولى على الخابور جميعه ، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم القلعة ، ثم أقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو الهيجا السمين ، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيمان للحصار ، وسخنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل ، وأقام عليها منجنيقاً ، فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق ، وضايق الموصل فنزل السلطان صلاح الدين محاذة باب كندة ، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادى وجرى القتال بينهم ، وكان ذلك في شهر رجب من هذه السنة ، فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها ، واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين أنز ، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجا السمين .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : عمل البرنس صاحب الكرك أسطولاً في بحر أيلة ، وساروا في البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه ، وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل ، وبغتوا المسلمين في تلك النواحي ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجاً قط ، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين ، فعمر أسطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لولو وهو متولى الأسطول بديار مصر ، وكان مظفراً فيه شجاعاً ، فسار لولو مجداً في طليهم ، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرههم ، ثم سار في طلب الفرقة الثانية ، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى ، وسار لولو يقفو أثرهم ، فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحورا ، وتقاتلوا أشد قتال ، فظفر الله تعالى بهم ، وقتل لولو أكثرهم وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، وعاد بالباقيين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم .

وفي هذه السنة : توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق ، وهو ثقة من بين أهله ، وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلاً ، وله شعر جيد ، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها ، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور .

وفيها : توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط ، وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس ، وله من التلامذة ما لا يحصى .

وفيهما : توفي بقرطبة ، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري ، وكان من علماء الأندلس ، وله التصانيف المفيدة ، ومولده في سنة أربع وتسعين وأربعمائة .
وفيهما : توفي بدمشق ، مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي ، ولد سنة خمس وخمسمائة ، وهو الملقب قطب الدين ، وكان إماماً فاضلاً في العلوم الدينية ، قدم إلى دمشق ، وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين ، وكان السلطان يُقرنها أولاده الصغار .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة :

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

في هذه السنة : ملك السلطان صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقاتل في العشر الأول من المحرم ، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، ثم سار إلى الشام ، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها ، ثم سار إلى عين تاب وحصرها ، وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل ، الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي ، وكان قد سلم نور الدين عين تاب إلى إسماعيل المذكور ، فبقيت معه إلى الآن ، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه ، فأقره السلطان عليها ، وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر وطال الحصار عليه وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب وعسكرها عليه ، وقد ضجر من ذلك ، وكره حلب كذلك ، فأجاب السلطان صلاح الدين إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والركة وسروج ، واتفقوا على ذلك ، وسلم حلب إلى السلطان في صفر من هذه السنة فكان ينادون أهل حلب على عماد الدين المذكور : يا حمار بعث حلب بسنجار ، وشرط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه ، ولا يحتج بحجة عن ذلك .

ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق ، مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في مصر مبشراً بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك توري بن أيوب أخو السلطان الأصغر ، وكان كريماً شجاعاً ، طعن في ركبته

فانفكت فمات منها ، ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكى المذكور دعوة للسلطان ، واحتفل لها ، فبيناهم في سرورهم ، إذ جاء إنسان فأَسَرَّ إلى السلطان بموت أخيه تورى ، فوجد عليه في قلبه رجداً عظيماً ، وأمر بتجهيزه سرّاً ، ولم يُعْلَم السلطان في ذلك الوقت أحداً ممن كان في الدعوة بذلك لئلا يتأكد عليهم ما هم فيه ، وكان يقول السلطان : ما وقعت حلب علينا رخيصة بموت تورى ، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم .

ولما ملك السلطان حلب ، أرسل إلى حارم وبها سرخك الذى ولّاه الملك الصالح بن نور الدين في تسليم حارم ، وجرت بينها مراسلات ، فلم ينتظم بينها حال ، وكاتب سرخك الفرنج ، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان فتسلمها ، وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع أعزاز أميراً يقال له سليمان بن جندر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيمان . وفيها : لما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب ، جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى ، وسار إلى دمشق ، وتجهز منها للغزو ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة ، فأغار على بيسان وحرّقها ، وشنّ الغارات على تلك النواحي ، ثم تجهز السلطان إلى الكرك وأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه إلى الكرك ، فسارا واجتمعا عليها ، وحصر الكرك وضيق عليها ، ثم رحل عنها في منتصف شعبان ، وسار معه أخوه العادل ، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائباً عنه موضع الملك العادل ، ووصل السلطان إلى دمشق ، وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها في شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

وفي هذه السنة : في جمادى الآخرة ، توفى محمد بن بختيار بن عبد الله الشاعر المعروف بالأبلة .

وفي هذه السنة : أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة في أواخرها ، توفى شاهر من سكمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكمان القطبى صاحب خلاط ، وقد تقدم ذكر شاهر من المذكور في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وكان عمر سكمان لما توفى أربعاً وستين سنة ، ولما مات سكمان كان بكتمر مملوكه بميافارقين ، فلما سمع بكتمر بموته ، سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط ، وكان أكثر أهلها يريدونه ، وكان مماليك شاهر من متفقين معه ، فأول وصوله استولى على خلاط وتملكها ، وجلس على كرسي شاهر من ، واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، حسبما ذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة :

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن

في هذه السنة : سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب إلى بلاد الأندلس وعبر البحر في جمع عظيم من عساكره ، وقصد بلاد الفرنج ، فحصر شنترين من غرب الأندلس ، وأصابه مرض فمات منه في ربيع الأول ، وحمل في تابوت إلى مدينة أشبيلية ، وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة وشهورا ، وكان حسن السيرة ، واستقامت له المملكة لحسن تدبيره ، ولما مات بايع الناس ولده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكنيته أبو يوسف وملكوه عليهم في الوقت الذي مات فيه أبوه لتلايكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو ، فقام يعقوب بالملك أحسن قيام ، وأقام راية الجهاد وأحسن السيرة .

ذكر غزو السلطان الكرك

في هذه السنة : في ربيع الآخر ، سار السلطان صلاح الدين من دمشق للغزوة ، وكتب إلى مصر فسارت عساكرها إليه ، ونازل الكرك وحصره وضيق على من به ، وملك ربض الكرك وبقيت القلعة ، وليس بينها وبين الربض غير خندق خشب ، وقصد السلطان صلاح الدين طمّهُ فلم يقدر لكثرة المقاتلة ، فجمعت الفرنج فارسها وراجلها وقصدوه فلم يمكن السلطان إلا الرحيل ، فرحل عن الكرك ، وسار إليهم فأقاموا في أماكن وعرة ، وأقام السلطان قبالتهم ، وسار من الفرنج جماعة ودخلوا الكرك ، فعلم بامتناعه عليه ، فسار إلى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي ، وقتل وأسر وسبى فأكثر ، ثم سار إلى سَبَسْطِيَّة وبها مشهد زكريا ، فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ، ثم سار إلى جنينين ثم عاد إلى دمشق .

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنة : مات قطب الدين إيلغازي بن نجم الدين البيي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، أقول : إنه قد تقدم في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ذكر ملك البيي ولد إيلغازي المذكور ، وبقي البيي في ملك ماردين حتى مات ، وملك بعده ابنه إيلغازي المذكور ، ولم يقع لى وفاة البيي وملك إيلغازي المذكورين متى كان لأثبته . ولما مات إيلغازي المذكور ، كان له أولاد أطفال ، فأقيم في الملك بعده حسام الدين بولق

أرسلان ، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان ، وكان به هوج وخبط ، فمات بولق أرسلان ، وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن قطب الدين إيلغازي ، ولم يكن له حكم ، بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك لبقش اسمه لولو ، وكان قد تغلب على أستاذه البقش ، بحيث كان لا يخرج عن رأى لولو المذكور ، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردین من الحكم شيء .

وبقى الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمئة ، فمرض النظام البقش ، وأتاه ناصر الدين صاحب ماردین يعود ، فلما خرج من عنده خرج معه لولو ، فضربه ناصر الدين بسكين فقتله ، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض ، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردین من غير منازع .

وفي هذه السنة : توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعيد أحمد ، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان صلاح الدين في رسالة ومعه شهاب الدين بشير الخادم ، ليصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلم ينتظم حال ، واتفق أنها مرضا بدمشق ، وطلبا المسير إلى العراق ، وسارا في الحر فمات بشير بالسحنة ، ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ، ودفن بمشهد البوق ، وكان أوحد زمانه ، قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا .

وفيها : في المحرم ، أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل ، مجاهد الدين قيمان من الحبس ، وأحسن إليه .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسائة :

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

في هذه السنة : حصر السلطان صلاح الدين الموصل^(١) ، وهو حصاره الثاني ، فأرسل إليه عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة ، يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم فردهم ، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما وفيهن بنت نور الدين محمود ، وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاهر من صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة ، فسار عن الموصل إلى جهة خلاط ، فاستدعى أهلها ليملكها .

ذكر وفاة صاحب حصن كيفا

في هذه السنة : توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد ، وملك بعده ولده سقمان ، ولقبه قطب الدين ، وكان صغيراً ، فقام بتدبيره القوام بن سمافا الأشعري ، وحضر سقمان إلى السلطان صلاح الدين وهو نازل على ميفارقين ، فأمره على ما كان بيد والده نور الدين محمد ، وأقام معه أميراً من أصحاب أبي سقمان المذكور .

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميفارقين

لما سار السلطان عن الموصل إلى خلاط ، جعل طريقه على ميفارقين ، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي ، وفيها من حفظها من جهة مشاهير من صاحب أخلاط المتوفى ، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى ، ثم إن السلطان رجع عن قصد خلاط إلى الموصل ، فجاءته رسل عز الدين مسعود يسألونه الصلح ، واتفق حينئذ أن السلطان صلاح الدين مرض ، وسار من كفر زمار عائداً إلى حران ، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب ، وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان صلاح الدين شهرزور وأعمالها ، وولاية القرايلى وجميع ما وراء الزاب ، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وماييده ، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير ، وتسلم السلطان ذلك ، واستقر الصلح ، وأمنت البلاد ، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضاً ، واشتد به المرض حتى أيسوانه ، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذى صاحب حمص إلى حمص ، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : ليلة عيد الأضحى ، شرب بجمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى فأصبح ميتاً ، قيل : إن السلطان صلاح الدين دس عليه من سقاء سماً لما بلغه مكاتبتة أهل دمشق في مرضه ، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشرة سنة ، وخلف صاحب حمص شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها ، فاستعرضها السلطان عند نزوله بجمص في عودته من حران ، وأخذ أكثرها ولم يترك إلا مالا خيراً فيه .

وفيها : توفي الحافظ محمد بن عمر بن أحمد الأصفهاني المديني المشهور ، وكان إمام عصره في الحفظ والمعرفة ، وله في الحديث وعلومه تأليف مفيدة ، وله كتاب « الغيث » في مجلد كامل به كتاب « الغريين » للهروى ، واستدرك فيه عليه مواضع ، وهو كتاب نافع ، وكان مولده سنة إحدى وخمسمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة :

ذكر نقل الملك العادل أخى السلطان من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

في هذه السنة : أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخى السلطان ، كان نائب عمه بمصر ، وكان معه الملك الأفضل ، فأرسل تقي الدين يشتكى من الأفضل : إني لا أتمكن من استخراج الخراج ، فإني إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته ، يطلقه الملك الأفضل ، فأرسل السلطان وأخرج ابنه الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق .

وتغير السلطان على تقي الدين عمر في الباطن ، فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليملك مصر إذا مات السلطان ، ثم أحضر أخاه العادل من حلب ، وجعل معه ولده العزيز عثمان ابن السلطان نائبا عنه بمصر ، واستدعى تقي الدين عمر من مصر ، فقبل : إنه توقف عن الحضور ، وقصد اللحاق بملوكه قراقوش المستولى على بعض بلاد أفريقية وبرقة من المغرب ، وبلغ السلطان ذلك فساءه ، وأرسل يستدعى تقي الدين عمر ويلطفه فحضر إليه ، ولما حضر تقي الدين عند السلطان زاده على حماة منبج والمعرّة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها ، واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر ، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرّها .

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

في هذه السنة : في أولها ، توفي البهلوان محمد بن الدكر ، صاحب بلد الجبل همدان والرى وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد ، وكان عادلا حسن السيرة ، وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان ، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن

ملكشاه السلجوقي مع البهلوان ، وله الخطبة في بلاده ، وليس له من الأمر شيء ، فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه ، واستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : غدر البرنس صاحب الكرك ، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسروهم فأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك فلم يفعل ، فندر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده .

وفيها : توفي أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش برى بن عبد الجبار بن برى المصرى ، الإمام في علم النحو واللغة ، اشتغل عليه جماعة وانتفعوا به ، ومن جملتهم أبو موسى الجزولى صاحب المقدمة الجزولية في النحو ، وكانت وفاته بمصر ، وولد بها في سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة :

ذكر غزوات السلطان الملك الناصر صلاح الدين وفتوحاته

في هذه السنة : جمع السلطان العساكر ، وسار بفرقة من العسكر ، وضائق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك ، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل ، فأغاروا على بلد عكا وتلك الناحية ، وغنموا شيئاً كثيراً ، ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف ، وتأخرت القلعة ، وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته ، فأرسلت الفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه ، فصار معهم واجتمع الفرنج للالتقى السلطان .

ذكر وقعة حطين ، وهى الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

لما فتح السلطان مدينة طبرية ، اجتمعت الفرنج في ملوكهم بفارسهم وراجلهم ، وساروا إلى السلطان ، فركب السلطان من عند طبرية ، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، والتقى الجمعان ، واشتد بينهم القتال ، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قدامه من المسلمين ، وكان هناك تقى الدين صاحب حماة ، فأفرج له وعطف عليهم ، فنجوا القومص ووصل إلى طرابلس ، وبقي مدة يسيرة ومات غيباً ، ونصر الله المسلمين ، وأحدقوا بالفرنج من كل ناحية ، وأبادوهم قتلاً وأسراً ، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية ، وما أصيبت الفرنج من حين خرجوا إلى الشام ، وهى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة .

ولما انقضى المصاف ، جلس السلطان في خيمته ، وأحضر ملك الفرنج ، وأجلسه إلى جانبه ، وكان الحر والعطش به شديداً ، فسقاه السلطان ماء مثلوجاً ، وسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك ، فقال له السلطان : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فيكون أماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وفرزه على غدره وقصده الحرمين الشريفين ، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه ، فارتعدت فرائص ملك الفرنج ، فسكن جأشه ، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان ، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ، ثم أرسل أخاه الملك العادل فنازل بجَدَّ اليابا^(١) وفتح عنة بالسيف ، ثم سار السلطان إلى تبين ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم سار إلى بيروت فحصرها وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان ، وكان حصرها مدة ثمانية أيام ، وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى ، فبذل جبيل في أن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك ، وكان صاحب جبيل من

(١) هكذا في الأصل . أما في معجم البلدان لياقوت الحموى فهى بَجْدَلِيَّاتٌ : قرية قرب الرملة فيها حصن محكم .

أعظم الفرنج وأشدّهم عداوة للمسلمين ، ولم تك عاقبة إطلاقه حميدة ، وأرسل السلطان فتسلم جبيل وأطلقه .

وفيها : حضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين ، ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء ، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر ، والملك الأفضل يجيب المركيس إلى ذلك ، إلى أن هب الهواء فأقلع المركيس إلى صور ، واجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً ، وكان وصول المركيس إلى صور ، وإطلاق الفرنج الذين يأخذ السلطان بلادهم بالأمان ويحملهم إلى صور من أعظم أسباب الضرر التي حصلت حتى راحت عكا ، وقوى الفرنج بذلك ، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوماً ، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخرة ، ثم بث السلطان عسكره ، ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبرين والنطرون وغير ذلك .

ثم سار السلطان ونازل القدس ، وبه من النصارى عدد يقوت الحصر ، وضائق السلطان السور بالنقلبين ، واشتد القتال ، وغلقوا السور ، فطلب الفرنج الأمان فلم يجيبهم السلطان إلى ذلك وقال : لا آخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الفرنج من المسلمين ، فعادوه في الأمان ، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة ، وأنهم إن أيسوا منه من الأمان قاتلوا خلاف ذلك ، فأجابهم السلطان إليه بشرط أن يؤدى كل من بها عشرة الدنانير ، عشرة الدنانير من الرجال ، ويؤدى النساء خمسة خمسة ، ويؤدوا عن كل طفل دينارين ، وأى من عجز عن الأداء كان أسيراً ، فأجيب إلى ذلك ، وسلمت إليه المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ، ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور ، فخان المرتبون في ذلك ، ولم يحملوا منه إلا القليل .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، وتسلى المسلمون وقلعوه فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من المسلمين للفرح والسرور ، ومن الكفار بالتفجع والتوجع ، وكان الفرنج قد عملوا في غربى الجامع الأقصى هرباً ومستراحاً ، فأمر السلطان بإزالة ذلك ، وإعادة الجامع إلى ما كان عليه ، وكان نور الدين محمود بن زنكى قد عمل منبراً بحلب قد تعب عليه مدة وقال : هذا لأجل القدس ، فأرسل السلطان صلاح الدين أحضر المنبر من حلب وجعله في الجامع الأقصى ، وأقام السلطان بعد فتوح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان ، يرتب أمور البلد وأحوالها ، وأمر بعمل الرُّبُط والمدارس الشفعية .

ثم رحل السلطان إلى عكا ، ورحل منها إلى صور وصاحبها المركيس ، وقد حصنها بالرجال وحفر خندقها ، ونزل السلطان على صور تاسع شهر رمضان وحاصرها وضائقها ، وطلب الأسطول فوصل إليه في عشرة شوان ، فاتفق أن الفرنج كبسوهم في الشوانى ، وأخذوا خمسة

شوان ولم يسلم من المسلمين إلا من سبيع ونجا ، وأخذ الباقون ، وطال الحصار عليها ، فرحل السلطان عنها في آخر شوال ، وكان أول كانون الأول ، وأقام بعكا ، وأعطى العساكر الدستور ، فسار كل واحد إلى بلده ، وبقي السلطان بعكا في حلقتة ، وأرسل إلى هوبين ففتحها بالأمان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : سار شمس الدين محمد بن عبد الملك ، عرف بابن المقدم بعد فتح القدس حاجاً ، وكان هو أمير الحاج الشامي ، ليجمع بين الغزوة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد ، فسار ووقف بعرفات ، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله ، فلم يلتفت إليه ، فسار العراقيون واتقوا مع الساميين ، فقتل بينهم جماعة ، وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال ، ولو أمكنهم لانتصفوا من العراقيين ، فجرح ابن المقدم ومات شهيداً ، ودفن بمقبرة المعلّى

وفيهما : قوى أمر السلطان طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وملك كثيراً من البلاد ، فأرسل قزل بن الدكر إلى الخليفة يستجده ويخوفه عاقبة أمر طغريل .

وفيهما : سار شهاب الدين الغوري ، وغزا بلاد الهند .

وفيهما : قتل الخليفة الناصر أستاذ داره مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب ، ولم يكن للخليفة معه حكم ، وظهر له أموال عظيمة فأخذت جميعها .

وفيهما : استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ، ولقبه جلال الدين ، ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضى القضاة ، وكان ابن يونس من حملة الناس ، فكان يمشى ويقول : لعن الله طول العمر .

وفيهما : توفي قاضى القضاة الدامغانى ، وكان قد ولى القضاء للمقتفى .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة :

ذكر فتوحات السلطان صلاح الدين وغزواته

نتى السلطان هذه السنة في عكا ، تم سار بن معه وقصد كوكب ، وجعل على حصارها أميراً يقال له قيماز النجمي ، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ، وفرح الناس بقدومه ، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر ، وأقام في دمشق تقدير خمسة أيام ، وسار من دمشق في منتصف ربيع الأول من هذه السنة ، ونزل على بحيرة مقدس غربي حمص ، وأتته العساكر بها ، فأولهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن أفسنقر صاحب سنجار ونصيبين ، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد ، وشن الغارات على بلاد الفرنج ، وسار من حصن الأكراد فنزل على أنطربطوس سادس جمادى الأولى ، فوجد الفرنج قد أخذوا أنطربطوس ، فسار إلى مرقية ، فوجدهم قد أخذوها أيضاً ، فسار إلى تحت المرقب وهو للاستبتار ، فوجد لا يرام ولا لأحد فيه مطمع فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى ، وتسلمها حالة وصوله ، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، ثم سار السلطان إلى اللاذقية ، ووصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فحصر القلعتين ، وزحف إليهما ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم القلعتين .

ولما ملك السلطان اللاذقية ، سلمها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فعمرها وحصن قلعتها ، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها ، كما فعل بقلعة حماة ، ثم رحل السلطان عن اللاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون وحاصرها وضايقها ، فطلب أهلها الأمان فلم يجيبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه إلى ذلك ، وتسلم السلطان قلعة صهيون ، وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين منكورس ، صاحب قلعة أبي قبيس ثم فرق عسكره في تلك الجبال ، فملكوا حصن بلاد نوس ، وكان الفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه ، وملكوا حصن العبد وحصن الجماهرين ، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ، ووصل إلى قلعة بكاس ، فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشجر ، فحصرها ووجدوا منيعة وضايقها ، فأرعى الله في قلوب أهلها الرعب ، وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان ، وأرسل السلطان ولده الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، فحصر سرمينية وضايقها

وملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم ، وهدم الحصن وعفى أثره ، وكان في هذا الحصن ، وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير ، فأطلقوا فأعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار السلطان من الشفر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف ، وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وسبى وأسرى وقتل أهلها . قال مؤلف الكامل ابن الأثير : كنت مع السلطان في مسيره وفتح هذه البلاد طلباً للغزوة فنحكي ذلك عن مشاهدة ، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية ، فأقام عليه أياماً حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ، ثم سار إلى درباك ونزل عليها ثامن رجب من هذه السنة ، وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط ألا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط ، وتسلمها تاسع عشر رجب ، ثم ثار من درباك إلى بغراس وحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان درباك ، وأرسل يميند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل إطلاق كل أسير عنده ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، واصطلحوا ثمانية أشهر ، وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الفرنج في هذه البلاد ، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس بعد موت القومص صاحبها على ما ذكرناه ، فجعل يميند صاحب أنطاكية ابنه في طرابلس ، ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة ، سار إلى حلب فدخلها ثالث شعبان وسار منها إلى دمشق ، وأعطى عماد الدين زنكي بن مودود دستوراً ، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية ، وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فزاره ، وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقبياً هناك ، وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة .

وكان مع السلطان أبو فليته الأمير قاسم بن مهنا الحسيني ، صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه مشاهدته وفتوحاته ، وكان السلطان يتبرك برؤيته ، ويتمن بصحبته ، ويرجع إلى قوله ، ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم ، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا ، فقال السلطان : إن العمر قصير والأجل غير مأمون ، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها ، وخلا أخاه الملك العادل في تلك الجهات يباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان ، فأمر الملك العادل لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان وسار إلى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالأمان ، ثم سار إلى كوكب وعليها قيعاز النجمي يحاصرها فضايقها السلطان وتسلمها بالأمان في منتصف ذي القعدة ، وسير أهلها إلى صور ، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ، ظهر ذلك فيما بعد ، ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى ، ثم سار إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : أرسل قزل بن الدكر يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقي ، ويحذره عاقبة أمره ، فأرسل الخليفة عسكرياً إلى طغريل ، والتقوا تامن ربيع الأول من هذه السنة قرب همدان ، فانهزم عسكر الخليفة ، وغنم طغريل أموالهم ، وأسر مقدم العسكر جلال الدين عبيد الله وزير الخليفة .

وفيهما : توفي محمد بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذي الشاعر المشهور ، وقصائده في الغزل والنسيب مشهورة ، وله في غير ذلك أسياء حسنة أيضاً ، فمنها وقد صدر ببغداد جماعة من الدواوين من جملة قصيدته :

يا قاصداً بغداد حز عن بلدة	للجور فيها زجرة وعتاب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد	سدت على الراجي بها الأبواب
والناس قد قامت قيامتهم فلا	أنساب بينهم ولا أسباب
والمرء يسلمه أبوه وعمره	ويخونه القرباء والأحباب
لا شافع تغني شفاعته ولا	جان له مما جناه متاب
شهدوا معادهم فعاد مصدقاً	من كان قبل بيعته يرتاب
جسر وميزان وعرض جرائد	وصحائف منشورة وحساب
ما فاتهم من يوم ما وعدوا به	في الحشر إلا راحم وهاب

ومولد ابن التعاويذي المذكور في سنة تسع عشرة وخسمائة .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخسمائة :

في هذه السنة : سار السلطان صلاح الدين ونزل بمرج عيون ، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون ، وبذل إليه تسليم الشقيف ، بعد مدة ظهر بها خديعة منه ، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان ، وكان اسم صاحب الشقيف أرناط ، فقال له السلطان في التسليم فقال : لا يوافقني عليه أهلي وأهل الحصن ، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق فحبس .

ذكر حصار الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان ، فكثروا جمعهم حتى صاروا في عالم لا يحصى كثرتهم ، وأرسلوا إلى البحر ليكون ويستنجدون ، وصوروا صورة المسيح

وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه ، وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح ، فخرجت النساء من بيوتهن ، ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا إلى عكا من صور ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة ، وضايقوا عكا ، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ، ولم يبق للمسلمين إليها طريق ، فسار إليهم السلطان ، ونزل قريب الفرنج وقاتلهم في مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا ، فحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فأزالهم عن موقفهم والتزق بالصور ، وانفتح الطريق إلى المدينة ، يدخل المسلمون ويخرجون وأدخل السلطان إلى عكا عسكرياً نجدة ، فكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين ، وبقي المسلمون يغادون القتال ويرأوحوه إلى العشرين من شعبان ، ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة ، فإن الفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان مصافاً ، وحملوا على القلب فأزالوه ، وأخذوا يقتلون في المسلمين إلى أن بلغوا إلى خيمة السلطان ، فأنجاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة ، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة ، فحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب ، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً ، فكانت قتلى الفرنج نحو عشرة آلاف نفس ، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم وصل إلى دمشق ، وجافت الأرض بعد هذه الواقعة ، ولحق السلطان مرض ، وحدث له قولنج ، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع ، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان من هذه السنة إلى الخروبة .

فلما رحل ، تمكن الفرنج من حصار عكا ، وانبسطوا في تلك الأرض ، وفي تلك الحال وصل أسطول المسلمين في البحر مع حسام الدين لولو وكان شهياً ، فظفر ببطشه للفرنج فأخذها ، ودخل بها إلى عكا ، فقوى قلوب المسلمين ، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر وبالسلح إلى أخيه السلطان ، فقويت قلوب المسلمين بوصوله .

ذكر غير ذلك

فيها : توفي بالخروبة الفقيه عيسى ، وكان مع السلطان ، وهو من أعيان عسكره ، كان جندياً فقيهاً شجاعاً ، وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزى .

وفيها : توفي محمد بن يوسف بن محمد بن قائد ، الملقب موفق الدين الأربلي الشاعر المشهور ، وكان إماماً مقدماً في علم العربية ، وكان أعلم الناس بالعروض وأحذقهم بنقد الشعر ، وأعرفهم بجيده من رديته ، واشتغل بعلوم الأوائل ، وحل كتاب أقليدس ، وهو شيخ أبي البركات بن المستوفي صاحب تاريخ أربل ، ورحل بن القائد المذكور إلى شهر زور ، وقام

بها مده . ثم رحل إلى دمشق ، ومدح السلطان صلاح الدين يوسف ، ومن شعره قصيدة مدح بها زين الدين يوسف صاحب أربل منها :

رب دار بالحمى طال بلاها	عكف الركب عليها فبكاهها
كان لي فيها زمان وانقضى	فسقى الله زمانى وسقاها
قل لجيران مواليهم	كلما أحكمتها رثت قواها
كنت متغوفاً بكم إذ كنتم	شجراً لا يبلغ الطير ذراها
وإذا ما طامع أغرى بكم	عرض اليأس لنفسى فتناها
فصبابات الهوى أولها	طمع النفس وهذا منتهاها
لا تظنوا لي إليكم رجعة	كشف التجريب عن عيني عماها
إن زين الدين أولانى يداً	لم تدع لي رغبة فيما سواها

وهي طويلة ، اقتصرنا منها على هذا القدر ، وكان أبوه محمد تاجراً يتردد إلى البحرين لتحصيل اللآلى من المغاصات .

وفيها : توفي محمود بن علي بن أبي طالب بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالقاضي ، صاحب الطريقة في الخلاف ، وصنف فيه التعليقة ، وهي عمدة المدرسين في إلقاء الدروس ، ومن لم يذكرها فإنما هو لقصور فهمه عن إدراك دقائقها ، وكان متفناً في العلوم ، وله في الوعظ اليد الطولى .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخسمائة :

في هذه السنة : بعد دخول صفر ، رحل السلطان صلاح الدين عن الخروبة ، وعاد إلى قتال الفرنج على عكا ، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة ، طول البرج ستون ذراعاً ، جاءوا بخشبها من جزائر البحر ، وعملوها طبقات ، وشحنوها بالسلاح والمقاتلة ، ولبسوها جلود البقر والطن بالخل لئلا تعمل فيها النار ، فتحيّل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ، ثم أحرقوا الثاني والثالث ، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة ، ووصل إلى السلطان العساكر من البلاد ، وبلغ المسلمون وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك ، وأيسوا من الشام بالكلية ، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء ، فهلك أكثرهم في الطريق .

ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن ، نزل في نهر هناك اغتسل فغرق ، وأقاموا ابنه مقامه ،

فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم ، وطائفة خامرت ابن الملك المذكور فرجعوا أيضًا ، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الفرنج الذين على عكا غير تقدير ألف مقاتل ، وكفى الله المسلمين شرهم ، وبقي السلطان والفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة ، فخرجت الفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل ، وأزالوا الملك العادل عن موضعه ، وكان معه عسكر مصر ، فعطفت عليهم المسلمون ، وقتلوا من الفرنج خلقًا كثيرًا ، فعادوا إلى خنادقهم ، وحصل للسلطان مغص ، فانقطع في خيمة صغيرة ، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ، ولكن إذا أراد الله أمرًا فلا مرد له .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : لما قوى الشتاء واشتدت الرياح ، أرسل الفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفًا عليها أن تنكسر ، فانفتحت الطريق إلى عكا في البحر ، وأرسل البدل إليها ، فكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل .

وفيها : في ثامن سوال ، توفي زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب أربل ، وكان مع السلطان في عسكره ، ولما توفي أقطع السلطان صلاح الدين أربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كوجك ، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها ، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها ، وسار مظفر الدين إلى أربل وملكها .

وفيها : استولى الخليفة الناصر لدين الله على حديثة عانة بعد أن حصرها مدة .

وفيها : أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسمساط والموزر الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده وهو مايفارقين ، ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبله واللاذقية وبلاطنس ومكرايبك .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة :

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة ، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر ، وحفروا عليهم خندقًا ، فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم ، وكانوا محاصرين لعكا ، وهم

كالمحصورين من السلطان ، واشتد حصارهم لعكا وطال ، وضعف من بها عن حفظ البلد ، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم ، فخرج الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب من عكا وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج فأجابوهم إلى ذلك ، وصمدت أعلام الفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ، واستولوا على البلد بما فيها ، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد وقالوا : إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وعلب الصليبوت ، وكتبوا إلى السلطان صلاح الدين بذلك ، فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك ، وطلب منهم إطلاق المسلمين ، فلم يجيبوا إلى ذلك ، فعلم منهم الغدر واستمر أسرى المسلمين بها ، ثم قتل الفرنج من المسلمين جماعة كثيرة ، واستمروا بالباقيين في الأسر ، وبعد استيلاء الفرنج على عكا وتقرير أمرها ، رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية ، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ، ووصلوا إلى سوق المسلمين ، فقتلوا من السوقية وغيرهم خلقاً كثيراً ، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها ، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا ، فسار إليها وأخلاها وخربها ، ورتب الحجارين في تفليق أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض ، فلما فرغ السلطان من تخريب عسقلان ، رحل عنها ثاني شهر رمضان إلى الرملة ، فخرّب حصنها ، وخرّب كنيسة لد ، ثم سار إلى القدس وقرر أموره ، وعاد إلى مخيمه بالنظر^(١) ثامن شهر رمضان ، ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك الانكتار ، ويكون للملك العادل القدس ، ولأمراته عكا ، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك ، إلا أن يتنصر الملك العادل ، فلم يتفق بينهم حال ، ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة ، وبقي في كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات ، فلقوا من ذلك شدة شديدة ، وأقبل الشتاء ، وحالت الأحوال بينهم ، ولما رأى السلطان ذلك ، وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور ، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذى القعدة ، ونزل داخل البلد ، واستراحوا مما كانوا فيه ، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه ، وأمر العسكر بنقل الحجارة ، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتردى به العسكر ، فكان يجتمع عند العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام .

(١) هكذا في الأصل وربما الأقرب إلى الصواب أن تكون اللفظة بالنظر في .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبورى التى زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات ، وهى حران وغيرها ، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه ، واستولى على السويدا وحانى ، واتقع مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحصره فى خلاط ، وتملك على معظم البلاد ، ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهى لبكتمر وضايقها ، وكان فى صحبته ولده الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر عمر المذكور ، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به ، حتى توفى يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وثمانين وخمسائة ، فأخفى ولده الملك المنصور وفاته ، ورحل عن ملازكرد ، ووصل به إلى حماة ودفنه بظاهرها ، وبنى إلى جانب التربة مدرسة ، وذلك مشهور هناك .

وكان الملك المظفر شجاعاً شديداً البأس ، ركنا عظيماً من أركان البيت الأيوبي ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، واتفق أن فى ليلة الجمعة التى توفى فيها الملك المظفر ، توفى فيها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان ، فأصيب السلطان فى تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته ، ولما مات الملك المظفر ، راسل ابنه الملك المنصور السلطان صلاح الدين ، واشترط شروطاً نسبها السلطان فيها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب بالكلية ، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل فى استعطاف خاطر السلطان ، فما برح الملك العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع فى الملك المنصور حتى أجابه السلطان ، وقرر الملك المنصور حماة وسلمية والمعة ومنبج وقلعة نجم ، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عن كل ماله من الإقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر ، وأن يكون عليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة ، تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس ، ولما استقر ذلك ، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها فقررها ، وعاد إلى خدمة السلطان فى آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة ، أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسائة ، ولما قدم الملك العادل على السلطان ، كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته ، فلما رأى السلطان الملك المنصور بن تقي الدين ، نهض واعتنقه وغشيه بالبكاء وأكرمه وأنزله فى مقدمة عسكره .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة : في شعبان ، قتل قزل أرسلان ، واسمه عثمان بن الدكر ، وهو الذي ملك أذربيجان وهمدان وأصفهان والري بعد أخيه محمد البهلوان ، وكان قد قوى عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد ، كما تقدم ذكره ، ثم إن قزل أرسلان تغلب ، واعتقل السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل في بعض البلاد ، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان ، وتعصب على الشافعية ، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همدان ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ودخل لينام على فراشه ، وتفرق عنه أصحابه ، فدخل عليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله .

وفيها : قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، صاحب بلاد الروم إلى السلطان صلاح الدين ، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده ، وأعطى ولده هذا ملطية ، ثم تغلب بعض إخوته على والده ، وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور ، فخاف من ذلك ، فسار إلى السلطان ملتجئاً إليه ، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل ، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة ، وقد انقطعت أطماع أخيه منه .

قال ابن الأثير : لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ، ترجل معز الدين له ، فترجل السلطان صلاح الدين ، ولما ركب السلطان صلاح الدين عضده قيصر شاه وركبه ، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك فسوى ثياب السلطان أيضاً ، فقال بعض الحاضرين في نفسه : ما بقيت تبالي يا ابن أيوب ، بأي موة تموت ، يركبك ملك سلجوق ، ويسوى قماشك ابن أتابك زمكى .

وفيها : قتل أبو الفتح يحيى بن حنش بن أميرك ، الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوساً ، أمر بخنقه الملك الظاهر غازي بأمر والده السلطان صلاح الدين ، قرأ المذكور الأصول والحكمة بمرافة على مجد الدين الجبيلي ، شيخ الإمام فخر الدين ، ثم سافر السهروردي المذكور إلى حلب ، وكان علمه أكثر من عقله ، فنسب إلى انحلال العقيدة ، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة ، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه ، لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه ، وكان أشدهم عليه في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهيل ، حكى الشيخ سيف الدين الآمدي قال : اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي : لا بد أن أملك الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر ، فقلت : لعله يكون اشتهاه علمك وما يناسب هذا ، فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه ، ووجدته كثير

العلم ، قليل العقل ، وكان عمره لما قتل ثمانياً وثلاثين سنة ، وله عدة مصنفات في الحكمة منها : التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الإشراق ، وكان ينتسب إلى أنه يعرف السيميا وله نظم حسن فمته :

أبدأ تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمنا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
وإذا هم كتموا يحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح
لا ذنب للعشاق أن غلب الهوى كتمانهم فتمى الغرام وباحوا

وهي قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة :

وفيها : سار الفرنج إلى عسقلان ، وشرعوا في عمارتها في المحرم والسلطان في القدس .

وفيها : قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى ، قتله بعض الباطنية ، وكانوا قد دخلوا

في زى الرهبان إلى صور .

ذكر عقد الهدنة مع الفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الانكتار مرض وطال عليه البيكار ، فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح ، فلم يجبه السلطان إلى ذلك ، ثم اتفق رأى الأمراء على ذلك لطول البيكار ، وضجر العسكر ونفدت نفقاتهم ، فأجاب السلطان إلى ذلك ، واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان ولم يحلف ملك الانكتار ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع السلطان بذلك ، وحلف الكندهرى ابن أخيه وخليفته في الساحل ، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج ، ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ، ومعهما جماعة من المقدمين ، وأخذوا يد السلطان على الصلح ، واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والملك الأفضل والظاهر ابني السلطان ، والملك المنصور صاحب حماة محمد بن تقي الدين عمر ، والملك المجاهد نيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، والملك الأبعد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك ، والأمير بدر الدين إيلدرم الياروقى صاحب تل باشر ، والأمير سابق

الدين عنمان بن الداية صاحب شيزر ، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المستطوب وغيرهم من المقدمين الكبار ، وعقدت هدنة عامة في البحر والبر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها أيلول ، الموافق الحادي والعشرين من شعبان ، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأن تكون عسقلان خراباً ، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية في عقد هدنته ، واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وأن يكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك .

ثم رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان ، وتفقد أحواله ، وأمر بتشييد أسوار ، وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند حنة ، يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم ، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج بالقدس ، ثم لما ملك الفرنج القدس في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة ، كما كانت قبل الإسلام ، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد ، ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة حجار لتخريب عسقلان ، وأن يخرج من بها من الفرنج ، وعزم على الحج والإحرام من القدس ، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك ، ثم فنده الأمراء وقالوا : لا نعتمد على هدنة الفرنج خوفاً من غدرهم ، فانتقض عزمه عن ذلك ، ثم رحل السلطان عن القدس لخمس ماضين من سوال إلى نابلس ، ثم سار إلى بيسان ، ثم إلى كوكب فبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر ، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الفرنج مع من أسر ، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق ، ثم سار منها قراقوش إلى مصر ، ثم سار السلطان إلى بيروت ، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت حادي وعشرين شوال ، فأكرمه السلطان وفارقه غد ذلك اليوم ، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال ، وفرح الناس به لأن غيبته كانت عنهم مدة أربع سنين .

وأقام العدل والإحسان بدمشق ، وأعطى السلطان العساكر الدستور ، فودعه ولده الملك الظاهر وداعاً لالقاء بعده وسار إلى حلب ، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل والقاضي الفاضل ، وكان الملك العادل قد استأذن السلطان ، وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه ، ثم عاد الملك العادل إلى دمشق طالباً البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقى الدين ، فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه .

وفي يوم الخميس ، السادس والعشرين من شوال من هذه السنة ، توفي الأمير سيف الدين

على بن أحمد المشطوب بنابلس ، وكانت إقطاعه ، فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس ، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن المشطوب وأميرين معه .

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

في هذه السنة : أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، في منتصف شعبان ، توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان ييغو بن سلجوق ، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكان ذا سياسة حسنة ، وهيبة عظيمة ، وعدل وافر ، وغزوات كثيرة ، وكان له عشرة بنين ، قد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم ، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور ، وكان قد أعطاه أبوه سيواس ، فسولت له نفسه القبض على أبيه وإخوته والانفراد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان ، فسار قطب الدين ملكشاه ، وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه ، وقال لوالده وهو في قبضته : أنا بين يديك أنفذ أوامرك ، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولى عهده ، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه ، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده ، فخرج عسكر قيسارية لحربه ، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة ، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه ، كما يجب عليه ، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة ، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده ، كلما ضجر منه واحد منهم ينتقل إلى الآخر ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو ، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع له وحشد ، وسار معه إلى قونية فملكها وأخذها من ابنه ملكشاه ، ثم سار إلى أقصرا ، فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور ، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها ، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل ، فاستقر كيخسرو في ملك قونية وأثبت أنه ولى عهد أبيه قليج أرسلان ، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوى على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية ، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب .

ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة ، وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان فرجع

غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم ، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان وملك بلاد الروم جميعها ، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم ، وبقي كذلك إلى أن قتل ، وملك بعده ابنه عز الدين كيكافوس بن كيخسرو ، ثم توفي كيكافوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو ، وتوفي علاء الدين كيقباز سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو ، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق ، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم في الحقيقة ، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم ، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما : ركن الدين وعز الدين فملكا معاً مدة مديدة ، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية ، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه ، والبلاد في الحقيقة للتتر ، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين ، وأقام أبداً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : غزا شهاب الدين الغوري الهند ، فغنم وقتل مالا يحصى .
وفيهما : خرج السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل من الحبس ، بعد قتل قزل أرسلان بن الدكر ، وكان قزل قد اعتقله حسباً تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة .
وفيهما : توفي راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد ، وكنيته أبو الحسن ، صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام وأصله من البصرة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة :

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين

أبي المظفر يوسف بن أيوب بن

شادي وشيء من أخباره

دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق على أكمل ما يكون من المسرة ، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً ، وغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل ، ثم عاد إلى دمشق ،

وودعه أخوه الملك العادل وداعاً لا لقاء بعده ، فمضى إلى الكرك وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان ، وأقام السلطان بدمشق ، وركب في يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته ألا يركب إلا وهو لابس كزاغند^(١) ، فركب ذلك اليوم ، وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب ، فطلب الكزاغند فلم يجده ، وقد حملوه معه ، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنبيع ، ودخل إلى القلعة على الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته ، فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم ، وغشيه نصف الليل حمى صفراوية ، وأخذ المرض في التزايد ، وقصده الأطباء في الرابع ، فاشتد مرضه ، وحدث له في التاسع رعشة ، وغاب ذهنه ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الإرجاف في البلد ، وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته ، وحقن في العاشر حقنتين ، فحصل له راحة ، وتناول من ماء السعير مقداراً صالحاً ، ثم لحقه عرق كثير حتى نفذ من الفراش ، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر ، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة ، بحيث إن احتضر بالليل ذكره الشهادة .

وتوفي السلطان في الليلة المذكورة ، أعنى في الليلة المستقرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح ، فحضر وفاته ، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد موته وانتقاله إلى رحمة الله وكرامته ، وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق ، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور ، في تابوت مسجى بثوب ، وجميع ما احتاجوا من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفة ، وصلى عليه الناس ، ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها ، وكان نزوله إلى جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور ، وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه ، وجلس للعزاء في القلعة ، وأرسل الملك الأفضل على الكتب بوفاة والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر ، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب ، وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك .

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع ، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل

(١) الكزاغند : قال صاحب كتاب « الملايس المملوكية » تأليف ل . ا . ماير ترجمة صلاح الشيبني ما نصه ص ٧١ و ٧٢ « البريجاندين الذي يطلق عليه اسم كزاغند أشير إليه كثيراً في القرن الثالث عشر ، فهو لابد أن يكون حلة شائعة الاستعمال في تلك الأيام ، ولكنه كان فخماً إلى درجة حملت السلطان على ارتدائه كذلك » ، ويقول في هامش ص ٧٢ في وصف الكزاغند « كان من المؤلف أن يرتديه صلاح الدين دائماً أثناء ركوبه ، وكان له ياقة عريضة ، ولم يكن في استطاعة سكين أن تقطعه ، ولا يمكن للتصل أن ينفذ منه ليلحق بالجسد .

إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وخمسمائة ، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته ، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد ، وأدخل الجامع ووضع قدام الستر ، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكى الدين ثم دفن ، وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة ، وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وتلاثين وخمسمائة ، فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة ، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين على بن يوسف ، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منها ، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ، ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً ، وحرم واحد صوري ، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن ، دليل قاطع على فرط كرمه ، ولم يخلف داراً ولا عقاراً .

قال العماد الكاتب : حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش ، فكان اثني عشر ألف رأس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة في القتال ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، أو موعود به ، ولم يؤخر صلاة عن وقتها ، ولا صلى إلا في جماعة ، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله ، ولا يفضل يوماً على يوم ، وكان كثير سماع الحديث النبوي ، قرأ مختصراً في الفقه ، تصنيف سليم الداري ، وكان حسن الخلق ، صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ، ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه ، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ، ووصلت إلى السلطان فأخطأته ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها ، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد في مجلسه أحداً إلا بالخير ، وطاهر اللسان فما يولع بستم قط .

قال العماد الكاتب : مات بموت السلطان الرجال ، وفات بوفاته الأفضال ، وغاضت الأيادي وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحدة وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه .

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

لما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، استقر في الملك (بدمشق) وبلادها المنسوبة إليها ، ولده الملك الأفضل نور الدين علي ، و (بالديار المصرية) الملك العزيز عماد الدين عثمان ، و (بحلب) الملك الظاهر غياث الدين غازي ، و (بالكرك والشوبك والبلاد الشرقية) الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، و (بحماة وسَلَمِيَّة والمعرة ومنبج وقلعة نجم) الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر ، و (بعلبك) الملك الأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و (بحمص والرحبة وتدمر) شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، ويبد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين (بصرى) ، وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل .

ويبد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم : سابق الدين بن الداية بيده (شيزر) وأبو قبيس وناصر الدين بن كورس بن خمادكين بيده (صهيون وحصن برزية) ، وبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق بيده (تل باشر) ، وعز الدين أسامة بيده (كوكب وعجلون) ، وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده (بعرين وكفرطاب وفامية) .

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان ، والمعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير مصنف « المثل السائر » ، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى « بالكامل » ، فحسّن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر .

قال العماد الكاتب : وتفرد الوزير في توزره ، ومد الجزرى في جزره ، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر ، حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ، ووقعوا في أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز .

وفي هذه السنة : بعد موت السلطان ، قدم الملك العادل من الكرك إلى دمشق وأقام فيها وظيفة الغزاء على أخيه ، ثم توجه إلى بلاده التي وراء الفرات .

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التي بيد الملك العادل وعوده وموته

في هذه السنة : لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار ، وسار إلى جهة حران وغيرها ، فلحق عز الدين مسعود إسهال قوى وضعف ، فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل ، وصحبه مجاهد الدين قيمانز ، فخلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر ، وقوى بعز الدين مسعود المرض ، وتوفي في السابع والعشرين من شعبان في هذه السنة ، فكانت مدة ما بين وفاته و وفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة ، وكانت مدة ملك عز الدين بن مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وكان ديناً خيراً كثيراً الإحسان ، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين ، يشبه جده عماد الدين زنكى ، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه ، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قيمانز .

ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

في هذه السنة : في أول جمادى الأولى ، قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران ، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماتة بموت السلطان ، وضرب البشائر ببلاده ، وفرح فرحاً كثيراً ، وعمل تختاً يجلس عليه ، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين ، وكان اسمه بكتمر ، فسمى نفسه الملك العزيز ، فلم يمهله الله تعالى ، وكان بكتمر هذا من مماليك ظهير الدين شاهر من ، وكان له خشداش اسمه هزار دينارى ، وكان قد قوى وتزوج ابنة بكتمر ، وطمع في الملك ، فوضع على بكتمر من قتله .

ولما قتل ملك بعده هزار دينارى خلاط وأعمالها ، واسم هزار دينارى المذكور آقسنقر ، ولقبه بدر الدين ، جلبه تاجر جرجانى اسمه على إلى خلاط ، فاشتراه منه شاهراً من سكمان بن إبراهيم ، وأعجب به شاهر من فجعله ساقياً له ، ولقبه هزار دينارى ، وبقي على

ذلك برهة من الزمان ، فلما تولى بكتمر على مملكة خِلاط ، بقى المذكور من أكبر الأمراء ، وتزوج بينت بكتمر عينا خاتون ، فلما قتل بكتمر خلف ولداً ، فأخذ هزار دينارى المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلها بقلعة أرزاس عوش ، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين ، واستمر بدر الدين أفسنقر هزار دينارى فى مملكة خِلاط حتى توفى فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، حسبها سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك

فى هذه السنة : شتى شهاب الدين الغورى فى برشاور ، وجهز مملوكه أيك فى عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ، ففتح وغنم وعاد منصوراً مؤيداً .
وفىها : توفى سلطان شاه بن أرسلان بن أطسر بن محمد بن أتونستكين ، وكان قد ملك مرو وخراسان ، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة ، وقد تقدم ذكرهما فى سنة ثمان وستين وخمسمائة .
وفىها : مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم أمير مكة ، وما زالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكش تارة حتى مات .
ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة :

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الرى

كان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل السلجوقى قد حبسه قزل أرسلان بن الدكز ، وخرج طغريل من الحبس فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وملك همدان وغيرها ، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أربك بن البهلوان محمد بن الدكز ، وقيل بل هو قتلغ إينانج أخو أربك المذكور ، فانهزم ابن البهلوان ، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته ، استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش فخاف منه ، فلم يجتمع بخوارزم شاه فسار خوارزم شاه تكش وملك الرى ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين ، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم ، فصالح طغريل السلجوقى ، وعاد تكش إلى خوارزم ، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين

وخمسمائة ، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور ، وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو .

ولما دخلت سنة تسعين ، سارتكش إلى حرب طغريل السلجوقي ، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره ، والتقى العسكران بالقرب من الرى ، وحمل طغريل بنفسه فقتل ، وكان قتله فى الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، وحمل رأس طغريل إلى تكش ، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام ، وسارتكش فملك همدان وتلك البلاد جميعها ، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان وأقطع بعضها لمالئكه ، ورجع إلى خوارزم ، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم ، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية فى سنة اثنتين وتلاثين وأربعمائة .

وأول من ملك منهم العراق ، وأزال دولة بنى بويه طغريل بك بن ميكائيل بن سلجوق ، ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلاً ، فقامت بتدبير المملكة أم محمود ترکان خاتون ، ومات محمود وهو ابن سبع سنين ، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه ، ثم أخوه محمد بن ملكشاه ، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور ، ثم ابنه داود بن محمود بن محمد المذكور مدة يسيرة ، ثم عمه طغريل بن محمد ، ثم أخوه مسعود بن محمد ، ثم ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياماً يسيرة ، ثم أخوه محمد بن محمود ، ثم بعد محمد المذكور اختلفت العساكر ، وقام من بنى سلجوق ثلاثة : أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور ، والثانى سليمان شاه بن محمد ابن السلطان ملكشاه ، وهو عم محمد المذكور ، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه .

وكان الذكز متزوجاً بأمر أرسلان شاه المذكور ، فقوى عليها سليمان شاه ، واستقر فى همدان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ثم قبض سليمان شاه وقتل ، وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان فى السنة المذكورة ، أعنى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب الذكز ، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وجرى له ما ذكرناه حتى قتله تكش فى هذه السنة ، أعنى سنة تسعين وخمسمائة ، وانقرضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : أرسل الخليفة الإمام الناصر عسكرياً مع وزيره مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بابن القصاب إلى خورستان ، وهي بلاد ابن سملة وأولاده من بعده ، وكان قد مات صاحبها ابن سملة فاختلفت أولاده ، فوصل عسكري الخليفة إلى خورستان ، وملكوا مدينة تستر في المحرم سنة إحدى وتسعين وغيرها من البلاد ، وكذلك ملكوا قلعة الناطر وقلعة كاكرد وقلعة لاموج وغيرها من القلاع والحصون ، فأنفذوا بني سملة أصحاب بلاد خورستان إلى بغداد .

وفي هذه السنة : أعني سنة تسعين ، استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين ، فسار العزيز في عسكر مصر ، وحصر أخاه الأفضل بدمشق ، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الطاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين ، ورجع العزيز إلى مصر ، ورجع كل ملك إلى بلده ، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلاً ونهاراً ، وأشاع ندماءه أن عمه الملك العادل حسن له ذلك ، وكان يعمل به بالخفية ، فأنسده العادل :

* فلا خير في اللذات من دونها ستر *

فقبل وصية عمه وتظاهر بذلك ، وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين بن الأنير الجزري ، يديرها برأيه الفاسد ، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك ، وأزال المنكرات وواظب على الصلوات ، وشرع في نسخ مصحف بيده .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة :

وفيها : سار ابن القصاب وزير الخليفة بعد ملك خورستان إلى همدان فملكها ، وملك غيرها من بلاد العجم ، وأخذ يستولي على سائر البلاد للخليفة ، فتوفي مؤيد الدين بن القصاب المذكور في أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وفيها : غزا ملك الغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس ، وجرى بينهم مصاف عظيم انتصر فيه المسلمون ، وقتل من الفرنج مالا يحصى وولوا منهزمين ، وغنم المسلمون منهم مالا يحصى .

وفيهما : جهز الخليفة الإمام الناصر عسكرياً مع مملوك له يقال له سيف الدين طغريل ، فاستولوا على أصفهان .

وفيهما : قدّم ممالك البهلوان عليهم مملوكاً من البهلوانية يقال له كلجا ، فعظم أمر كلجا واستولى على الرّى وهدان .

وفيهما : عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل ، فسار ونزل الغوار من أرض السواد من بلاد دمشق ، فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه ، فبادر العزيز العود إلى مصر بمن بقي معه من العسكر ، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لما قصده أخوه العزيز ، فلما رحل العزيز عائداً إلى مصر ، رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية وساروا في أثر العزيز طالبين مصر ، فساروا حتى نزلوا على بليس ، وقد ترك فيها العزيز جماعة من الصلاحية ، وقصد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه العادل عن ذلك ، فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها ، فمنعه عمه العادل أيضاً عن ذلك وقال : مصر لك متى شئت ، وكاتب العادل العزيز في الباطن وأمره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الإخوان ، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابتهم لما رأى من فساد أحوالهم ، فدخل عليه الملك العزيز وسأله ، فتوجه القاضي الفاضل من القاهرة إلى عند الملك العادل ، واجتمع به ، واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما ، وأقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته ، وعاد الأفضل إلى دمشق .

وفيهما : كان بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب ، وبين الفرنج بالأندلس سمالي فرطبة حروب عظيمة انتصر فيها يعقوب وانهزم الفرنج .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة :

وفيهما : سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلاد الهند ، وفتح قلعة عظيمة تسمى بهنكر بالأمان ، ثم سار إلى قلعة كوكيرو بينها نحو خمسة أيام ، فصالحه أهلها على مال حملوه إليه ، ثم سار في بلاد الهند فغنم وأسر وعاد إلى غزنة .

وفيهما : قتل صدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن محمد الخجندی ، رئيس السافعية بأصفهان وهو الذي سلم أصفهان إلى عسكر الخليفة ، قتله سنقر الطويل شحنة للخليفة^(١) بسبب منافرة جرت بينها .

(١) شحنة للخليفة : أى عداوة انظر : لسان العرب مادة شحن ج ٤ ط دار المعارف .

وفيها : نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة في صفر ، فكان مده لبته بالقلعة ثلاث سنين ، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري ، وقد اختلفت الأحوال به وكثر شاكوه وقلّ شاكره .

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل في مصر والملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل ، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق ، وأن يسلمها العزيز إلى العادل ، لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه ، فخرجا وسارا من مصر ، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين ، وهو أحد أمرائه ، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه ، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه ، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق ، وقد حصنها الملك الأفضل ، فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه ، وأنهم يسلمون المدينة إليه ، فرحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة ، فدخل الملك العزيز من باب الفرج ، والملك العادل من باب توما ، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقل منها بأهله وأصحابه وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مخفياً في صندوق خوفاً عليه من القتل .

وكان الملك الظاهر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضداً له ، فأخذت منه بصرى أيضاً ، فلحق بأخيه الملك الظاهر فأقام عنده بحلب ، وأعطى الأفضل صرخد ، فسار إليها بأهله واستوطنها ، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ، ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، وتسلمها الملك العادل ، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهراً ، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز .

ولما استقر الملك الأفضل بصرخد ، كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب :

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق على
فانظر إلى خط هذا الاسم كيف لقي من الأواخر مالاقي من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه :

وافى كتابك يا بن يوسف معلناً بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غضبوا علياً حقه إذ لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة :

في هذه السنة : توفي ملكشاه بن تكش بنيسابور ، وكان أبوه خوارزم شاه تكش قد جعله فيها ، وجعل له الحكم على تلك البلاد ، وجعله ولي عهده ، وخلف ملكشاه ولداً اسمه هندوخان ، فلما مات ملكشاه جعل تكش فيها عوضه ولده الآخر قطب الدين محمد ، وهو الذي ملك بعد أبيه ، وغير لقبه عن قطب الدين وجعله علاء الدين ، وكان بين الأخوين ملكشاه وقطب الدين عداوة مستحكمة .

ذكر وفاة سيف الإسلام

في هذه السنة : في شوال ، توفي سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، ولما مات سيف الإسلام كان ولده الملك العزيز إسماعيل بالسمرين ، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ، ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه ، وكانت وفاة سيف الإسلام بزبيد ، وكان شديد السيرة ، مضيقاً على رعيته ، يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، وجمع من الأموال مالا يحصى ، حتى إنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة :

في هذه السنة : في المحرم ، توفي عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن أقتنقر ، صاحب سنجار والخابور والرقعة ، وكان حسن السيرة متواضعاً ، يحب أهل العلم ، إلا أنه كان بخيلاً شديد البخل ، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكى ، وتولى تدبير دولته بمجاهد الدين برنقش مملوك أبيه .

وفيها : في جمادى الأولى ، سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل إلى نصيبين ، فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى وتسلم نصيبين .

وفيهما : سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهى للخطا وحاصرها وملكها ، وكان تكش أعور ، فأخذ أهل بخارى فى مدة الحصار كلباً أعور ، وألبسوه قباء ، وقالوا للخوارزمية : هذا سلطانكم ، ورموه بالمنجنيق إليهم ، فلما ملكها خوارزم شاه تكش ، أحسن إلى أهل بخارى ، وفرق فيهم أموالا ، ولم يؤاخذهم بما فعلوه فى حقه .

وفيهما : وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل ، واستولوا على قلعة بيروت ، وسار الملك العادل ، ونزل بتل العجول ، وأتته النجدة من مصر ، ووصل إليه سنقر الكبير ، صاحب القدس ، وميمون القصرى صاحب نابلس ، ثم سار الملك العادل إلى يافا ، وهجمها بالسيف وملكها ، وقتل الرجال المقاتلة ، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها ، ونازلت الفرنج تبينين ، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر ، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقى عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمة الملك العادل على تبينين ، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين ، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر ، وترك غالب العسكر مع عمه العادل ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح ، ومات فى هذه المدة سنقر الكبير ، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين فطلق ، مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب .

ولما عاد الملك العزيز إلى مصر فى هذه المدة ، مدحه القاضى ابن سناء الملك بقصيدة منها :

قدمت بالسعد وبالمغنم	كذا قدوم الملك المقدم
قميصك الموروث عن يوسف	ما جاء إلا صادقاً فى الدم
أغثت تبينين وخلصتها	فريسة من ماضى ضيغم
سنشنة تعرف من يوسف	فى النصر لا تعرف من أخزم
مقدمه صار جمادى به	كمثل ذى الحجة دام موسم

ثم طاول الملك العادل بالفرنج ، فطلبوا الهدنة ، واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع الملك العادل إلى دمشق ، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردین وحصرها ، وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازى بن إلبى بن عمر تاش بن إيلغازى بن أرتق ، وليس ليولق أرسلان من الحكم شىء ، وإنما الحكم إلى مملوك والده البقش .

ذكر أخبار ملوك خِلاط

وفيهما : توفى صاحب خِلاط بدر الدين (أقسنقر) هزاردينارى ، وقد تقدم ذكر ملكه لخِلاط فى سنة تسع وثمانين وخمسائة ، ولما توفى هزاردينارى استولى على خِلاط بعده خشداشه (قتلغ) ، وكان مملوكاً أرمنى الأصل من سناسنة ، فملك خِلاط نحو سبعة أيام ، ثم اجتمع

عليه الناس وأنزلوه من القلعة ، ثم وثبوا عليه فقتلوه ، فلما قتل قتلغ ، اتفق كبار الدولة فأحضروا محمد بن بكتمر من القلعة التي كان معتقلاً فيها ، واسمها أرزاس ، وأقاموه في مملكة خلاط ، ولقبوه الملك المنصور ، وقام بتدبير أمره شجاع الدين قتلغ الدوادار ، وكان قتلغ المذكور قفجاقى الجنس دَوَادَارًا لشاهرَ مَنْ سَكَمَان بن إبراهيم ، واستقر ابن بكتمر كذلك إلى سنة اثنتين وستمئة ، فقبض على أتابكه قتلغ المذكور وحبسه ثم قتله ، فخرج عليه مملوك لشاهرَ مَنْ يقال له عز الدين بلبان ، واتفق العسكر مع بلبان المذكور ، وقبضوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة إلى أسفل وقالوا : وقع .

واستمر (بلبان) في مملكة خلاط دون سنة ، وقتله بعض أصحاب طغريل بن قليج أرسلان شاه صاحب أرزن ، وقصد طغريل المذكور أن يتسلم خلاط فلم يجبه أهلها إلى ذلك وعصوا عليه فعاد إلى أرزن ، ثم وصل الملك الأوحى أيوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وتسلم خلاط ، وملكها قريب ثمان سنين حسبما نذكر ذلك في سنة أربع وستمئة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة :

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

في هذه السنة : في منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم ، توفى الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قد طلع إلى الصيد فركض خلف ذئب فتقنطر وحمل سبع المحرم في جهة الفيوم ، فعاد إلى الأهرام وقد استدت حماءه ، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء ، وحدث به يرقان وقرحة في المعى واحتبس طبعه فمات في التاريخ المذكور ، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا ، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا ، وكان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم ، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة .

وكان الغالب على دولة الملك العزيز فخر الدين جهاركس ، فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد ، واتفقت الأمراء على إحضار أحد من بنى أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة بحضور القاضى الفاضل ، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد ، فأرسلوا إليه فصار محثا ، ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور ابن الملك العزيز ، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهورا ، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفرا متكررا خوفا من أصحاب عمه الملك العادل ، فإن غالب تلك البلاد كانت

له فوصل بلبيس خامس ربيع الأول ، ثم سار الملك الأفضل إلى القاهرة ، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه ، فترجل له عمه الملك الأفضل ، ودخل بين يديه إلى دار الوزارة ، وهي كانت مقر السلطنة .

ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر ، فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه ، وتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماريدين ، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل ، يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل ، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماريدين ، فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق ، وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق ، فترك على حصار ماريدين ولده الملك الكامل ، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين .

ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة ، وزحف من الغد على البلد ، وجرى بينهم قتال ، وهجم بعض عسكره المدينة ، حتى وصل إلى باب البريد ولم يدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل ، وأخرجوهم من البلد ، ثم تحاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب ، فعاد إلى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها ، وقلت الأقوات إلى الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد ، لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلاف ، وخرجت السنة وهم على ذلك ، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين

وفي شهر رمضان من هذه السنة ، قصد الملك المنصور صاحب حماة بارين ، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها ، وكان عز الدين إبراهيم مع الملك العادل محصوراً معه بدمشق ، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق ، وانجرح الملك المنصور حال الزحف ، ثم فتحها في التاسع والعشرين من ذي القعدة ، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها .

ذكر وفاة يعقوب ملك المغرب

في ربيع الآخر ، وقيل في جمادى الأولى ، توفي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا ، وكانت ولايته خمس عشرة سنة ، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية ، وأعرض عن مذهب مالك ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وتلقب يعقوب المذكور بالمنصور ، ولما مات يعقوب ، ملك بعده ابنه محمد بن يعقوب ، وتلقب محمد بالناصر ، ومولد محمد المذكور سنة ست وسبعين وخمسائة ، وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين .

وفي هذه السنة : رحل عسكر الملك العادل ، مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردین .

ذكر الفتنة بفيروزكوه

في هذه السنة : كانت فتنة عظيمة في عسكر غياث الدين ملك الغورية ، وهو بفيروزكوه ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي ، الإمام المشهور ، كان قد قدم إلى غياث الدين ، فبالغ غياث الدين في إكرامه واحترامه ، وبني له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع ، فعظم ذلك على الكرامية ، وهم كثيرون بهراة ، ومذهبهم التجسيم والتشبيه ، وكان الغورية كلهم كرامية ، فكرهوا فخر الدين ، لأنه شافعي ، وهو يناقض مذهبهم ، فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشافعية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر فخر الدين الرازي ، والقاضي عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة ، وهو من الكرامية الهيصمية ، وله عندهم محل كبير لتزده وعلمه ، فتكلم الرازي ، فاعترض عليه ابن القدوة ، وطال الكلام ، فقام غياث الدين ، فاستطال فخر الدين الرازي على ابن القدوة وشتمه وبالغ في أذاه ، وابن القدوة لا يزيده على أن يقول : لا يفعل مولانا إلا وأخذ الله ، فصعب على الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته ، وشكا إلى غياث الدين ، وذم فخر الدين الرازي ، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ إليه غياث الدين ، فلما كان الغد ، وعظ الناس ابن عمر بن القدوة بالجامع وقال بعد حمد الله ، والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١) ، أيها

الناس : إنا لا نقول إلا ما صحَّ عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما علم أرسطو ، وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها ، فلائى حال يُشتمُّ بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يُذَّبُ عن دين الله وسنة نبيه ، وبكى وبكى الكرامية واستغاثوا وثار الناس من كل جانب ، وامتلاً البلد فتنة ، فبلغ ذلك السلطان ، فأرسل جماعة سكنوا الناس ووعدهم إخراج فخر الدين الرازى من عندهم ، وتقدم عليه بالعود إلى هراة فعاد إليها .

وفى هذه السنة : فى ربيع الأول ، توفى مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل ، وهو الحاكم فى دولة نور الدين أرسلان ، صاحب الموصل ، وقايماز المذكور هو الذى كان حاكماً على مسعود والد أرسلان ، حتى قبض عليه مسعود ، ثم أخرجه بعد مدة ، وكان قايماز عاقلاً أديباً فاضلاً فى الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وبني عدة جوامع وربط ومدارس .

وفىها : فارق غياث الدين ملك الفورية مذهب الكرامية ، وصار شافعى المذهب . وفىها : توفى محمد بن عبد الملك بن زُهر الأندلسى الأشبيلى ، وكان فاضلاً فى الأدب ، وكان طبيباً ، وكان جده زهر وزيراً وفيلسوفاً ، وتوفى زهر المذكور فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بقرطبة ، وزُهر بضم الزاى المعجمة ، وسكون الهاء ، وقد قيل فى ابن زهر :

قل للوبا أنت وابن زُهرٍ قد جُرُئَما الحدَّ فى النكايه
ترفقا بالسورى قليلا فى واحد منكبا كفايه

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة :

والمَلِكُان : الأفضل والظاهر ، محاصران لمدينة دمشق ، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر ، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك ففقد ، ووجد عليه الملك الظاهر وجداً عظيماً ، وتوهم أنه دخل دمشق ، فأرسل من تكشف خبره ، واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية ، فأرسل إلى الظاهر يقول له : إن محمود بن الشكرى أفسد مملوك ، واحمله إلى الأفضل أخيك ، فقبض الظاهر على ابن الشكرى ، فظهر المملوك عنده ، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل ، وترك قتال العادل ، وظهر الفشل فى العسكر ، فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق ، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر ، ثم سارا إلى رأس الماء ليقبها به إلى أن ينسلخ الشتاء ، ثم انتنى عزمهما ، وسار الأفضل إلى مصر ، والظاهر إلى حلب على القريتين ولما تفرقا خرج الملك العادل إلى دمشق ، وسار فى أثر الأفضل إلى مصر ، ولما وصل الأفضل إلى مصر ، تفرقت عساكره فى بلادهم لأجل الربيع ، فأدركه عمه العادل ، فخرج الأفضل بمن بقى عنده من العسكر ، وضرب معه مصافاً بالسايح ، فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة ، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام ، فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن

يعوض عنها ميافارقين وحاني وسميساط ، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به ، وكان دخول العادل إلى القاهرة في الحادى والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقال ابن الأثير : كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر .

وفيها : توفي القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، في سابع عشر ربيع الآخر ، وقيل : إن مولد القاضى الفاضل سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فكان عمره نحو سبعين سنة .

ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد ، وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد ابن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور ، واستقل العادل في السلطنة ، ولما استقرت المملكة للملك العادل ، أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم ، فقبل الملك العادل عذره ، وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم ، فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة ، ونزل على منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عن بعرين ، فرضى ابن المقدم بذلك ، لأنها خير من بعرين بكثير ، وتسلمها عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، وكان له أيضاً فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة .

وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه ، وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه ، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل ، كلما خرج إلى البيكار ، والتزم صاحب حلب بذلك .

وقصر النيل في هذه السنة تقصيراً عظيماً ، حتى إنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعاً .

ذكر وفاة خوارزم شاه

في هذه السنة : في العشرين من رمضان ، توفي خوارزم شاه تكش بن أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين صاحب خوارزم وبعض خراسان والرى وغيرها من البلاد الجبلية بشهرستانه ، وولى الملك بعده ابنه محمد بن تكش ، وكان لقب محمد - قطب الدين فغيره إلى علاء الدين ، وكان تكش عادلاً حسن السيرة ، يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة والأصول ، ولما بلغ غيات الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه ، ترك ضرب نوبته ثلاثة أيام ، وجلس للعزاء - مع ما كان بينها من العداوة المستحكمة ، وهذا خلاف ما فعله بكثر من الستمائة بالسلطان صلاح الدين ، ولما استقر محمد بن تكش في المملكة ، هرب ابن أخيه هند وخان بن ملكشاه بن تكش إلى غيات الدين ملك الغورية ، يستنصره على عمه ، فأكرمه غيات الدين ووعده بالنصر .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة :

لما دخلت هذه السنة ، كان بالديار المصرية الملك العادل ، وعنده ابنه الملك الكامل محمد ، وهو نائبه بها ، وبحلب الملك الظاهر ، وهو مجدّ في تحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل ، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل نائب أبيه بها ، وبالشرق الملك إبراهيم ابن الملك العادل ، وبميفارقين الملك الأوحّد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل .

وفي هذه السنة : توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، وصارت البلاد بعده وهى منبج وقلعة نجم وفامية وكفر طاب لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج ، سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج ، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ، ونزل عبد الملك بالأمان ، فاعتقله الملك الظاهر ، وملك قلعة منبج ، وبعد أن فرغ من منبج ، سار إلى قلعة نجم وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب من هذه السنة .

وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة ، يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التى فى عنقه للملك العادل ، فلما أيس الملك الظاهر منه ، سار إلى المعرة وأقطع بلادها ، واستولى على كفرطاب ، وكانت لابن المقدم ، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم ، وأرسل الملك الظاهر فأحضر عبد الملك بن المقدم من حلب ، وكان معتقلاً بها ، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية ، فامتنع قراقوش فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم ، فضرب ضرباً شديداً وبقي يستغيث ، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ، ولم يُسَلَّم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر ، وتوجه إلى حماة وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة ، ونزل شمالى البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين ، وزحف من جهة الباب المغربى ، وقاتل قتالاً شديداً ثم زحف فى آخر شعبان من الباب الغربى والباب القبلى وباب العميان ، وجرى فيه قتال شديد ، وخرج الملك الظاهر بسهم فى ساقه ، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان ، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال يحمله إليه ، قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية ، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل ، فنازها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل ، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس ، ومن وافقه من الأمراء الصلاحية واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنها متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ، ويتسلمها الملك الأفضل ، وتسلم دمشق حينئذ إلى

الملك الظاهر صاحب حلب ، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر ، وكان قد تخلف من أكابر الأمراء الصلاحية عنها : فخر الدين جهاركس ، وزين الدين قراجا ، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا ، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه .

وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق ، فخرج بعساكر مصر وأقام بنابلس ، ولم يجسر على قتالهما واشتدت مضايقة الملكين الأفضل والظاهر لدمشق ، وتعلق النقايون بسورها ، فلما ساهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك ، حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق وقال له : أريد أن تسلم إلى دمشق الآن ، فقال له الأفضل : إن حريمى حريمك ، وهم على الأرض ، وليس لنا موضع نقيم فيه ، وهب هذه البلد لك ، فاجعله لى إلى حين تملك مصر وتأخذه ، فامتنع الظاهر من قبول ذلك .

وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية ، إنما كان لأجل الأفضل ، فقال لهم الأفضل : إن كان قتالكم لأجلى فاتركوا القتال ، وصالحوا الملك العادل ، وإن كان قتالكم لأجل أخى الملك الظاهر وأنتم وإياه ، فقالوا : إنما قتالنا لأجلك ، وتخلوا عن القتال ، وأرسلوا وصالحوا الملك العادل ، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق ، وقد تفرقت العساكر ، فرحل الملك الظاهر عن دمشق فى أول المحرم سنة ثمان وتسعين ، وسار الأفضل إلى حمص .

وفى هذه السنة : أعنى سنة سبع وتسعين ، توفى عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني ، وكان فاضلاً فى الفقه والأدب والخلاف والتاريخ ، وله النظم البديع ، والنثر الفائق ، وكتب لنور الدين ولصلاح الدين ، وله التصانيف الحسنة منها : البرق الشامى ، وخريدة القصر ، وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان عمره نيفاً وسبعين سنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة : سار الملك غياث الدين ملك الغورية بعساكره ، وأرسل استدعى أخاه شهاب الدين من غزنة ، فلاحقه بعساكره أيضاً وسار غياث الدين إلى خراسان ، واستولى على ما كان لخوارزم شاه بخراسان ، ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش الذى كان هرب من عمه محمد إلى غياث الدين ، ثم استولى غياث الدين على سرخس وطوس ونيسابور وغيرها ، ولما استقرت هذه البلاد لغياث الدين ، عاد إلى بلاده ، وتوجه أخوه شهاب الدين إلى بلاد الهند ، فغنم وفتح نهر والة ، وهى من أعظم بلاد الهند .

وفي هذه السنة : في رمضان ، ملك ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان مدينة ملطية ، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ثم سار ركن الدين إلى أرزن الروم ، وكانت للملك محمد بن صليق ، وهو من بيت قديم ، ملكوا أرزن الروم من مدة طويلة ، فطلع صاحب أرزن الروم المذكور ليصالح ركن الدين ، فقبض عليه وأخذ البلد منه ، وكان محمد هذا آخر الملوك من أهل بيته .

وفيهما : توفي سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، صاحب آمد وحصن كيفا ، سقط من سطح جوسق كان له بحصن كيفا فمات ، وكان له أخ اسمه محمود بن محمد ، وكان سقمان يبغضه ، فأبعده إلى حصن منصور ، وكان قد جعل سقمان ولي عهده مملوكه إياس ، وكان يحبه حباً شديداً ، وأوصى له بالملك بعده ، فلما مات سقمان استولى إياس على البلاد ، فلم ينتظم له حال ، وكاتبوا أخاه محموداً ، فحضر وملك بلاد أخيه سقمان . وفيها : كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل .

وفيهما : كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة ، فهدمت مدناً كثيرة . وفيها : في رمضان ، توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الجنبلي ، الواعظ المشهور وتصانيفه مشهورة ، وكان كثير الوقعة في العلماء ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة :

في هذه السنة : بعد رحيل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق كما ذكرنا ، قدم إليها الملك العادل ، وكان قد سار ميمون القصرى مع الملك الظاهر فأقطعه أعزاز . وفيها : خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب .

وفيهما : أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر ، يبذل له تسليم فامية ، بشرط أن يعطى شمس الدين عبد الملك بن المقدم إقطاعاً يرضاه ، فأقطعه الملك الظاهر الراوندان وكفر طاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة وتسلم فامية ، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده ، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه .

وفيهما : سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ، ونزل على تل صفرون ، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب ، فاستعد للحصار بحلب ، وراسل عمه ولا طفه وأهدى

إليه ، ووقعت بينها مراسلات ، ووقع الصلح ، وانتزعت منه مفردة المعرة ، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، وأخذت من الملك الظاهر أيضاً قلعة نجم ، وسلمت إلى الملك الأفضل ؛ وكان له سروج وسميساط ، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأنسرف مظفر الدين موسى ، وسيره إلى الشرق ، وكان بميفارقين الملك الأوحـد ابن الملك العادل ، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان ساه بن الملك العادل ، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر ، رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها ، وقد انتظمت الممالك السامية والسرفية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها ، وضربت السكة فيها باسمه .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : عاد خوارزم شاه محمد بن تكش ، واسترجع البلاد التي أخذها الغورية من خراسان إلى ملكه .

وفيهـا : توفي هبة الله بن علي بن مسعود بن نابت المنستيرى بضم الميم وفتح النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ومُنْستير : بليدة بأفريقية ، وكان هبة الله المذكور عالى الإسناد ، ولم يكن فى عصره من هو فى درجته ، سمع إبراهيم بن حاتم الأسدى ، وسمع جماعة من الأكابر ، وسمع الناس على هبة الله المذكور وسافروا إليه من البلاد لعلو إسناده ، وكان جده مسعود قد قدم من منستير إلى بوسير ، فعرف هبة الله المذكور بالبوصيرى ، وكانت ولادته سنة ست وخسمائة .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخسمائة :

والملك العادل مقيم بدمشق .

وفيهـا : فى المحرم ، توفي فلك الدين سلطان ، أخو الملك العادل لأمه ، وهو الذى تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق .

ذكر الحوادث باليمن

كان قد تملك اليمن ، الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام بن طغتكين بن أيوب ، وكان فيه هوج وخبط ، فادعى أنه قرنى ، وأنه من بنى أمية ، ولبس الخضرة ، وخطب بنفسه ،

ولبس ثياب الخلافة في ذلك الزمان ، وكان طول الكم نحو عشرين شبراً ، وخرج عن طاعته جماعة من ممالك أبيه ، واقتتلوا معه ، وانتصر عليهم ، ثم اتفق معهم جماعة من الأمراء الأكراد ، وقتلوا المعز إسماعيل ، وأقاموا في مملكة اليمن أخاه صغيراً ، وسموه الناصر ، وبقي مدة ، وأقام بأتابكيته مملوك والده وهو سيف الدين سنقر ، ثم مات سنقر بعد أربع سنين وتزوج أم الناصر أمير من أمراء الدولة يقال له غازي بن جبريل ، وقام بأتابكية الناصر ، ثم سمى الناصر في كوز فقاع على ما قيل ، وبقي غازي متمكناً للبلاد ، ثم قتله جماعة من العرب بسبب قتله للناصر بن طغتكين ، وبقيت اليمن خالية بغير سلطان ، فتغلبت أم الناصر المذكور على زبيد ، وأحرزت عندها الأموال وكانت تنتظر وصول أحد من بني أيوب لتتزوج به وتملكه البلاد ، وكان للملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه سعد الدين شاهنشاه ، وكان له ابن اسمه سليمان ، فخرج سليمان بن شاهنشاه بن عمر فقيراً يحمل الرُّكوة على كتفه ، ويتنقل مع الفقراء من مكان إلى مكان ، وكان قد أرسلت أم الناصر بعض غلمانها إلى مكة حرسها الله تعالى في موسم الحج ليأتيها بأخبار مصر والشام ، فوجد غلمانها سليمان المذكور ، فأحضروه إلى اليمن ، فاستحضرت أم الناصر وخلعت عليه وملكته اليمن ، فملاً اليمن ظلاً وجوراً ، واطرح زوجته التي ملكته البلاد وأعرض عنها ، وكتب إلى السلطان الملك العادل وهو عم جده كتاباً جعل في أوله أنه من سليمان ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم فاستغل الملك العادل عقله ، ثم كان من سليمان المذكور ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة : أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف ، وأمره بحصار ماردین فحصرها وضايقها ، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل في الصلح ، فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردین مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ويخطب له ببلاده ، ويضرب السكة باسمه ، ويكون بخدمته متى طلبه ، فأجيب إلى ذلك واستقر الصلح عليه .

وفيها : أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام ، فسار بوالدته وإخوته ، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر .

وفيها : سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطاً للفرنجة وأقام بها ، وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بإنجاده فأنجده ، واجتمعت الفرنجة من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتقوا معه في ثالث شهر رمضان من هذه السنة ، واقتتلوا فانهزم الفرنجة وقتل وأسر من خيرتهم جماعة ، وكان يوماً مشهوداً ، وفي ذلك يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجاري قصيدة من جملتها :

مالذة العيش إلا صوت معمة ينال فيها المنى بالبيض والأسل
يا أيها الملك المنصور نصح فتي لم يلوه عن وفاء كثرة العذل

اعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك وجد فالملك محتاج إلى رجل
يا أوحده العصر ياخير الملوك ومن فاق البرية من حافٍ ومنتل

تم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار ، وانضم إليهم جموع من السواحل ، واتقوا
مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببيعرين في الحادى والعشرين من شهر رمضان من هذه
السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً ، فانتصر ثانياً ، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة ،
وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة ، ومدح الملك المنصور بسبب هذه الوقعة سالم بن
سعادة الحمصى بقصيدة منها :

أمر اللواحق أن تفوق أسهما ريم برامة مارناً حتى رمى
فتانة بالسحر بل فتاة ما جار قاضيهن حين تحكما
ومنها :

أصبحت فيها مفرماً كمحمد لما غدا بالأريحية مفرماً
ومنها :

وشننت منتقماً بساخر بحرهما جيتاً حكى البحر الخضم عرمرما
أسدلت في الآفاق من هبواته ليلاً وأطلعت الأسته أنجما

وفي هذه السنة : ولد الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور محمد صاحب حماة
من الملكة خاتون ، بنت السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وسمى عمر ، وإنما سمي
محموداً بعد ذلك ، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة .
وفي هذه السنة : أرسل الملك العادل وانتزع ما كان بيد الملك الأفضل ، وهى رأس عين
وسروج وقلعة نجم ، ولم يترك بيده غير سميساط فقط ، فأرسل الملك الأفضل والدته ،
فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ، ليرسل معها من يشفع فى الملك الأفضل عند الملك
العادل فى إبقاء ما كان بيده ، وتوجهت أم الملك الأفضل ، وتوجه معها من حماة القاضى زين
الدين بن الهندى إلى الملك العادل ، فلم يجيبها الملك العادل ورجعت خائبة .

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل : وقد عوقب البيت الصلاحى بمثل ما فعله والدهم
السلطان صلاح الدين ، لما خرجت إليه نساء بيت الأتابك ، ومن جملتهن بنت نور الدين
الشهيد يشفعن فى إبقاء الموصل على عز الدين مسعود فردهن ولم يجب إلى سؤالهن ، ثم ندم
رحمه الله تعالى على ردهن ، فجرى للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل
ذلك ، ولما جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط ، وقطع خطبة عمه الملك العادل ، وخطب
للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقى صاحب بلاد الروم .

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغورية

وفي هذه السنة : في جمادى الأولى ، توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام بن الحسين الغورى ، صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها ، وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازماً على قصد خوارزم ، وخلف غياث الدين من الولد ابناً اسمه محمود ، ولقب غياث الدين بلقب والده ، ولم يحسن شهاب الدين الخلافة على ابن أخيه ، ولا على غيره من أهله ، وكان لغياث الدين زوجة يحبها ، وكانت مغنية ، فقبض عليها شهاب الدين بعد موت أخيه غياث الدين ، وضربها ضرباً مبرحاً ، وأخذ أموالها ، وكان غياث الدين مظفراً منصوراً لم تنهزم له راية قط ، وكان له دهاء ومكر ، وكان حسن الاعتقاد كثير الصدقات ، وكان فيه فضل غزير وأدب ، مع حسن خط وبلاغة ، وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها في المدارس التي بناها ، وكان على مذهب الكرامية ، ثم تركه وصار سافعيّاً .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وكانت هي وجميع أذربيجان للأمير أبى بكر بن البهلوان ، وكان مسغولاً ليلاً ونهاراً بشرب الخمر ولا يلتفت إلى تدبير مملكته ، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت . وفيها : توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر ، وكانت كثيرة المعروف .

ثم دخلت سنة ستمائة : والملك العادل بدمشق .

وفيها : كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج .

وفيها : نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية ، فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ، ووصل إلى حارم ، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه .

وفيها : خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده ، وانتمى إليه ، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود ، وقصد نصيبين وهى لقطب الدين ، واستولى على مدينتها ، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن العادل ، فسار إليه ، واجتمع معه أخوه الملك الأوحى صاحب ميفارقين ،

والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشرة ، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة ، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس ، وكانت هذه الواقعة أول ما عرفت من سعادة الملك الأشرف بن العادل ، فإنه لم ينهزم له راية بعد ذلك ، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكى عليه ، ووقع الصلح بينهم في أول سنة إحدى وستمائة .

وفيها : اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس ، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل على الطور في قبالة الفرنج ، ودام ذلك إلى آخر السنة .

وفيها : استولت الفرنج على قسطنطينية ، وكانت قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان ، فلما كانت هذه السنة ، اجتمعت الفرنج وقصدتها في جموع عظيمة وحاصروها ، فملكوها وأزالوا يد الروم عنها ، ولم تزل بأيدي الفرنج إلى سنة ستين وستمائة ، فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج .

وفيها : توفي السلطان ركن الدين بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن يبغي أرسلان بن سلجوق سلطان بلاد الروم في سادس ذى القعدة حسبما قدمنا ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وكان مرضه بالقولنج ، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكوريه « وهى أنقرة » ، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ، ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم ، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان وكان صغيراً ، فلم يستتب أمره وكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : كان بين خوارزم شاه محمد بن تكش ، وبين شهاب الدين ملك الغورية قتال ، انتصر فيه ملك الغورية ، واستنجد خوارزم شاه بالخطا فساروا واتقوا مع شهاب الدين ملك الغورية فهزموه ، وشاع ببلاده أن شهاب الدين قتل ، فاختلفت مملكته ، وكثر المفسدون ثم إنه ظهر ووصل إلى غزنة ، واستقر في ملكه ، وتراجعت الأمور إلى ما كانت عليه .

وفيها : قتل كلجا مملوك البهلوان ، وكان قد ملك الرى وهدان وبلاد الجبل ، قتل خسداسة أيدغمش مملوك البهلوان وتملك موضعه ، وأقام أيدغمش ابن أستاذه أزيك بن البهلوان في الملك ، وليس لأزيك غير الاسم والحكم لأيدغمش .

وفيها : استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميرى على ظفار ومرباط وغيرها من حضر موت .

وفيها : خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوا خمسة أيام .

وفيها : كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس والعراق وغيرها وخربت سور مدينة صور .

ثم دخلت سنة إحدى وستمئة :

في هذه السنة : كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج ، وسلم إلى الفرنج يافا ، ونزل عن مناصفات لدّ والرملة ، ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستوراً ، وسار العادل إلى مصر ، وأقام بدار الوزارة .

وفيها : أغارت الفرنج على حماة ، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا ، وامتلات أيديهم من المكاسب ، وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن البلاعي ، وكان فقيهاً شجاعاً ، تولى برحمة مرة وسلمية أخرى ، وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك ، ووصل إلى أهله بحماة سالماً ، ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج .

وفيها : بعد الهدنة ، توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر ، وكان عنده استتعار من السلطان الملك العادل ، فلما وصل إليه بالقاهرة ، أحسن إليه إحساناً كثيراً ، وأقام في خدمته شهوراً ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وعاد إلى حماة .

وفيها : ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بلاد الروم ، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على البلاد ، هرب كيخسرو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب ، ثم تركه وسار إلى قسطنطينية ، فأحسن إليه صاحبها ، وأقام بالقسطنطينية إلى أن مات أخوه ركن الدين سليمان ، وتولى ابنه قليج أرسلان ، فسار كيخسرو من قسطنطينية ، وأزال أمر ابن أخيه ، وملك بلاد الروم ، واستقر أمره .

وفيها : كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسيني أمير مكة ، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة ، وكانت الحرب بينهما سجلاً .

ثم دخلت سنة اثنتين وستمئة :

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها .

ذكر قتل ملك الغورية شهاب الدين

في هذه السنة : أول ليلة من شعبان ، قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين الغوري ملك غزنة وبعض خراسان ، بعد عوده من لهاور ، بمنزل يقال له دمبل ، قبل

صلاة العشاء ، وثب عليه جماعة وهو بخركاته ، وقد تفرق الناس عنه لأماكنهم فقتلوه بالسكاكين ، قيل إنهم من الكوكير : وهم طائفة من أهل الجبال مفسدون ، كان شهاب الدين قد فتك فيهم ، وقيل إنهم من الإسماعيلية ، فإن شهاب الدين أيضاً كان كثير الفتك فيهم ، واجتمع حرس شهاب الدين ، فقتلوا أولئك الذين قتلوا شهاب الدين عن آخرهم .

وكان شهاب الدين شجاعاً ، كثير الغزو ، عادلاً في الرعية ، وكان الإمام فخر الدين الرازى يعظه في داره ، فحضر يوماً وعظه وقال في آخر كلامه : يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبس الرازى ، فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس ، ولما قتل شهاب الدين ، كان صاحب باميان بهاء الدين سام بن شمس الدين محمد بن مسعود ، عم غياث الدين وشهاب الدين المذكور ، فسار بهاء الدين سام ليطمئنك غزنة ، ومعه ولداه علاء الدين محمد وجلال الدين ابنا سام بن محمد بن مسعود بن الحسيني ، فأدركت بهاء الدين سام الوفاة قبل أن يصل إلى غزنة ، وعهد بالملك إلى ابنه علاء الدين محمد ، فأتى علاء الدين وأخوه جلال الدين السير إلى غزنة ودخلاها ، وتملكها علاء الدين .

وكان لغياث الدين ملك الغورية مملوك يقال له تاج الدين يلدز ، وكانت كرمان إقطاعاً ، وهو كبير في الدولة ومرجع الأتراك إليه ، فسار يلدز إلى غزنة وهزم عنها علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام وأخاه جلال الدين ، واستولى يلدز على غزنة ، ثم إن علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام سارا إلى باميان وجمعا العساكر وعادا إلى غزنة ، فقاتلها يلدز فانتصرا عليه ، وانهزم يلدز إلى كرمان ، واستقر علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام ومعه بعض العسكر في ملك غزنة ، وعاد أخوه جلال الدين في باقي العسكر إلى باميان .

ثم إن يلدز لما بلغه مسير جلال الدين في باقي العسكر إلى باميان ، وتأخر علاء الدين بغزنة ، جمع العساكر من كرمان وغيرها وسار إلى غزنة ، وبلغ علاء الدين محمد بن بهاء الدين سام ذلك ، فأرسل إلى أخيه جلال الدين وهو بباميان يستنجد به ، وسار يلدز وحصر علاء الدين بغزنة ، وسار جلال الدين فلما قارب غزنة رحل يلدز إلى طريقه واقتتلا ، فانهزم عسكر جلال الدين وأخذه يلدز أسيراً ، فأكرمه يلدز واحترمه ، وعاد إلى غزنة فحصر علاء الدين بها ، وكان عنده بغزنة هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش ، فاستنزلها يلدز بالأمان ثم قبض على علاء الدين وعلى هندوخان وتسلم غزنة .

وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية ، فإنه لما قتل عمه شهاب الدين كان ببست ، فسار إلى فيروز كوه وتملكها ، وجلس في دست أبيه غياث الدين ، وتلقب بألقابه ، وفرح به أهل فيروزكوه ، وسلك طريقة أبيه في الإحسان والعدل ، ولما استقل يلدز

بغزنة ، وأسر جلال الدين وعلاء الدين ابني سام ، كتب إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام بن الحسين بالفتح ، وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : توفي الأمير مجير الدين طاستكين أمير الحج ، وكان قد ولّاه الخليفة على جميع خورستان ، وكان خيراً صالحاً ، وكان يتشيع .
وفيهما : تزوج أبو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج ، وذلك لاستغاله بالشرب عن تدبير المملكة ، فعدل إلى المصاهرة والهدنة ، فكف الكرج عنه .

ثم دخلت سنة ثلاث وستمئة :

في هذه السنة : سار الملك العادل من مصر إلى الشام ، ونازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ، ثم وصل إلى دمشق ، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس ، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة ، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان ، ثم سار ونازل حصن الأكراد ، وفتح برج أعناز ، وأخذ منه سلاحاً ومالاً وخمسمائة رجل ، ثم سار ونازل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها ، ثم عاد في أواخر ذي الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : أرسل غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية يستميل يلدز مملوك أبيه ، المستولى على غزنة فلم يجبه يلدز إلى ذلك ، وطلب يلدز من غياث الدين أن يعتقه ، فأحضر الشهود وأعتقه ، وأرسل مع عتاقه هدية عظيمة ، وكذلك أعتق أبيك المستولى على بلاد الهندس ، وأرسل نحو ذلك ، فقبل كل منها ذلك ، وخطب له أبيك ببلاد الهند التي تحت يده ، وأما يلدز فلم يخطب له ، وخرج بعض العساكر عن طاعة يلدز لعدم طاعته لغياث الدين .

وفيهما : في ثالث شعبان ، ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية باللام ، وهي مدينة للروم على ساحل البحر .

وفيها : قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر ، وكان أتابك قتلغ مملوك شاهر من ، فقبض عليه ابن بكتمر ، فثارت عليه أرباب الدولة وقبضوه وملكوا بلبان مملوك شاهر من بن سفيان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة :

والملك العادل نازل على بحيرة قدس ، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس ، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها .

ذكر استيلاء الملك الأوحـد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

في هذه السنة : ملك الملك الأوحـد أيوب ابن الملك العادل خلاط ، وكان صاحب خلاط بلبان حسبما قدمنا ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فسار الملك الأوحـد من ميفارقين ، وملك مدينة موش ، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط ، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي ، فسار طغريل شاه ، واجتمع به بلبان ، فهزما الملك الأوحـد ثم غدر طغريل شاه بلبان ، فقتله غدراً ليملك بلاده ، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه ، وقصد مَنَّا زَكْرَد^(١) فلم تسلم إليه ، فرجع طغريل شاه إلى بلاده ، فكتب أهل خلاط الملك الأوحـد فسار إليهم ، وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها ، واستقر ملكه بها .

وفي هذه السنة : لما استقر الملك العادل بدمشق ، وصل إليه التشریف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي ، فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ ، والتقاء إلى القصير ، ووصل من صاحبي حلب وحماة ذهب ، لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة ، فلبسها الملك العادل ، ونثر ذلك الذهب ، وكان يوماً مشهوداً .

والخلعة : جبة أطلس أسود بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب ، وطوق ذهب مجوهر ، تطوق به الملك العادل ، وسيف جميع قرابه ملبس ذهباً تقلد به ، وحصان أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ، ثم خلع رسول الخليفة

(١) مَنَّا زَكْرَد : هكذا ينطقها أهلها مَنَّا زَكْرَد بالكاف ، مع أن المشهور في اللعاجم أنها اسمها مَنَّا زَجْرَد ، بعد الألف زاي ثم جيم مكسورة وراء ساكنة ودال . انظر : معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٥ ص ٢٠٢ .

على كل واحد من الملك الأشرف ، والملك المعظم ابني الملك العادل عمامة سوداء وثوباً أسود واسع الكم ، وكذلك على الوزير صفى الدين بن شكر .

وركب الملك العادل وولده ووزيره بالخلع ودخل القلعة ، وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه ، وخطب الملك العادل فيه « ساهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين » ، ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر ، فخلع على الملك الكامل بها ، وجرى فيها نظير ما جرى في دمشق من الاحتفال ، ثم عاد السهروردي إلى بغداد مكرماً معظماً .
وفي هذه السنة : اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق ، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها .

ذكر قتل خوارزم شاه مع الخطا بما وراء النهر

في هذه السنة : كاتبت ملوك ما وراء النهر مثل ملك سمرقند وملك بخارى خوارزم شاه ، يشكون ما يلقيه من الخطا ، ويبدلون له الطاعة والخطبة والسكة ببلادهم إن دفع الخطا عنهم ، فعبر علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش نهر جيحون ، واقتتل مع الخطا ، وكان بينهم عدة وقائع ، والحرب بينهم سجال ، واتفق في بعض الوقعات أن عسكر خوارزم شاه انهزم ، وأخذ خوارزم شاه محمد أسيراً ، وأسر معه شخص من أصحابه يقال له فلان ابن شهاب الدين مسعود ، ولم يعرفها الخطا الذي أسرها ، فقال ابن مسعود لخوارزم شاه : دع عنك المملكة وادع أنك غلامى واخدمنى لعلّى أحتال في خلاصك ، فشرع خوارزم شاه يخدم ابن مسعود ويقلعه قماشه وخفه ويلبسه ويخدمه ، فسأل الخطا ابن مسعود : مَنْ أنت ؟ قال : أنا فلان ، فقال له الخطا : لولا أخاف من الخطا أطلقتك ، فقال له ابن مسعود إني أخشى أن ينقطع خبرى عن أهلى فلا يعلمون بحياتى ، وأشتهى أن أعلمهم بحالى لئلا يظنوا موتى ، ويتقاسموا مالى ، فأجابه الخطا إلى ذلك ، فقال ابن مسعود أشتهى أن أبعث بغلامى هذا مع رسولك ليصدقوه ، فأجابه إلى ذلك ، وراح خوارزم شاه مع ذلك الشخص ، حتى قرب من خوارزم ، فرجع الخطا واستقر خوارزم شاه في ملكه ، وتراجع إليه عسكره .

وكان لخوارزم شاه أخ يقال له على شاه بن تكش ، وكان نائب أخيه بخراسان ، فلما بلغه عدم أخيه في الواقعة مع الخطا دعا إلى نفسه بالسلطنة ، واختلفت الناس بخراسان ، وجرى فيها فتن كثيرة ، فلما عاد خوارزم شاه محمد إلى ملكه ، خاف أخوه على شاه ، فسار إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية ، فأكرمه غياث الدين محمود ، وأقام على شاه عنده بغير وزكوه .

ذكر قتل غياث الدين محمود وعلى شاه

ولما استقر خوارزم شاه في ملكه ، وبلغه ما فعله أخوه على شاه ، أرسل عسكرياً إلى قتال غياث الدين محمود الغوري ، فسار العسكر إلى فيروزكوه مع مقدم يقال له أمير ملك ، فسار إلى فيروزكوه ، وبلغ ذلك محموداً ، فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان ، فأعطاه أمير ملك الأمان ، فخرج غياث الدين محمود من فيروزكوه ومعه على شاه ، فقبض عليها أمير ملك ، وأرسل يعلم خوارزم شاه بالحال ، فأمره بقتلها فقتلها في يوم واحد ، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش ، وذلك في سنة خمس وستمئة ، وهذا غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام بن الحسين هو آخر الملوك الغورية ، وكانت دولتهم من أحسن الدول ، وكان محمود هذا كريماً عادلاً رحمة الله عليه .

ثم إن خوارزم شاه محمداً - لما خلا سره من جهة خراسان ، عبر النهر وسار إلى الخطا ، وكان وراء الخطا في حدود الصين التتر ، وكان ملكهم حينئذ يقال له كشلي خان ، وكان بينه وبين الخطا عداوة مستحكمة ، فأرسل كل من كشلي خان ومن الخطا يسأل خوارزم شاه أن يكون معه على خصمه ، فأجابها خوارزم شاه بالمغالطة وانتظر ما يكون بينها ، فاتقع كشلي خان والخطا ، فانهزمت الخطا ، فمال عليهم خوارزم شاه وفتك فيهم ، وكذلك فعل كشلي خان بهم ، فانقرضت الخطا ، ولم يبق منهم إلا من اعتصم بالجبال ، أو استسلم وصار في عسكر خوارزم شاه .

ثم دخلت سنة خمس وستمئة :

والملك العادل بدمشق ، وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم .

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجهاً إلى بلاده الشرقية

في هذه السنة : توجه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل من دمشق راجعاً إلى بلاده الشرقية ، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر ، وأنزله بالقلعة وبالع في

إكرامه ، وفام للأشرف ولجميع عسكره بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات ، وكان يحمل إليه في كل يوم خلعة كاملة وهي غلالة وقبَاء وسراويل وكمة وفروة وسيف وحصان ومنطقة ومنديل وسكين ودلكس ، وخمس خلع لأصحابه ، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يوماً ، وقدم له مقدمة وهي مائة ألف درهم ومائة بقجة مع مائة مملوك ، فمنها عشر بقج في كل واحدة منها ثلاثة أنواب أطلس وتوبان خطاي ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها عشر في كل واحدة منها عشرة أنواب عتابي خوارزمي ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها عشر في كل واحدة خمسة أنواب عتابي بغدادى وموصلى ، وعليها عشرة جلود قندس صغار ومنها عشرون في كل واحدة خمس قطع مرسوسى وديبقي ، ومنها أربعون في كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام .

وحمل إليه خمس حصن عربية بعدتها ، وعشرين أكديتاً ، وأربعة قطر بغال ، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة ، وقطارين من الجمال ، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديس ، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده .

وفي هذه السنة : أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حيلان إلى حلب ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة ، وبقي البلد يجرى الماء فيه .

وفي هذه السنة : وصل غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم إلى مرعش لقصد بلاد ابن لاوون الأرمني ، وأرسل إليه الملك الظاهر نجدة ، فدخل كيخسرو إلى بلاد ابن لاوون ، وعات فيها ونهب وفتح حصناً يعرف بفرقوس .

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

في هذه السنة : قتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين بن زنكى بن أقسنقر ، صاحب جزيرة ابن عمر ، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة ست وسبعين وخمسائة ، قتله ابنه غازى ، وكان سنجرشاه ظالماً ، قبيح السيرة جداً ، لا يمتنع عن قبيح يفعله من القتل وقطع الألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى ، وتعدى ظلمه إلى أولاده وحريره ، فبعث ابنه محموداً ومودوداً إلى قلعة فحبسها فيها ، وحبس ابنه المذكور غازى في دار في المدينة وضيق عليه ، وكان بتلك الدار هوام كثيرة ، فاصطاد غازى المذكور منها حية وأرسلها إلى أبيه في منديل لعله يرق عليه ، فلم يزد ذلك إلا قسوة ، فأعمل غازى الحيلة حتى هرب ، وكان له واحد يخدمه ، فقرر معه أن يسافر ويظهر أنه غازى بن معز الدين سنجرشاه ليأمنه أبوه ، فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطى شيئاً وسافر منها ، واتصل ذلك بسنجرشاه

فاطمأن ، وتوصل ابنه غازى حتى دخل إلى دار أبيه ، واختفى عند بعض سرارى أبيه ، وعلم به جماعة منهم ، وكنتموا ذلك على سنجرشاه لبغضهم فيه ، واتفق أن سنجرشاه شرب يوماً بظاهر البلد وشرع يقترح على المقنين الأشعار الفراقية وهو يبكى ، ودخل داره سكران إلى عند الحظية التي ابنه محباً عندها ، ثم قام معز الدين سنجرشاه ودخل الخلاء ، فهجم عليه ابنه غازى فضربه أربع عشرة ضربة بالسكين ، ثم ذبحه وتركه ملقى ، ودخل غازى الحمام ، وقعد يلعب مع الجوارى ، فلو أحضر الجند واستحلفهم فى ذلك الوقت لتم له الأمر وملك البلاد ، ولكنه تنكر واطمأن ، فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار ، فجمع الناس وهجم على غازى وقتله : وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجرشاه ، ولقب معز الدين بلقب أبيه ووصل معز الدين محمود بن سنجرشاه بن زنكى ، واستقر ملكه بالجزيرة ، وقبض على جوارى أبيه فغرقهن فى دجلة ، ثم قبض بعد ذلك أخاه مودوداً .

ثم دخلت سنة ست وستمائة :

فى هذه السنة : سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات ، وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران ، ووصل إليه بها الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، وسار الملك العادل من حران ، ونازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى فحاصرها ، وطال الأمر فى ذلك ، ثم خامرت العساكر التى صحبة الملك العادل ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه ، فرحل عن سنجار وعاد إلى حران ، واستولى الملك العادل على نصيبين ، وكانت لقطب الدين محمد المذكور ، وكذلك استولى على الحابور .

وفى هذه السنة : توفى الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين .

وفىها : توفى الإمام فخر الدين محمد بن عمر خطيب الرى بن الحسين بن الحسن بن على التميمى البكرى ، الطبرستانى الأصل ، الرازى المولد ، الفقيه الشافعى ، صاحب التصانيف المشهورة ، قال ابن الأثير : وبلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكان فخر الدين المذكور مع فضائله يعظ ، وله فيه اليد الطولى ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى ، ويلحقه فى الوعظ الوجد والبكاء ، وكان أوحده زمانه فى المعقولات والأصول ، واشتغل فى أول زمانه على والده ، ثم قصد الكمال السمعانى واشتغل عليه ، ثم عاد إلى الرى واشتغل على المجد الجبلى ، وسافر إلى خوارزم وما وراء النهر ، وجرى له بغير وركوه ما تقدم ذكره ، وأخرج منها بسبب الكرامية ، واتصل بشهاب الدين الفورى صاحب غزنة ، وحصل له منه مال طائل ، ثم عاد فخر الدين إلى خراسان ، واتصل بالسلطان خوارزم شاه محمد بن تكش وحظى عنده ، ولفخر الدين نظم حسن فمته :

نهاية أقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكانت العلماء يقصدونه من البلاد ، وتشدّ إليه الرحال ، وقصده ابن عنين الشاعر ومدحه
بقصائد .

وفيها : في سلخ ذى الحجة ، توفي مجد الدين بن السعادات المبارك بن محمد بن
عبد الكريم ومولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، المعروف بابن الأثير ، أخو عز الدين علي
المؤرخ مؤلف الكامل في التاريخ ، وكان مجد الدين المذكور عالماً بالفقه والأصولين والنحو
والحديث واللغة ، وله تصانيف مشهورة ، وكان كاتباً مفلحاً .
وفيها : توفي المجد المطرز النحوي الخوارزمي ، وكان إماماً في النحو ، وله فيه تصانيف
حسنة .

ثم دخلت سنة سبع وستمئة :

فيها : عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق .
وفيها : قصدت الكرج خلاط ، وحصروا الملك الأوحده ابن الملك العادل بها ، واتفق أن
ملك الكرج شرب وسكر ، فحسن له السكر أنه تقدم إلى خلاط في عشرين فارساً ، فخرجت
إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيراً ، وحمل إلى الملك الأوحده ، فردّ على الملك الأوحده عدة
قلاع ، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار ، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة ،
وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحده ، فتسلم ذلك منه وأقام وتحالفا وأطلق .

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

في هذه السنة : توفي نور الدين أرسلان شاه عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين
زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل في آخر رجب ، وكان مرضه قد طال ، وملك الموصل سبع
عشرة سنة ، وأحد عشر شهراً ، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيّارة ليستحم بها ، وعاد
إلى الموصل في سيارة ، فتوفي في الطريق ليلاً ، وكان أسمر حسن الوجه ، قد أسرع إليه
الشيب ، وكان شديد الهيبة على أصحابه ، وكان عنده قلة صبر في أموره .

واستقر في ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ، وكان عمر القاهر عشر سنين ، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو ، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره ، وهذا لولو هو الذي ملك الموصل على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكى ملكه أبوه قلعتى العقر وشوش ، وهما بالقرب من الموصل .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة ، ويلبسوا له سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه في رمى البندق ، ويجعلوه قدوتهم . وفيها : سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق ومقامه إلى الديار المصرية ، وأقام بدار الوزارة .

وفيها : توفى فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم .

ذكر وفاة الملك الأوحـد صاحب خلاط

في هذه السنة : توفى الملك الأوحـد ايوب ابن الملك العادل . فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط واستقل بملكها مضافاً إلى ما بيده من البلاد الشرقية ، فعظم شأنه ولقب شاهراً من .

وفي هذه السنة : قتل غياث الدين كَيْخَسْرُو صاحب بلاد الروم ، قتله ملك الأشكرى وملك بعده ابنه كَيْكَاوُس بن كَيْخَسْرُو بن قليج أرسلان حسباً تقدم ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة :

في هذه السنة : قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين أسامة صاحب قلعتى كوكب وعجلون بأمر أبيه الملك العادل ، وحبسه في الكرك إلى أن مات بها ، وحاصر القلعتين المذكورتين وتسلمهما من غلمان أسامة ، وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية

أثرها ، فخربت وبقيت خراباً وأبقى عجلون ، وانقرضت الصلاحية بهذا أسامة ، وملك الملك المعظم بلاد جهار كس وهي يانياس وما معها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن الملك العادل ، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمى .

وفي هذه السنة : عاد الملك العادل إلى الشام ، وأعطى ولده الملك المظفر غازى الرها مع منافارقين .

وفيهما : أرسل الملك الظاهر القاضى بهاء الدين بن سداد إلى الملك العادل فاستعطف خاطره ، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل فزوجها من الملك الظاهر ، وزال ما كان بينهما من الإحن .

وفيهما : أظهر الكيا جلال الدين حسن صاحب الأملوت ، وهو من ولد ابن الصباح شعائر الإسلام ، وكتب به إلى جميع قلاع الإسماعيلية بالعجم والشام ، فأقيمت فيها شعائر الإسلام . وفيها : توفى أبو حامد محمد بن يونس بن منعة^(١) الفقيه الشافعى بمدينة الموصل ، وكان إماماً فاضلاً ، وكان حسن الأخلاق .

وفيهما : توفى القاضى السعيد المعروف بابن سنا الملك ، وهو هبة الله بن جعفر بن سنا الملك السعدى ، الشاعر المشهور المصرى ، أحد الفضلاء الرؤساء ، صاحب النظم الفائق ، وكان كثير التنعم ، وافر السعادة ، محظوظاً من الدنيا ، مدح توران شاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

تقنعت لكن بالحبيب المعجم وفارقتُ لكن كل عيش مذمم
فهجّنت بعض الفضلاء هذا المطلع وعابوه .
ومن شعره أيضاً :

لا الحسن يحكيك ولا الجودز حسنك مما كثروا أكثر
يا ياسماً أهدى لنا ثغره عقداً ولكن كله جواهر
قال لى اللاحى أما تستمع فقلت للاحى أما تبصر

ثم دخلت سنة تسع وستمئة :

فى هذه السنة : فى المحرم ، عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل ، وكان المهر خمسين ألف دينار ، وتوجهت من دمشق فى المحرم إلى حلب ، فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها ، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة .

(١) أما فى « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير ج ١٢ (مئة) .

وفيهما : عمر الملك العادل قلعة الطور ، وجمع لها الصنائع من البلاد والعسكر حتى تمت
وفي هذه السنة : سار طغريل شاه بن قليج أرسلان ، صاحب أرزن الروم وحاصر ابن
أخيه سلطان الروم كئي كائوس بسيواس ، فاستنجد كئي كائوس بالأشرف ابن العادل ، فخاف
عمه طغريل ورحل عنه ، وكان لكئي كائوس أخ اسمه كئي قباد ، فلما جرى ما ذكرناه ،
سار كئي قباد واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كئي كائوس ، فسار كئي كائوس وحصره ، وفتح
أنكورية ، وقبض على أمرائه ، وحلق لحاهم ورؤوسهم وأركب كل واحد منهم فرساً ، وأركب
فداهم وخلفه قحبتين ، وبید كل منها معلاق تصفعه به ، وبين يدي كل واحد منهم مناد ينادي :
هذا جزاء من خانوا سلطانهم .

ثم دخلت سنة عشر وستمائة :

في هذه السنة : ظفر عز الدين كئي كائوس بن كئيخسرو ، صاحب بلاد الروم بعمه طغريل
سياه ، فأخذ بلاده وقتله ، وذبح أكر زملائه ، وقصد قتل أخيه علاء الدين كئي قباد ، فشفع
فيه بعض أصحابه فعفا عنه .

وفيهما : في رمضان ، توفي بحلب فارس الدين ميمون القصري ، وهو آخر من بقي من
كبراء الأمراء الصلاحية ، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر ، كان قد أخذ السلطان
صلاح الدين من هناك .

وفيهما : ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث
الدين محمد .

وفي هذه السنة : قتل أيدغمش مملوك البهلوان ، وكان قد غلب على المملكة وهي همدان
والجبال ، قتله خشداس له من البهلوانية اسمه منكلي ، وكان أيدغمش قد هرب منه ، والتجأ
إلى الخليفة في سنة ثمان وستمائة ، ورجع أيدغمش في هذه السنة إلى جهة همدان فقتل ،
واستقل منكلي بالملك .

وفي هذه السنة : في شعبان ، توفي ملك المغرب محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف
ابن عبد المؤمن ، وكانت مدة مملكته نحو ست عشرة سنة ، وكان أشقر أسبل الخد دائم
الإطراق ، كثير الصمت للثقة كانت في لسانه ، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة خمس وتسعين
 وخمسمائة ، ولما مات محمد الناصر المذكور ، ملك بعده ولده يوسف ، وتلقب بالمستنصر أمير
المؤمنين بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكنيته أبو يعقوب .

وفيهما : وقيل في السنة التي قبلها ، توفي علي بن محمد بن علي المعروف بابن خروف ،
النحوي الأندلسي الأشبيلي ، شرح كتاب سيبويه شرحاً جيداً ، وشرح الجمل للزجاجي .

وفيها : توفي عيسى بن عبد العزيز الجُزُولي براكش ، وكان إماماً في النحو ، صنف مقدمته الجُزُولية وسماها القانون ، أتى فيها بالعجائب ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء ، وأكثر النحاة يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها ، فإنها كلها رموز وإشارات .

قدم الجُزُولي المذكور إلى ديار مصر على ابن برى النحوى ، ثم عاد إلى المغرب - والجُزُولي بضم الجيم ، منسوب إلى جُزولة ، وهى بطن من البربر ، ويقال لها كُزولة أيضاً ، وسرح مقدمته في مجلد كبير ، أتى فيه بغرائب وفوائد .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة :

في هذه السنة : توفي دلدرد بن ياروق صاحب تل باشر ، وولى تل باشر بعده ابنه فتح الدين .

وفيها : توفي الشيخ على بن أبى بكر الهروى ، وله التربة المعروفة شمالى حلب ، وكان عارفاً بأنواع الحيل والشعبذة والسيماوية ، تقدم عند الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وله أشعار كثيرة ، وتغرب في البلاد ، ودار غالب المعمور .

وفيها : أسرت التركمان ملك الأشكرى ، وهو قاتل غياث الدين كى خسرو ، فحمل إلى ابنه كى كاوس بن كى خسرو ، فأراد قتله ، فبذل له فى نفسه أموالاً عظيمة وسلم إلى كى كاوس قلاعاً وبلاداً لم يملكها المسلمون قط .

وفيها : عاد الملك العادل من السام إلى مصر .

وفيها : توفي الدكز" عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيللى ببغداد ، ولى عدة ولايات ، وكان يُتهم بمذهب الفلاسفة ، اعتقل قبل موته ، وأظهرت كتبه وفيها الكفرينات ، مثل مخاطبة زُحل وغيره بالإلهية وأُحرقت ، ثم شفع فيه أبوه فأفرج عنه وعاد إلى أعماله .

وفيها : توفي فى شوال عبد العزيز بن محمود بن الأخضر ، وله سبع وثمانون سنة ، وهو من فضلاء المحدثين .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمئة :

ذكر استيلاء الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن

قد تقدم ذكر استيلاء سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في سنة تسع وتسعين وخمسائة على اليمن ، وأنه ملأها ظلمًا وجورًا ، وأنه أطرَح زوجته التي ملكته ، فلما جاءت هذه السنة ، بعث الملك الكامل ابن الملك العادل ابنه الملك المسعود يوسف المعروف بأقسيِس إلى اليمن ومعه جيش ، فاستولى الملك المسعود على اليمن ، وظفر بسليمان المذكور صاحب اليمن ، وبعث به معتقلًا إلى مصر ، فأجرى له الملك الكامل ما يقوم به ، ولم يزل سليمان المذكور مقيمًا بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمئة ، فخرج إلى المنصورة غازيًا فقتل شهيدًا .

وفي هذه السنة : توفي الأمير على ابن الإمام الناصر ، وَوَجِدَ عليه الخليفة وَجْدًا عظيمًا ، وأكثر التسعراء من المراثى فيه .

وفي هذه السنة : تجمعت العساكر من بغداد وغيرها ، وقصدوا مَنِكِلِي صاحب هَمْدَانَ وأصفهان والرَّيِّ وما بينهما من البلاد ، فانهزم وقتل في ساوة ، وتولى موضعه أغلمش أحد المماليك البهلوانية أيضًا .

وفيهما : في شعبان ، ملك خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها ، وأخذها من يلدز مملوك شهاب الدين الغورى ، فهرب يلدز إلى هاوور من الهند واستولى عليها ، ثم سار يلدز عن هاوور واستولى على بعض بلاد الهند الداخلة تحت حكم قطب الدين أيبك خشداش يلدز المذكور ، فجرى بينه وبين عسكر قطب الدين أيبك مصاف فقتل فيه يلدز ، وكان يلدز حسن السيرة في الرعية كثير الإحسان إليهم .

وفيهما : توفي الوجيه المبارك ابن أبى الأزهر سعيد بن الدهان النحوى الضرير ، وكان فاضلاً ، قرأ على ابن الأنبارى وغيره ، وكان حنبلياً فصار حنفيّاً ثم صار شافعيّاً فقال فيه أبو البركات زيد التكريتى :

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة وإن كان لا تُجدى إليه الرسائلُ

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وما اخترت رأي السافعي . تدبنا
وعمًا قليل أنت لا شك صائر
وفارقتك إذ أعوزتك المأكلي
ولكننا تهوى الذي هو حاصل
إلى مالك فافطن بما أنا قائل

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمئة :

ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب حلب

ولما كانت صبيحة يوم السبت ، وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة ، ابتداء بالملك الظاهر والمذكور حمى حادة ، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر ، وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز ، ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازي ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين ، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك ، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم ، وأعذق به جميع أمور الدولة ، وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظاهر خضر المعروف بالمستمر كفر سودا^(١) ، وأخرج من حلب في ليلته بالتوكيل ، وأخرج علم الدين قيصر مملوك الملك الظاهر إلى حارم نائباً .

وفي خامس عشر جمادى الآخرة ، اشتد مرض الملك الظاهر ، ومنع الناس الدخول إليه ، وتوفي في ليلة الثلاثاء لعشرين من جمادى الآخرة ، وكان مولده بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فكان عمره أربعاً وأربعين سنة وشهوراً ، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ، ثم أقصر عنه ، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحى ، وكان ذكياً فطناً ، وترتب الملك العزيز في المملكة ، ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم ، فدبر الأمور وأحسن السياسة ، وكان عمر الملك العزيز لما قرر في المملكة سنتين وأشهرًا ، وعمر أخيه الملك الصالح نحو اثنتي عشرة سنة .

(١) أما صاحب معجم البلدان فذكر أن اسمها كفر سوت ، يضم السين ثم واو ، وآخره تاء مثناة ، ثم قال : وهى من أعمال حلب الآن ، انظر معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٤٦٩ ط دار صادر بيروت .

وفي هذه السنة : توفي تاج الدين زيد بن الحسين بن زيد الكندي ، وكان إماماً في النحو واللغة ، وله الإسناد العالي في الحديث ، وكان ذا فنون كثيرة في أنواع العلم ، وهو بغدادى المولد والمنشأ ، وانتقل وأقام بدمشق .

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمئة :

والسلطان الملك العادل بالديار المصرية ، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر ، ووصلوا إلى عكا في جمع عظيم ، ولما بلغ الملك العادل ذلك ، خرج بعساكر مصر ، وسار حتى نزل نابلس ، فسارت الفرنج إليه ، ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عَقْبَةِ أَفَيْق ، فأغاروا على بلاد المسلمين ، ووصلت غارتهم إلى نوى من بلد السواد ، ونهبوا ما بين بيسان ونابلس ، وبنو سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر ، وعادوا إلى مرج عكا ، وكان وقت هذا النهب ما بين منتصف رمضان وعيد الفطر من هذه السنة ، وأقام الملك العادل بمرج الصفر ، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور ، وهو الذى بناه الملك العادل على ما تقدم ذكره ، ثم رحلوا عنه ، وانقضت السنة والفرنج بجموعهم في عكا .

ذكر غير ذلك

في هذه السنة : سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد الجبل وغيرها فملكها ، فمناها ساوة وقزوين وزنجان وأبهر وهمدان وأصفهان وقم وقاشان ، ودخل أذربك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران في طاعة خوارزم شاه ، وخطب له بيلاده تم عزم خوارزم شاه على المسير إلى بغداد للاستيلاء عليها ، وقدم بعض العسكر بين يديه ، وسار خوارزم شاه في أنهرهم عن همدان يومين أو ثلاثة ، فسقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله ، فهلك دوابهم ، وخاف من حركة التتر على بلاده ، فولى على البلاد التى استولى عليها ، وعاد إلى خراسان ، وقطع خطبة الخليفة الإمام الناصر من بلاد خراسان في سنة خمس عشرة وستمئة ، وكذلك قطعت خطبة الخليفة من بلاد ما وراء النهر ، وبقيت خوارزم وسمرقند وهراة لم يقطع الخطبة منها ، فإن أهل هذه البلاد كانوا لا يلتزمون بمثل هذا ، بل يخطبون لمن يختارون ويفعلون نحو ذلك .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة :

والملك العادل بمرج الصفر ، وجموع الفرنج بمرج عكا ، ثم ساروا منها إلى الديار المصرية ونزلوا على دمياط ، وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر ، ونزل قبالتهم ، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر ، وأرسل الملك العادل العساكر التي عنده إلى ابنه الملك الكامل ، فوصلت إليه أولا فأولا ، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل ، أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط .

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل

في هذه السنة : توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود ابن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب الموصل ، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول ، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر ، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكى ، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه ، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين ، فأوصى بالملك له ، وأن يقوم بتدبير مملكته بدر الدين لولو ، فنصبه بدر الدين لولو في المملكة ، وجعل الخطبة والسكة باسمه ، وقام لولو بتدبير المملكة أحسن قيام .

ذكر قصد كيكاؤس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حلب

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب ، وأجلس ابنه العزيز في المملكة وكان طفلاً ، طمع صاحب بلاد الروم كيكاؤس في الاستيلاء على حلب ، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سُمَيْسَاط ، واتفق معه كيكاؤس أن يفتح حلب وبلادها ويسلمها للملك الأفضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاؤس ، وتحالفا على ذلك .

وسار كيكائوس إلى جهة حلب ، ومعه الملك الأفضل ، ووصلا إلى رَعْبَان ، واستولى عليها كيكائوس وسلمها إلى الملك الأفضل ، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار إلى تل باشرو بها ابن دلدرم ففتحها ولم يسلمها إلى الملك الأفضل ، وأخذها كيكائوس لنفسه ، فنفر خاطر الملك الأفضل ، وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك .

ووصل الملك الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكائوس عن البلاد ، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثة أمير العرب في جمع عظيم ، وكان قد سار كيكائوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضا ، وسار الملك الأشرف بالجموع التي معه ونزل وادي بزاعا ، واتقع بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكائوس ، فانهزمت مقدمة عسكر كيكائوس وأخذ من عسكر كيكائوس عدة أسرى فأرسلوا إلى حلب ، ودقت البشائر لها ، ولما بلغ ذلك كيكائوس وهو بمنبج ولى منهزماً مرعوباً ، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره ، ثم حاصر الأشرف تل باشرو واسترجعها ، وكذلك استرجع رَعْبَان وغيرها ، وتوجه الملك الأفضل إلى سُمَيْسَاط ، ولم يتحرك بعدها في طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وعاد الملك الأشرف إلى حلب وقد بلغه وفاة أبيه .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر ، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية ، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين ، وهي عند عقبة أفيق ، فنزل بها ومرض ، واستند مرضه ، ثم توفي هناك إلى رحمة الله تعالى ، سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعني سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة ، وكان عمره خمساً وسبعين سنة ، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة ، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة ، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازماً متيقظاً غزير العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة صبوراً حليماً ، يسمع ما يكره ويغضى عنه ، وأتته السعادة ، واتسع ملكه ، وكثرت أولاده ، ورأى فيهم ما يحب ولم ير أحداً من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في أولاده ، ولقد أجاد شرف الدين بن عنين في قصيدته التي مدح بها الملك العادل التي مطلعها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى

ومنها :

العادل الملك الذى أسماؤه ما فى أبى بكر لمعتقد الهدى بين الملوك الغابرين وبينه نسجت خلأثقه الحميدة ما أقى
فى كل ناحية تشرف منبرا شك يريب بأنه خير الورى فى الفضل ما بين الثريا والثرى فى الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ومنها فى وصف أولاده :

لا تسمعن حديث ملك غيره يروى فكل الصيد فى جوف الفرا
وله الملوك بكل أرض منهم ملك يحجر إلى الأعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله بدرأ ، فإن شهد الوغى فغضنفرا

وخلف الملك العادل ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات ، ولما توفى الملك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضراً ، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى ، وكان بنا بلس بعد وفاته ، وكنتم موته ، وأخذته ميتاً فى محفة وعاد به إلى دمشق ، واحتوى الملك المعظم على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، ولما وصل دمشق حلف جميع الناس له ، وأظهر موت أبيه وجلس للغزاء ، وكتب إلى الملوك من إخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، وكان فى خزانة الملك العادل لما توفى سبعمائة ألف دينار عينا .

ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه ، وهو فى قتال الفرنج ، عظم عليه ذلك جداً ، واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض أثقال المسلمين ، وكان فى العسكر عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وكان مقدماً عظيماً فى الأكراد الهكارية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل فى العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد والالحوق باليمن ، وبلغ الملك المعظم عيسى ابن العادل ذلك ، فرحل من الشام ، ووصل إلى أخيه الملك الكامل وأخرج عماد الدين بن المشطوب ، ونفاه من العسكر إلى الشام ، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل ، وقوى مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ما ذكرناه من الفتنة التى حصلت فى عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى أقسنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم في سنة سبع وستمائة ، أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود ، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكى المذكور قلعتى العقر ونشوش فلما مات أخوه القاهر ، وأجلس ولده أرسلان شاه بن القاهر في المملكة ، وكان به قروح وأمراض ، تحرك عمه عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه وقصد العمارية واستولى عليها ، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوران ، فاستنجد بدر الدين لولو المستولى على ملك الموصل وتدير أرسلان شاه - بالملك الأشرف ابن الملك العادل ودخل في طاعته ، فأنجده الملك الأشرف بعسكر ، وساروا إلى زنكى بن أرسلان شاه فهزموه .

وكان زنكى المذكور مزوجاً ببنت مظفر الدين كوكبورى صاحب أربل ، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب ، أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين ، فكان مظفر الدين لا يترك ممكناً في نجدة صهره زنكى المذكور ، ويبالغ في عداوة بدر الدين لولو لأجل صهره . وفي هذه السنة : توفى على بن نصر بن هارون النحوى الحلى الملقب بالحجة ، قرأ على ابن الخشاب وغيره .

وفيهما : توفى محمد ، وقيل أحمد بن محمد بن محمد العميدى ، الفقيه الحنفى السمرقندى ، الملقب ركن الدين ، كان إماماً في فن الخلاف خصوصاً الحسب ، وله فيه طريقة مشهورة ، وصنف الإرشاد ، واعتنى فيه بنسب طريقتهم جماعة ، منهم : القاضى شمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة السافعى الجوينى قاضى دمشق ، وبدر الدين المراغى المعروف بالطويل ، واستغل على العميدى خلق كثير وانتفعوا به ، منهم : نظام الدين أحمد بن محمود بن أحمد الحنفى ، المعروف بالحصيرى ، ونظام الدين الحصيرى المذكور قتله التتر بنيسابور عند أول خروجهم في سنة ست عشرة وستمائة ، ولم يقع لنا هذه النسبة ، أعنى العميدى إلى ماذا .

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة :

والملك الأشرف مقيم بظاهر حلب ، يدبر أمر جندها وإقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر في

مقابلة الفرنج ، وهم محدقون محاصرون لثغر دمياط ، وكتبُ الملك الكامل متواصلة إلى إخوته في طلب النجدة .

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة : توفي نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر مسعود بن أرسلان شاه ابن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر ، وكان لا يزال مريضاً ، فأقام بدر الدين لولو في الملك بعده أخاه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر ، وكان عمره يومئذ نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة ، وكان أبوه القاهر آخر من كان له استقلال بالملك منهم ، ثم إن هذا الصبي مات بعد مدة ، واستقل بدر الدين لولو بالملك ، وأتته السعادة ، وطالت مدة ملكه إلى أن توفي بالموصل بعد أخذ التتر ببغداد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .
وفي هذه السنة : توفي قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن أقسنقر صاحب سنجار ، فملك سنجار بعده ولده عماد الدين شاهنشاه بن محمد ، وكان قطب الدين حسن السيرة في رعيته ، وبقي عماد الدين شاهنشاه في الملك شهوراً ، ثم وثب عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار ، وهذا محمود هو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكى .

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة : أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس ، فخرّب أسواره ، وكانت قد حصنت إلى الغاية ، فانتقل منه عالم عظيم ، وكان سبب ذلك أن الملك المعظم ، لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دمياط ، خشى أن يقصدوا القدس ، فلا يقدر على منعهم ، فخرّبه لذلك .

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفرنج يضايقون دمياط ، حتى هجموها في هذه السنة ، عاشر رمضان ، وقتلوا وأسروا من بها ، وجعلوا الجامع كنيسة ، واشتد طمع الفرنج في الديار المصرية ، وحين أخذت دمياط ، ابنتى الملك الكامل مدينة وسمها المنصورة عند مفترق البحرين ، الآخذ أحدهما إلى دمياط ، والآخر إلى أشمون طنخ ، ونزل فيها بمساكره .

ذكر ظهور التتر

وفي هذه السنة : كان ظهور التتر وقتلهم في المسلمين ، ولم تنكّب المسلمون بأعظم مما نكبوا في هذه السنة ، فمن ذلك ما كان من تمكن الفرنج بملكهم دمياط وقتلهم أهلها وأسروهم ، ومنه المصيبة الكبرى وهو ظهور التتر وملكهم في المدينة القريبة أكثر بلاد المسلمين وسفك دمائهم وسبى حريمهم وذرائعهم ، ولم تفجع المسلمون مذ ظهر دين الإسلام بمثل هذه الفجيرة .

وفي هذه السنة : خرجوا على علاء الدين محمد خوارزم شاه بن تكش ، وعبروا نهر سيحون ، ومعهم ملكهم جنكيز خان ، لعنه الله تعالى ، فاستولوا على بخارى رابع ذى الحجة من هذه السنة بالأمان ، وعصت عليهم القلعة فحاصروها وملكوها وقتلوا كل من بها ، ثم قتلوا أهل البلد عن آخرهم .

من تاريخ ظهور التتر : تأليف محمد بن أحمد بن على المنشى النسوى ، كاتب إنشاء جلال الدين قال : إن مملكة الصين مملكة متسعة ، دورها ستة أشهر ، وقد انقسمت من قديم الزمان ستة أجزاء ، كل جزء منها مسيرة شهر ، يتولى أمره خان ، وهو الملك بلغتهم نيابة عن خانهم الأعظم ، وكان خانهم الكبير الذى عاصر خوارزم شاه محمد بن تكش يقال له الطون خان ، وقد توارث الخانية كابرًا عن كابر ، بل كافرًا عن كافر ، ومن عادة خانهم الأعظم الإقامة بطوغاج ، وهى واسطة الصين ، وكان من زمريتهم فى عصر المذكور شخص يسمى دوشى خان ، وهو أحد الخانات المتولى أحد الأجزاء الستة ، وكان مَزُوجًا بعمة جنكيز خان اللعين ، وقبيلة جنكيز خان اللعين هى المعروفة بقبيلة التمرجى سكان البرارى ، ومستأهم موضع يسمى أرغون ، وهم المشهورون بين التتر بالشر والغدر ، ولم تر ملوك الصين إرخاء عنانهم لطغيانهم ، فاتفق أن دوشى خان ، زوج عمة جنكيز خان مات ، فحضر جنكيز خان إلى عمته زائرًا ومعزياً .

وكان الخانان المجاوران لعمل دوشى خان المذكور ، يقال لأحدهما كشلوخان وللآخر فلان خان ، فكانا يليان ما يتأخم عمل دوشى خان المذكور المتوفى من الجهتين ، فأرسلت امرأة دوشى خان إلى كسلى خان والخان الآخر ، تنعى إليهما زوجها دوشى خان وأنه لم يخلف ولداً ، وأنه كان حسن الجوار لهما ، وأن ابن أخيها جنكيز خان إن أقيم مقامه يحذو حذو المتوفى في معاضدتهما ، فأجابها الخانان المذكوران إلى ذلك ، وتولى جنكيز خان ما كان لدوشى خان المتوفى من الأمور بمعاوضة الخانين المذكورين .

فلما أنهى الأمر إلى الخان الأعظم الطون خان ، أنكر توليه جنكيز خان واستحقره وأنكر على الخانين اللذين فعلا ذلك ، فلما جرى ذلك خلعوا طاعة الطون خان ، وانضم إليهم كل من هو من عسائرتهم ، ثم اقتتلوا مع الطون خان فولى منهزماً ، وتمكنوا من بلاده ، ثم أرسل الطون خان وطلب منهم الصلح ، وأن يبقوه على بعض البلاد ، فأجابوه إلى ذلك ، وبقي جنكيز خان والخانان الآخران مشتركين في الأمر ، فاتفق موت الخان الواحد ، واستقل بالأمر جنكيز خان وكشلو خان ، ثم مات كشلو خان ، وقام ابنه ولقب بكشلوخان أيضاً مقامه ، فاستضعف جنكيز خان جانب كشلو خان بن كشلو خان لصغره وحدائه سنه ، وأخل بالقواعد التى كانت مقررة بينه وبين أبيه ، فانفرد كشلو خان عن جنكيز خان وفارقه لذلك ، ووقع بينها الحرب ، فجرد جنكيز خان جيشاً مع ولده دوشى خان بن جنكيز خان ، فسار دوشى خان واقتتل مع كشلو خان ، فانتصر دوشى خان وانهزم كشلو خان ، وتبعه دوشى خان وقتله وعاد إلى جنكيز خان برأسه ، فانفرد جنكيز خان بالمملكة .

ثم إن جنكيز خان راسل خوارزم شاه محمد بن تكش فى الصلح فلم ينتظم ، فجمع جنكيز خان عساكره ، والتقى مع خوارزم شاه محمد ، فانهزم خوارزم شاه ، فاستولى جنكيز خان على بلاد ما وراء النهر ، ثم تبع خوارزم شاه محمداً وهو هارب بين يديه حتى دخل بحر طبرستان ، ثم استولى جنكيز خان على البلاد ، ثم كان من خوارزم شاه ومن جنكيز خان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

فى هذه السنة : حلف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر محمود ، وجعله ولى عهده ، وجرد معه عسكرياً والطواشى مرشد التنصورى نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر

فسار إليه ، ولما وصل إلى الملك الكامل أكرمه وأنزله في ميمنة عسكره ، وهي منزلة أبيه وجده في الأيام الناصرية الصلاحية ، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل .

قال القاضي جمال الدين ، مؤلف « مفرج الكروب » : وحضرتُ العزاء وعمرى اثنتا عشرة سنة ، ورأيتُ الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة ، وهو توب أزرق ، وعمامة زرقاء ، وأنشدته الشعراء المراثي ، فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خستري ، وهو جندي كردي مطلعها :

الطرف في لجة والقلب في سَعَرٍ له دخان زفير طار بالسرر
ومنها في لبس الملك المنصور الحداد عليها :

ما كنت أعلم أن الشمس قد غربت حتى رأيتُ الدجى ملقى على القمر
لو كان مَنْ مات يُفدى قبلها لفدى أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكائوس وملك أخيه كَيْقَبَاز

في هذه السنة : توفي الملك الغالب عز الدين كيكائوس بن كَيْخَسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة سبع وستمائة ، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه ومات ، فملك بعده أخوه كَيْقَبَاز بن كَيْخَسرو ، وكان كَيْقَبَاز محبوساً ، قد حبسه أخوه كيكائوس فأخرجه الجند وملكوه .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبري الضرير النحوي ، الحاسب اللغوي ، وكان حنبلياً ، صاحب ابن الحشاش النحوي وغيره .
وفيهما : توفي أبو الحسن علي بن القاسم بن علي بن الحسن الدمشقي ، الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ ، المعروف بابن عساكر ، وكان قد قصد خراسان ، وسمع بها الحديث . فأكثر وعاد إلى بغداد ، وكان قد وقع على القفل الذي هو فيه في الطريق حرامية ، وجرحوا ابن

عساكر المذكور ، ووصل على تلك الحال إلى بغداد ، وبقي بها حتى توفي في هذه السنة في جمادى الأولى رحمه الله .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة :

والفرنج متملكون على دمياط ، والسلطان الملك الكامل مستقر في المنصورة ، مرابط للجهاد ، والملك الأشرف في حران ، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب رأس عين ، فخرج على الملك الأشرف ، وجمع ابن المشطوب المذكور جمع ، وحسن لصاحب سنجان محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضاً ، فخرج بدر الدين لولو من الموصل وحصر ابن المشطوب بتل أعفر ، وأخذه بالأمان ، ثم قبض عليه ، وأعلم الملك الأشرف بذلك ، فسر به غاية السرور ، واستمر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين بن المشطوب في الحبس .

تم سار الملك الأشرف من حران ، واستولى على دنيسر ، وقصد سنجان ، فأته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجان ، ليسلم سنجان إلى الملك الأشرف ، فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك ، وتسلم سنجان في مستهل جمادى الأولى ، وسلم إليه الرقة ، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف ، فإن أباه الملك العادل ، نازل سنجان في جموع عظيمة ، وطال عليها مقامه فلم يملكها ، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعى ، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجان ، سار إلى الموصل ووصل إليها في تاسع عشر جمادى الأولى ، وكان يوم وصوله إليها يوماً مشهوداً وكتب إلى مظفر الدين صاحب أربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى على بدر الدين لولو القلاع التي استولى عليها فأعادها جميعها ، وترك في يده منها العمادية .

واستقر الصلح بين الملك الأشرف ، وبين مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل ، وعماد الدين زنكى بن أرسلان شاه صاحب العقروشوش والعمارية ، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لولو ، ولما استقر ذلك ، رحل الملك الأشرف عن الموصل ثاني شهر رمضان من هذه السنة ، وعاد إلى سنجان ، وسلم بدر الدين لولو قلعة تلعفر^(١) إلى الملك الأشرف ، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل ، وحطه مقيداً في جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة ، ولقى بغيه وخروجه مرة بعد أخرى .

(١) هكذا ذكر العنوان في نسخة الطبعة الحسينية - أما « الكامل في التاريخ لابن الأثير فذكر العنوان هكذا » ذكر قصد كيكائوس ولاية حلب إلخ » وهو الأقرب إلى الصواب ، انظر : ج ١٢ ص ٣٤٧ .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة : توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب حماة ، بقلعة حماة في ذي القعدة ، وكانت مدة مرضه إحدى وعشرين يوماً بحمى حادة وورم دماغه ، وكان شجاعاً عالماً يحب العلماء ، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين علي الآمدي ، وكان في خدمة الملك المنصور قريب مائتي متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك ، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات ، مثل المضمار في التاريخ ، وطبقات الشعراء ، وكان معتنياً بعمارة بلده والنظر في مصالحه ، وهو الذي بنى الجسر الذي هو بظاهر حماة ، خارج باب حمص ، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد : حماة والمعرّة وسلمية ومنبج وقلعة نجم .

ولما فتح بارين ، وكانت بيد إبراهيم بن المقدم ، ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه ، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضاً عنها ، وهما خير من بارين بكثير ، اختار ذلك لقرب بارين من بلده ، وجرت له حروب مع الفرنج ، والنصر فيها ، وكان ينظم الشعر .

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفي الملك المنصور ، كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر في مقابلة الفرنج ، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق ، وهو في الساحل في الجهاد ، وقد فتح قيسارية وهدمها ، وسار إلى عثليث ونازلها ، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج ، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلبين عريكته ، وشدة بأس الملك المظفر ، فأرسلوا إلى الملك الناصر ، وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا ، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم في كل سنة ، قيل إن مبلغه أربعمئة ألف درهم . فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه ، أطلقه الملك المعظم ، فقدم الملك الناصر إلى حماة ، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه ، فاستحلفوه على ما أرادوا ، وأصعدوه إلى القلعة ، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية ، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة ، لأن مولده سنة ستماية .

ولما استقر الملك الناصر في ملك حماة ، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك ، استأذن الملك الكامل في المضى إلى حماة ظناً منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها إليه ، بحكم الأيمان التي كانت له في أعناقهم ، فأعطاه الملك الكامل الدستور ، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور ، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك ، فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ، ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله ، فسار الملك المظفر إلى دمشق ، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلي ، وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى الملك المظفر ، فلم يحصل منهم إجابة ، فعاد الملك إلى مصر ، وأقام في خدمة الملك الكامل ، وأقطعه إقطاعاً بمصر إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميفارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور الرها وسروج ، وكانت ميفارقين وخلاط بيد الملك الأشرف ، ولم يكن للملك الأشرف ولد ، فجعل أخاه الملك المظفر غازي ولي عهده ، وأعطاه ميفارقين وخلاط وبلادها ، وهي إقليم عظيم يضاها ديار مصر ، وأخذ الملك الأشرف منه الرها وسروج .

وفي هذه السنة : توفي بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه ، شيخ الشيوخ بمصر والشام ، وكان فقيهاً فاضلاً من بيت كبير بخراسان ، وخلف أربعة بنين ، عرفوا بأولاد الشيخ ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل ، وسنذكر بعض أخبارهم في موضعها إن شاء الله تعالى ، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولاً إلى بدر الدين لولو صاحب الموصل فمات هناك .

ذكر مسير التتر إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته

لما ملك التتر سمرقند ، أرسل جنكيز خان لعنه الله عشرين ألف فارس في أثر خوارزم ساه محمد بن تكش ، وهذه الطائفة يسميها التتر المغاربة ، لأنها سارت نحو غرب خراسان ،

فوصلوا إلى موضع يقال له بنح آو ، وعبروا هناك نهر جيحون .، وصاروا مع خوارزم شاه في بروج واحد ، فلم يشعر خوارزم شاه وعسكره إلا والتتر معه ، ففترق عسكره وذهبوا أيدي سباً ، ورحل خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش لا يلوي على شيء في نفر من خواصه ، ووصل إلى نيسابور والتتر في أثره .

فلما قربوا منه ، رحل خوارزم شاه إلى مازندران والتتر في أثره لا يلتفتون إلى شيء من البلاد ولا إلى غير ذلك ، بل قصدهم إدراك خوارزم شاه ، وسار من مازندران إلى مرسى من بحر طبرستان ، يعرف بالسكون ، وله هناك قلعة في البحر ، فعبر هو وأصحابه إليها ، فوقف التتر على ساحل البحر ، وأيسوا من اللحاق بخوارزم شاه .

ولما استقر خوارزم شاه بهذه القلعة توفي فيها ، وهو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش ابن أرسلان بن أطرش بن محمد بن أنوشتكين غرشه ، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً ، واتسع ملكه وعظم محله ، ملك من حد العراق إلى تركستان ، وملك بلاد غزنة وبعض الهند ، وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، وكان فاضلاً عالماً بالفقه والأصول وغيرها ، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير ، وسنذكر شيئاً من أخباره عند ذكر مقتل ولده جلال الدين .

ولما أيس التتر من إدراك خوارزم شاه عادوا إلى مازندران ففتحوها وقتلوا أهلها ، ثم ساروا إلى الرى وهمدان ، ففعلوا كذلك من الفتك والسبي ، ثم ملكوا مراغة في صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ، ثم ساروا إلى حران واستولوا عليها ، ونازلوا خوارزم وقتلهم أهلها مدة أشد قتال تم فتحوها ، وكان لها سد في نهر جيحون ففتحوه ، وركب خوارزم الماء ففرقها ، وفعلوا في هذه البلاد جميعها من قتل أهلها وسبي ذراريهم وقتل العلماء والصلحاء والزهاد والعباد وتخريب الجوامع وتحريق المصاحف ما لم يسمع بمثله في تاريخ قبل الإسلام ولا بعده ، فإن واقعة بختنصر مع بني إسرائيل لا تنسب إلى بعض ما فعله هؤلاء ، فإن كل واحدة من المدن التي أخربوها أعظم من القدس بكثير ، وكل أمة قتلوهم من المسلمين ، أضعاف بني إسرائيل الذين قتلهم بختنصر .

ولما فرغ التتر من خراسان عادوا إلى ملكهم ، فجهز جيشاً كثيفاً إلى غزنة وبها جلال الدين منكبرني بن علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور مالكا لها ، وقد اجتمع إليه جمع كثير من عسكر أبيه ، قيل كانوا ستين ألف مقاتل ، وكان الجيش الذي سار إليهم من التتر اثني عشر ألفاً ، فالتقوا مع جلال الدين ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وأنزل الله نصره على المسلمين وانهزمت التتر وتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، ثم أرسل جنكيز خان لعنه الله عسكراً أكثر من أول مع بعض أولاده ، ووصلوا إلى كابل ، وتصافف معهم المسلمون ، فانهزم التتر ثانياً ، وقتل المسلمون فيهم وغنموا شيئاً كثيراً .

وكان في عسكر جلال الدين أمير كبير مقدم هو الذي كسر التتر على الحقيقة ، يقال له بغراق - وقع بينه وبين أمير كبير يقال له ملك خان ، وهو صاحب هراة ، وله نسب إلى خوارزم شاه - فتنة بسبب المكسب ، قتل فيها أخو بغراق ، فغضب بغراق وفارق جلال الدين ، وسار إلى الهند ، وتبعه ثلاثون ألف فارس ، ولحقه جلال الدين منكبرني واستعطفه فلم يرجع ، فضعف عسكر جلال الدين بسبب ذلك ، ثم وصل جنكيز خان اللعين بنفسه في جيوشه ، وقد ضعف جلال الدين بما نقص من جيوشه بسبب بغراق ، فلم يكن له بجنكيز خان قدرة ، فترك جلال الدين البلاد وسار إلى الهند ، وتبعه جنكيز خان حتى أدركه على ماء عظيم ، وهو نهر السند ، ولم يلحق جلال الدين ومن معه أن يعبروا النهر ، فاضطروا إلى القتال ، وجرى بينهم وبين جنكيز خان قتال عظيم لم يسمع بمثله ، وصبر الفريقان ، ثم تأخر كل منهما عن صاحبه ، فعبر جلال الدين ذلك النهر إلى جهة الهند ، وعاد جنكيز خان ، فاستولى على غزنة ، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم ، وكان قد سار من التتر فرقة عظيمة إلى جهة القفجاق واقتتلوا معهم ، فهزمهم التتر واستولوا على مدينة القفجاق العظمى وتسمى سوادق ، وكذلك فعلوا بقوم يقال لهم اللكرني ، بلادهم قرب دربند شروان ثم سار التتر إلى الروس ، وانضم إلى الروس القفجاق ، وجرى بينهم وبين التتر قتال عظيم ، انتصر فيه التتر عليهم ، وشردوهم قتلاً وهرباً في البلاد .

وفيها : في شوال ، توفي رضى الدين المؤيد بن محمد بن علي الطوسي الأصل النيسابورى الدار المحدث ، وكان أعلى المتأخرين إسناداً ، سمع كتاب مسلم من الفقيه أبي عبد الله محمد بن الفضل القراوى ، وكان القراوى فاضلاً ، قرأ الأصول على إمام الحرمين ، وسمع القراوى المذكور صحيح مسلم على عبد الغافر الفارسى ، وكان عبد الغافر إماماً في الحديث ، صنف شرح مسلم وغيره ، وتوفي محمد بن الفضل القراوى سنة ثلاثين وخمسمائة ، وتوفي عبد الغافر في سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكانت ولادة رضى الدين المؤيد المذكور في سنة أربع وعشرين وخمسمائة ظناً .

ثم دخلت سنة ثمانى عشرة وستمائة :

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفي هذه السنة : قوى طمع الفرنج المملكين دمياط في ملك الديار المصرية . وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر ، ووصلوا إلى المنصورة ، واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً ، وكتب

السلطان الملك الكامل متواترة إلى إخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده ، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف ، وهو ببلاده الشرقية واستنجد به ، وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل ، فجمع الملك الأشرف عساكره ، واستصحب عسكر حلب ، وكذلك استصحب معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة ، وكان الملك الناصر خائفاً من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه ، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر ، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة ، أنه ما يمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه فسار معه بعسكر حماة .

وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من : صاحب بعلبك الملك الأجد بهرام شاه بن فرخنشا بن شاهنشا بن أيوب ، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن ساذى ، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق ، ووصلوا إلى الملك الكامل ، وهو في قتال الفرنج على المنصورة ، فركب والتقى بأخويه ومن في صحبتها من الملوك وأكرمهم ، وقويت نفوس المسلمين ، وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الإسلام وتحملهم ، واستد القتال بين الفريقين ، ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح ، وبذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ، ماعدا الكرك والشوبك ، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين ، فلم يرض الفرنج بذلك ، وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضاً عن تخرب أسوار القدس ، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره وقالوا : لا بد من تسليم الكرك والشوبك .

وبينا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح ، إذ عبر جماعه من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط ، ففجروا فجوة عظيمة من النيل ، وكان ذلك في قوة زيادته ، والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل فركب الماء تلك الأرض ، وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط ، وانقطع عنهم الميرة والمدد ، فهلكوا جوعاً ، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ليسلموا دمياط ، ويعقدوا مده للصلح ، وكان فيهم عدة ملوك كبار ، نحو عشرين ملكاً ، فاختلفت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم ، فبعضهم قال لا نعطيهم أماناً ونأخذهم ونتسلم بهم ما بقى بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها ، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار وتضجر العساكر ، لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم ، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل ، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب ، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة ، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ، ملك عكا

ونائب البابا صاحب رومية الكبرى ، وكندريس وغيرهم من الملوك ، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة ، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين ، وجلس لهم مجلساً عظيماً ، ووقف بين يديه الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم ، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة ، وقد حصنها الفرنج إلى غاية ما يكون . وولاها السلطان الملك الكامل الأمير سجاع الدين حلدك التقوى ، وهو من ممالك الملك المظفر تقي الدين عمر بن ساهنشاه ابن أيوب ، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم ، ثم سار السلطان الملك الكامل ودخل دمياط ومعه إخوته وأهل بيته ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم توجه إلى القاهرة ، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم ، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق ، وانتزع الرقة من محمود ، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى ابن أقسنقر ، ولقى بغيه على أخيه ، فإنا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله وأخذ سنجار ، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة ، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ، ثم عاد إلى بلده .

ذكر وفاة صاحب آمد

وفي هذه السنة : توفي الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن فرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق ، صاحب آمد وحصن كيفا بالقولونج ، وقام في الملك بعده ولده الملك المسعود ، وهو الذي انتزع منه الملك الكامل آمد ، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة ، وقد أورد ابن الأثير وفاته في سنة تسع عشرة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : في جمادى الآخرة ، خُتق قتادة بن إدريس العلوي الحسيني أمير مكة وعمره نحو تسعين سنة ، وكانت ولايته قد اتسعت إلى نواحي اليمن ، وكان حسن السيرة في مبتدأ أمره ، ثم أساء السيرة وجدد المظالم والمكوس ، وصورة ما جرى له - أن قتادة كان مريضاً فأرسل عسكرياً مع أخيه ، ومع ابنه الحسن بن قتادة للاستيلاء على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذها من صاحبها ، فوثب الحسن بن قتادة في أثناء الطريق على عمه فقتله ، وعاد إلى أبيه قتادة بمكة فخنقه ، وكان له أخ نائباً بقلعة ينبع عن أبيه ، فأرسل إليه الحسن فحضر إلى مكة فقتله أيضاً ، وارتكب الحسن أمراً عظيماً ، قتل عمه وأباه وأخاه في أيام يسيرة ،

يسمر في ملك مكة ، وقيل : إن قتادة كان يقول الشعر ، وطولب أن يحضر إلى أمير الحج العراقي فامتنع وعوتب من بغداد ، فأجاب بأبيات منها :

ولي كف ضرغام أصول يبطنها وأتري بها بين الوري وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها وفي بطنها للمجدبين ربيع
أجعلها تحت الرّحا تم أبتغي خلاصا لها ؟ إني إذا لربيع
وما أنا إلا المسك في كل بلدة يضوع ، وأما عندكم فيضيع

وفيهما : توفي جلال الدين الحسن ، صاحب الأملوت ومقدم الإسماعيلية ، وولي بعده ابنه علاء الدين محمد .

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمئة :

في هذه السنة : استقل بدر الدين لولو بملك الموصل ، وتوفي الطفل الذي كان قد نصبه في المملكة ، وهو ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنفر ، وسمى لولو نفسه الملك الرحيم ، وكان قد اعتضد بالملك الأسرف ابن الملك العادل ، فدافع عنه ونصره ، وقلع لولو البيت الأتابكي بالكلية ، واستمر مالكا للموصل نيقا وأربعين سنة ، سوى ما تقدم له من الاستيلاء والتحكم في أيام أستاذه نور الدين أرسلان ساه ، وابنه الملك القاهر مسعود .

وفي هذه السنة : سار الملك الأسرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل ، وأقام عنده بمصر متنزهاً إلى أن خرجت هذه السنة .

وفي هذه السنة : فوض الأتابك طغريل الخادم مدير مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشغل وبكاس ، فسار الملك الصالح من حلب واستولى عليها ، وأضاف إليه الروج ومصرة ومصرين .

وفي هذه السنة : قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة ، لأن الملك الناصر صاحب حماة ، كان قد التزم له بال يحمله إليه إذا ملك حماة ، فلم يف له ، فقصد الملك المعظم حماة ، ونزل بقرين ، وغلقت أبواب حماة ، فقصدها الملك المعظم وجرى بينهم قتال قليل ، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية ، فاستولى على حواصلها وولى عليها ، ثم توجه إلى المعرة ، فاستولى عليها ، وأقام فيها والياً من جهته ، وقرر أموراً ، ثم عاد إلى سلمية فأقام بها حتى خرجت هذه السنة على قصد منازلة حماة .

وفي هذه السنة : حج من اليمن الملك المسعود يوسف ، الملقب أطسر وهو اسم تركي ،

والعامة تسميه أقسليس ، وكان قد استولى على اليمن سنة اثنتى عشرة وستمائة وقبض على سليمان شاه بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وحج في هذه السنة ، فلما وقف الملك المسعود في هذه السنة بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر ، لترفع على الجبل ، تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع من ذلك ، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة ، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه من ذلك ، ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن ، وبلغ ذلك الخليفة فعظم عليه وأرسل يشكو إلى الملك الكامل فاعتذر عن ذلك فقبل غذره ، وأقام الملك المسعود في اليمن مدة يسيرة ، ثم عاد إلى مكة ليستولى عليها ، فقابله الحسن بن قتادة واستقرت مكة في ملك الملك المسعود وولى عليها ، وذلك في ربيع الأول من سنة عشرين وستمائة ثم عاد إلى اليمن .

وفيها : توفي الشيخ يونس بن يوسف بن مساعد شيخ الفقراء المعروفة باليونسية ، وكان رجلاً صالحاً وله كرامات ، وكانت وفاته بقرية القنية من أعمال دارا وقد ناهز تسعين سنة ، وقبره مشهور هناك .

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة :

والأشرف بديار مصر عند أخيه الملك الكامل ، وأخوها الملك المعظم بسلامة مستول عليها وعلى المعرة عازم على حصار حماة ، وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة ، فعظم عليه ذلك واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على الملك المعظم وترحيله ، فأرسل إليه الملك الكامل ناصح الدين الفارسي ، فوصل إلى الملك المعظم وهو بسلامة وقال له السلطان يأمر بك بالرحيل ، فقال : السمع والطاعة . وكانت أطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل مغضباً على أخويه الكامل والأشرف ، ورجعت المعرة وسلامة للناصر ، وكان الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مقيماً عند الملك الكامل بالديار المصرية كما تقدم ذكره ، وكان الملك الكامل يؤثر تملكه حماة ، لكن الملك الأشرف غير مجيب إلى ذلك لانتفاء الملك الناصر صاحب حماة إليه ، وجرى بين الكامل والأشرف في ذلك مراجعات كثيرة ، آخرها أنها اتفقا على نزع سلامة من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر ، فتسلمها الملك المظفر وأرسل إليها وهو بمصر نائباً من جهته حسام الدين أبا علي بن محمد بن علي الهذباتي ، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة وبعرين ، ثم سار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره يومئذ عشر سنين ، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب وأركب الملك العزيز في دست السلطنة .

وفي هذه السنة : لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب اتفق مع الملك لأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية ، فأرسلوا عسكرياً وهدموها إلى لأرض .

ذكر أحوال غياث الدين أخى جلال الدين ابنى خوارزم شاه محمد

كان لجلال الدين منكبرنى أخ يقال له غياث تيز شاه ، وكان قد ملك غياث الدين المذكور كرمان ، لما توجه جلال الدين منكبرنى إلى الهند كما تقدم ذكره فى سنة سبع عشرة ، تغلب غياث الدين على الرى وأصفهان وهمدان وغير ذلك من عراق العجم ، وهى البلاد المعروفة ببلاد الجبل ، فخرج على غياث الدين خاله يعيان طابسى وكان أكبر أمرائه وأقربهم إليه ، فاقتتل مع غياث الدين فانهزم يعيان طابسى ومن معه ، وأقام غياث الدين فى بلاده مؤيداً منصوراً .

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ، ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها وطلبوا لها رجلاً يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحداً يصلح لذلك ، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقى من بيت كبير مشهور فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر ، فأمر ولده فتنصر ، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم ، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكاً لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوماً إلى البيت فوجد المملوك نائماً معها فى الفراش ، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته فى بعض القلاع ، ثم أحضرت رجلين كانا قد وُصفَا لها بحسن الصورة ، فتزوجت أحدهما ثم فارقت ، وأحضرت إنساناً من كنجة مسلماً وهوته وسألته أن يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك ، وترددت الرسل بينهما فى ذلك مدة فلم يجيبها إلى التنصر .

ذكر وفاة ملك الغرب

في هذه السنة : توفي يوسف المستنصر ملك الغرب ابن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة عشر وستمائة ، وكان يوسف المذكور منهمكا في اللذات ، فدخل الوهن على الدولة بسبب ذلك ، ولم يخلف يوسف المذكور ولداً ، فاجتمع كبراء الدولة وأقاموا عم أبيه لكبر سنة ، وهو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه المستضيء وكان عبد الواحد المذكور قد صار فقيراً بمراكش وقاسى الدهر . فلما تولى استغل باللذات والتنعيم في المآكل والملابس من غير أن يشرب خمرًا ، ثم خلع عبد الواحد المذكور بعد تسعة أشهر من ولايته وقتل ، وملك بعده ابن أخيه عبد الله وتلقب بالعدل وهو عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة :

في هذه السنة : وصل التتر إلى قرب تبريز ، وأرسلوا إلى صاحبها أذربك بن البهلوان يقولون له : إن كنت في طاعتنا ، فأرسل من عندك من الخوارزمية إلينا ، فأوقع أذربك بمن عنده من الخوارزمية وقتل بعضهم وأسر الباقين وأرسلهم إلى التتر مع مقدمة عظيمة فكفوا عن بلاد أذربك وعادوا إلى بلاد خراسان .

وفيها : استولى غياث الدين تيز شاه أخو جلال الدين بن خوارزم شاه على غالب مملكة فارس ، وكان صاحب فارس يقال له الأتابك سعد بن دكلا ، وأقام غياث الدين بشيراز وهي كرسي مملكة فارس ، ولم يبق مع الأتابك سعد من فارس غير الحصون المنيعة ، ثم اصطلع غياث الدين مع الأتابك سعد على أن يكون لسعد بعض بلاد فارس ولغياث الدين الباقي .

ذكر عصيان المظفر غازي بن العدل على أخيه الملك الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازي بخلاط ، وهي مملكة عظيمة وهي إقليم أرمينية ، وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة كما قدمنا ذكره ، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الملك الأشرف ، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك ،

وخالف أخاه الملك الأشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب أربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كجك ، وكان بدر الدين لولو منتبياً إلى الملك الأشرف ، فسار مظفر الدين صاحب أربل وحصر الموصل عشرة أيام ، وكان نزوله على الموصل نالت عسر جمادى الآخرة من هذه السنة ليسفل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط ، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها ، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل ، وسار إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي فسلمت إليه مدينة خلاط ، وانحسر أخوه غازي بفلعتها إلى الليل فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف ، واعتذر إليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجج باقي البلاد منه ، وكان استيلاء الملك الأشرف على خلاط وأخذها من أخيه في جمادى الآخرة من هذه السنة .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة :

ذكر وصول جلال الدين من الهند إلى البلاد

قد تقدم في سنة سبع عشرة وستمائة ذكر هروب جلال الدين من غزنة لما قصده جنكزخان ، وأنه دخل بلاد الهند ، فلما كانت هذه السنة قدم من الهند إلى كرمان ثم إلى أصفهان واستولى عليها وعلى باقي عراقي العجم ، ثم سار إلى فارس وانتزعها من أخيه غياث الدين تيز ساد بن محمد ، وأعادها إلى صاحبها أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس ، وصار أتابك سعد المذكور وغياث الدين تيز ساد أخو جلال الدين تحت حكم جلال الدين وفي طاعته ، ثم استولى جلال الدين على خورستان وكاتب الخليفة الإمام الناصر ، ثم سار جلال الدين حتى فارب بغداد ووصل إلى يعقوبا ، وخاف أهل بغداد منه واستعدوا للحصار ، ونهبت الخوارزمية البلاد ، وامتلائت أيديهم من الغنائم وقوى أمر جلال الدين وجميع عسكره الخوارزمية ، ثم سار إلى قريب أربل فصالحه صاحبها مظفر الدين ودخل في طاعته ، ثم سار جلال الدين إلى أذربيجان وكرسى مملكتها تبريز فاستولى على تبريز وهرب صاحب أذربيجان وهو مظفر الدين أزيك بن البهلوان بن الدكر ، وكان أزيك المذكور قد قوى أمره لما قتل طغرل آخر الملوك السلجوقية ببلاد العجم ، فاستقل أزيك المذكور في المملكة ، وكان أزيك المذكور لا يزال منغولا يشرب الخمر وليس له التفات إلى تدبير المملكة ، فلما استولى جلال الدين على تبريز هرب أزيك إلى كنجة وهي من بلاد أران قرب برده ومناخمة لبلاد الكرج ، واستقل السلطان جلال الدين بملك أذربيجان وكثرت عساكره واستفحل أمره ، ثم جرى بين

جلال الدين وبين الكرج قتال شديد انهزم فيه الكرج وتبعهم الخوارزمية يقتلونهم كيف ساءوا وافق أنه بنت على قاضى تبريز وفوع الطلاق من أزبك بن البهلوان بن الدكر على زوجته بنت السلطان طغريل آخر الملوك السلجوقية المقدم ذكره ، فتزوج جلال الدين ببنت طغريل المذكور ، وأرسل جيشاً إلى مدينة كنجة ففتحوها ، فهرب مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان من كنجة إلى قلعة هناك ، ثم هلك وتلاسى أمره .

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين يوسف

في هذه السنة : توفي الملك الأفضل المذكور وليس بيده غير سُمِّيَ سَاطِطاً فقط ، وكان موته فجأة ، وعمره سبع وخمسون سنة ، وكان الملك الأفضل فاضلاً حسن السيرة ، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة ، وكان مع ذلك قليل الحظ ، وله الأسعار الحسنة ، فمنا يعرض إلى سوء حظه قوله :

يا من يسود شعره بخضابه لعساه من أهل الشيبة يحصل
هافاً خُصْبُ بسواد حظى مرة ولك الأمان بأنه لا يتصل
ولما أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتاباً منه ، أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي
بأحد منهم وسبب ذلك :

أى صديق سألت عنه فسقى الذل وتحت الخمول فى الوطن
وأى ضد سألت حالته سمعت ما لا تحبه أذى

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفى أول شوال من هذه السنة : توفي الخليفة الناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة ، وعمى فى آخر عمره ، وكان موته بالدوسنطاريا ، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدى عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير إسحق ابن المقتدر جعفر ابن المكتفى على ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق ، قيل اسمه طلحة ، وقيل محمد ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن

المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة ، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم ، خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد ، وكان يتسيع وكان منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسب ويلبس سراويلات الفتوة ، ومنع رمى البندق إلا من ينسب إليه فأجابه الناس إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له ابن السفث ، وهرب من بغداد إلى السنام وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطعمهم في البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزم ساء محمد بن تكتش من العداوة ليسغل خوارزم ساء بهم عن قصد العراق .

ذكر خلافة ابنه الظاهر

ولما توفي الامام الناصر. بويغ ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد فأظهر العدل وأزال الكوس وأخرج المحبوسين وظهر للناس ، وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون إلا نادراً ولم تطل مدته في الخلافة غير تسعة أشهر .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمئة :

فيها : سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص ، وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم ساء ومع مظفر الدين صاحب أربل على أن يكونوا يداً واحدة ، وكان الملك الأسرف ببلاده الشرقية نم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيله وخيل عسكره ، وورد عليه أخوه الملك الأسرف طلباً للصلح وقطعا للفتن ، فبقى مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كالأسير معه ، وأقام الملك الأسرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة ، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر وقد تخيل من بعض عسكره فما أمكنه الخروج عنها .

وفي هذه السنة : فتح السلطان جلال الدين تفليس من الكرج وهي من المدن العظام .

وفي هذه السنة : سار جلال الدين ونازل خِلاط وهي منازلته الأولى فطال القتال بينهم ، وكان نائب الأسرف بخِلاط الحاجب حسام الدين على الموصل ، وكان نزوله عليها نال عشر ذى القعدة ، ورحل عنها لسبع بقين من ذى الحجة من هذه السنة بسبب كثرة التلوج .

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفي رابع عشر رجب من هذه السنة : توفي الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله ، وكان متواضعاً محسناً إلى الرعية جداً ، وأبطل عدة مظالم منها أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس ، وكان زيادة الصنجة في كل دينار حبة ، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله ﴿ويل للمطففين﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿^١﴾ وعمل صنجة المخزن مثل صنجة المسلمين ، وكان مضاداً لأبيه الناصر في كثير من أحواله منها : أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة ومدة خلافته كانت قصيرة ، وكان أبوه متسيعاً وكان الظاهر سنياً ، وكان أبوه ظالماً جماعاً للمال ، وكان الظاهر في غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء .

ذكر خلافة المستنصر وهو سادس ثلاثينهم

ولما توفي الظاهر ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاحي في غاية السجاعة وبقي حياً حتى أخذت التتر بغداد ، وقتل مع من قتل ، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك أبيه الظاهر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : سار علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتكي صاحب آمد ، فنزل كيقباز بملطية ، وهي من بلاد كيقباز وأرسل عسكرياً ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا وكانا لصاحب آمد المذكور .
وفيهما : في خامس عشر ذي الحجة نازل جلال الدين مدينة خلّاط ، وهي للملك الأشرف

وبها نائبة حسام الدين على الحاجب وهي منازلته الثانية ، وجرى بينهم قتال شديد وأدركه البرد فرحل عنها في السنة المذكورة .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة :

والملك الكامل بديار مصر وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرها ، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأسرف ، والرسل لا تنقطع بين المعظم وجلال الدين والملك الأسرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم ، ولما رأى الملك الأسرف حاله مع أخيه المعظم ، وأنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد إجابة كالمكره إلى ماطلبه منه ، وحلف له أن يعاضده ويكون معه على أخيهما الملك الكامل ، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص ، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم فرحل الملك الأسرف في جمادى الآخرة من هذه السنة ، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر ، ولما استقر الملك الأسرف ببلاده رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم وتآول في أيمانه التي حلفها أنه مكره ، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك وكاتب الإمبراطور ملك الفرنج في أن يقدم إلى عكا لينغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الإمبراطور بأن يعطية القدس ، فسار الإمبراطور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك ، فكاتب أخاه الأسرف واستعطفه .

وفي هذه السنة : انتزع الأتابك طغريل الشعر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر وعوضه عنها بعينتاب والراوندان .

وفيها : سار الحاجب حسام الدين على نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على خوى وسلّماس ونقجوان .

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

في هذه السنة : في ذي القعدة ، توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة دمشق بالدوسنطاريا ، وعمره تسع وأربعون سنة ، وكانت مدة ملكه دمشق تسع سنين وشهوراً ، وكان شجاعاً وكان عسكره في غاية التجميل ، وكان يحامل أخاه الملك الكامل ويخطب له ببلاده ولا يذكر اسمه معه ، وكان الملك المعظم قليل التكلف جداً في غالب الأوقات لا يركب بالسناجق السلطانية ، وكان يركب وعلى رأسه كلوته صفر أبلاشاش ، ويتنحرق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه ، كما جرت عادة الملوك ، ولما كثر مثل هذا منه صار

الإنسان إذا فعل أمراً لا يتكلف له يقال قد فعله بالمعظمى ، وكان عالماً فاضلاً في الفقه والنحو ، وكان سيخه في النحو تاج الدين زيد بن الحسن الكندي ، وفي الفقه جمال الدين الحصري وكان حنفياً متعصباً لمذهبه ، وخالف جميع أهل بيته فإنهم كانوا شافعية .
ولما توفي الملك المعظم ترتب في مملكته وأعمالها بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود وقام بتدبير مملكته مملوك والده واستاذ داره الأمير عز الدين أيبك المعظمى ، وكان لأبيك المذكور صرخذ .

ذكر وفاة ملك المغرب وأخبار الذين تملكوا بعده

وفي هذه السنة : خلع العادل عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن وقد تقدم ذكر ولايته في سنة عشرين وستمائة بعد خلع عبد الواحد وقتله ، وفي أيام العادل عبد الله المذكور ، كانت الواقعة بين المسلمين والفرنج بالأندلس على طليطلة انهزمت فيها المسلمون هزيمة قبيحة ، وهذه الواقعة هي التي هدت دعائم الإسلام بالأندلس ، ولما خلع عبد الله العادل المذكور حبس ثم خنق ونهب المصموديون قصره بمراكش واستباحوا حرمه .

ثم ملك بعده يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، ويحيى يومئذ ماخط عذاره ، ولما تمت بيعة يحيى وصل الخبر أنه قد قام بأشبيلية إدريس بن يعقوب المنصور وهو أخو العادل عبدالله ، وتلقب إدريس بالمأمون ، وجميعهم كانوا يتلقبون بأمر المؤمنين ، وتعتقد البيعة لهم بالخلافة ، ولما استقر أمر إدريس المأمون المذكور في أشبيلية ، ثارت جماعة من أهل مراكش وانضم إليهم العرب ، ووثبوا على يحيى بن محمد الناصر بمراكش فهرب يحيى إلى الجبل ، ثم اتصل بعرب المعقل فغدروا به وقتلوه ، وخطب للمأمون إدريس في مراكش واستقر أمره في الخلافة بالبرين بر الأندلس وبر العدو ، ثم خرج على المأمون إدريس المذكور بشرق الأندلس المتوكل بن هود ، واستولى على الأندلس ، ففارق إدريس الأندلس وسار من أشبيلية وعبر البحر ووصل إلى مراكش ، وخرجت الأندلس جينثذ عن ملك بني عبد المؤمن . ولما استقر المأمون إدريس في ملك مراكش تتبع الخارجين على من تقدمه من الخلفاء فقتلهم عن آخرهم وسفك دماء كثيرة حتى سموه لذلك حجاج المغرب ، وكان المأمون إدريس المذكور فصيحاً عالماً بالأصول والفروع ناظماً ناثراً ، أمر بإسقاط اسم مهديهم ابن تومرت من الخطبة على المنابر ، وعمل في ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلالة ، ثم ثار على إدريس المذكور أخوه بسببته ففسار إدريس من مراكش إليه

وحصره بسبته ، ثم بلغ إدريس وهو محاصر سبته أن بعض أولاد محمد الناصر بن يعقوب المنصور قد دخل إلى مراكنش فرحل إدريس عن سبته ، وسار إلى مراكنش فمات في الطريق بين سبته ومراكنش .

ولما مات المأمون إدريس ملك بعده ابنه عبد الواحد بن المأمون إدريس وتلقب المذكور الرشيد ، ثم توفي الرشيد عبد الواحد بن المأمون إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن غريقاً في صهرريج بستان له بحضرة مراكنش في سنة أربعين وستمائة ، وكان الرشيد عبد الواحد المذكور حسن السياسة ، وكان أبوه إدريس قد أبطل اسم مهديهم من الخطبة فأعاده عبد الواحد المذكور ، وقمع العرب إلا أنه تخلى للذاته لما استقر أمره ، ولم يخطب للرشيد عبد الواحد المذكور بأفريقية ولا بالغرب الأوسط ، ولما مات الرشيد عبد الواحد المذكور ملك بعده أخوه علي بن إدريس وتلقب بالمعتضد أمير المؤمنين ، وكان أسود اللون كان مدحوضاً في حياة والده وسجنه في بعض الأوقات ، وقدم عليه أخاه الصغير عبد الواحد المذكور ، واستمر المعتضد علي بن إدريس المذكور حتى قتل وهو محاصر قلعة بالقرب من تلمسان في صفر من سنة ست وأربعين وستمائة ، ثم ملك بعد المعتضد الأسود المذكور أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم بن يوسف في شهر ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمائة وتلقب بالمرتضى .

وفي الحادي والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة دخل الواثق أبو العلاء إدريس المعروف بأبي دبوس مراكنش ، وهرب المرتضى إلى أزموور من نواحي مراكنش فقبض عليه عامله بها ، وبعث إلى الواثق بذلك فأمره الواثق بقتله فقتله في العشر الأخير من شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له كتامة بعده عن مراكنش ثلاثة أيام ، وأقام الواثق أبو دبوس ثلاث سنين وقتل في الحروب التي كانت بينه وبين بنى مرين ملوك تلمسان ، وانقرضت دولة بنى عبد المؤمن ، وكان قتل الواثق أبي دبوس المذكور في المحرم سنة ثمان وستين وستمائة بموضع بينه وبين مراكنش مسيرة ثلاثة أيام في جهتها الشمالية ، واستولى بنو مرين على ملكهم ، وقد حصل الاختلاف في نسب أبي دبوس فإني وجدت في بعض الكتب المؤلفة في هذا الفن أن أبا دبوس هو ابن إدريس المأمون ، ثم وجدت نسبه في وفيات الأعيان أنه هو نفسه اسمه إدريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة :

في هذه السنة : أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الملك الناصر داود

ابن الملك المعظم صاحب دمشق حصن السوبك ، فلم يعطه الملك الناصر ذلك ولا أجابه إليه ، فسار الملك الكامل من مصر في هذه السنة في رمضان إلى الشام وتزل على تل العجول بظاهر غزة ، وولى على نابلس والقدس وغيرها من بلاد ابن أخيه الملك الناصر داود المذكور صاحب دمشق حينئذ ، وكان صحبة الملك الكامل الملك المظفر محمود بن السلطان الملك المنصور صاحب حماة ، وهو موعود من الملك الكامل أنه ينتزع حماة من أخيه الناصر فليج أرسلان ابن المنصور ويسلمها إليه . .

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق ، استنجد الناصر داود بعمه الملك الأشرف ، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقية ، فقدم الملك الأشرف إلى دمشق ودخل هو والناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين .

قال القاضي جمالي الدين بن واصل : كنت إذ ذاك حاضراً بدمشق ورأيت الملك الأشرف راكباً مع ابن أخيه وعلى رأس الملك الأشرف شاس علم كبير ووسطه مشدود بمنديل ، وكان وصول الأشرف إلى دمشق في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، ووصل إلى خدمته بدمشق الملك المجاهد شيركوه ، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف ، ثم وقع الاتفاق أن يسير الناصر داود وشيركوه مع الملك الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، وبوجه الملك الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة شافعاً في ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك ، ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود وتعويضه عنها بحران والرها والرقّة من بلاد الملك الأشرف ، وأن تستقر دمشق للملك الأشرف ويكون له إلى عقبة أفيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل ، وأن ينتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان ، ويعطى الملك المظفر محمود بن الملك المنصور ، وأن ينتزع سلمية من المظفر محمود ، وكانت إقطاعه لما كان مقيماً بمصر عند الملك الكامل ، ويعطى لشيركوه صاحب حمص وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة وقد اتفقا على ذلك .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : عاود التتر إلى قصد البلاد التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه ، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر .

وفيها : قدم الإمبراطور إلى عكا بجموعه ، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم ، فوصل الإمبراطور وقد مات المعظم

فنسب به الملك الكامل . ولما وصل الإمبراطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولى عليها الإمبراطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية ، وإنما اسم الإمبراطور المذكور هرديك وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد أنبولى والأنبردية .

قال القاضي جمال الدين بن واصل : لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولا من الملك الظاهر ببرز الصالحى إلى الإمبراطور ملك تلك البلاد ، قال : وكان الإمبراطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب مائلا إلى المسلمين ، لأن منشأه بجزيرة صقلية وغالب أهلها مسلمون ، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الإمبراطور إلى أن خرجت هذه السنة .

وفي هذه السنة : بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وفنل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة .

وفيهما : خاف غياث الدين تيزساه من أخيه جلال الدين ففارقه واستجار بالإسماعيلية .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة :

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود ، وبلغ الناصر داود ذلك وهو بنابلس فرحل إلى دمشق ، وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الملك الكامل ، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك وسار إلى دمشق وسار الأشرف في أنره وحصره بدمشق والملك الكامل مستغل بمراسله الإمبراطور .

ولما طال الأمر ولم يجد الملك الكامل بدا من المهادنة أجاب الإمبراطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا ولا يعمرها الفرنج ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ويكون الحكم في الرساتيق إلى وإلى المسلمين ، ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الإمبراطور القدس في هذه السنة في ربيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها ، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل ، فأخذ الناصر داود في التنسيع على عمه بذلك ، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبى الفرج ابن الجوزى وكان واعظا وله قبول عند الناس فأمره الناصر داود يعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس وما حل بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما ، ومن جملة ما أنتد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعى وهو :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
فارتفع بكاء الناس وضجيجهم .

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الإمبراطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق ووصل إليها في جمادى الأولى من هذه السنة ، واشتد الحصار على دمشق ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون التى هى من الست السوداء أم ولده أبى بكر العادل بن الكامل ، ثم استولى الملك الكامل على دمشق وعوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء والصلت والأغوار والشوبك ، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التى كانت عينت للناصر وهى حران والرها وغيرها التى كانت بيد الملك الأشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل فى قبولها فقبلها وتسلم دمشق الملك الأشرف وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة .

ذكر وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ابن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب

فى هذه السنة : توفى الملك المسعود يوسف الملقب أطر المعروف بأقسييس ، وكان قد مرض باليمن فكره المقام بها وعزم على مفارقة اليمن وسار إلى مكة وهى له كما تقدم ذكره ، فتوفى بمكة ودفن بالمعلى وعمره ست وعشرون سنة ، وكانت مدة ملكه اليمن أربع عشرة سنة ، وكان الملك المسعود لما سار من اليمن قد استخلف على اليمن على بن رسول ، وسنذكر بقية أخباره إن شاء الله تعالى .

ووصل الخبر بوفاة الملك المسعود إلى أبيه الملك الكامل وهو على حصار دمشق فجلس للعزاء ، وخلف الملك المسعود ولداً صغيراً اسمه أيضاً يوسف وبقي يوسف المذكور حتى مات فى سلطنة عمه الملك الصالح أيوب صاحب مصر ، وخلف يوسف ولداً صغيراً اسمه موسى ولقب الملك الأشرف وهو الذى أقامه الترك فى مملكة مصر بعد قتل الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر القبض على الحاجب نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله

وفي هذه السنة : أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفي وهو أكبر أمير عنده إلى خلاط فقبض على الحاجب على الموصل وحبسه ثم قتله ، وكان حسام الدين على الحاجب المذكور من أهل الموصل ، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخلاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ما تقدم ذكره ، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله قيل إن ذلك لذنوب منه لم يطلع عليه الناس واطلع عليه الملك الكامل والملك الأشرف ، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف ، بنى الخان الذي بين حران ونصيبين ، وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق ، وهو الخان المعروف بخان بريح العطش ، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل أستاذه ولحق بجلال الدين ، فلما ملك جلال الدين خلاط على ما سنده قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور فقتله وأخذ بأر أستاذه .

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج ثم نزل سلمية وأرسل عسكرياً نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان وكان فيه جبن ، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضاً كثيراً لأجابه الملك الكامل إليه ولكنه خاف ، وكان في العسكر الذين نزلوه سيركوه صاحب حمص فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لسيركوه إنني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرنى عند السلطان الملك الكامل ، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاہ بن أيوب المذكور إلى سيركوه في العشر الأخير من رمضان هذه السنة ، وأخذه سيركوه ومضى به إلى الملك الكامل وهو نازل على سلمية ، فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله ، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل ، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلمها إلى عسكر السلطان الملك الكامل فامتنع من ذلك الطوانسيان بشر ومرسد المنصوريان ، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل لا نسلم حماة لغير أحد من أولاد تقي الدين ، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب

حماة اتفق مع غلمان أبك ، وتسلم حماة وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملى فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وفت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له ، فحضر الملك المظفر سحر الليلة الى عينوها ففتحوا له باب النصر ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الإكرام داخل باب المغار وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور ، وحضر أهل حماة وهنئوا الملك المظفر بملك حماة وكان ذلك في العسر الأخير من رمضان من هذه السنة ، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين ، وأقام الملك المظفر في دار الإكرام يومين وصعد في اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها ، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة ، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة .

ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين على الهدباني وكان سيف الدين على ابن أبي على المذكور قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبي على الذي كان نائب الملك المظفر بسلمية لما سلمت إليه وهو بمصر عند الملك الكامل ، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبي على وحتة ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل وحظى عنده وصار أستاذ داره ، وخدم ابن عمه سيف الدين على المذكور الملك المظفر وكان يقول له : أستهي أراك صاحب حماة وأكون بعين واحدة فأصيب عين سيف الدين على على حصار حماة لما نازها عسكر الملك الكامل وبقي بفرد عين ، فحظى عند الملك المظفر لذلك ، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره .

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة انتزع الملك الكامل سلمية منه وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص على ما كان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك ، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطى أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكماها ، فامتثل ذلك وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر ، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعة ، وكان بحماة تقدير أربعمئة ألف درهم للملك الناصر ، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطى المال المذكور أخاه الملك الناصر فماتل المظفر في ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شيء ولما استقر الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصاري الدمسقي بقصيدة من جملتها :

تناهى إليك الملك واشتد كاهله وحل بك الراجى فحطت رواحله

ترحلت عن مصر فأحل ربيعها ولما حلت الشام روض ما حله
وعزت حماة في حمى أنت غاية بصولته تحمى كليب ووائله
وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج يخيب مرجيه ويحرم سائله

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة رحل الملك الكامل عن سَلْمِيَّة إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الملك الأتurf عوضاً عن دمشق فنظر في مصالحها ، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك الكامل وهو بالشرق ، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية خاتون بنت الملك الكامل وهي شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهي والدة الملك المنصور صاحب حماة وأخيه الملك الأفضل نور الدين على ابني الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل وكان يتعنى ذلك لما كان بالديار المصرية ، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له الزكى القومصى فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكى القومصى :

متى أراك كما أهوى وأنت ومن تهوى كأنكما روحان في بدن
هناك أنشد والأقدار مصغية هنت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر : إن صار ذلك يازكى أعطيتك ألف دينار مصرية ، فلما ملك الملك المظفر حماة أعطى الزكى ما وعده به ، ولما فرغ الملك الكامل من تقرير أمر البلاد الشرقية وهي حران وما معها من البلاد مثل رأس عين والرها وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية . وفي هذه السنة : أرسل الملك الأتurf أخاه صاحب بصرى الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها صاحبها الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب واستمر الحصار عليه .

وفيهما : سار جلال الدين ملك الخوارزمية وحاصر خِلاط وبها أيبك نائب الملك الأتurf إلى أن خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة :

ذكر عمارة شميميش

في هذه السنة : شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميش وكان لما سلم إليه الملك الكامل سَلْمِيَّة قد استأذنه في عمارة تل شميميش قلعة فأذن له بذلك ، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكوته بأمر الملك الكامل .

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة : سلم الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصار عليه ، وعوضه الملك الأشرف عنها الزيداني وقصير دمتق الذي هو شماليها ومواضع أخر ، وتوجه الملك الأجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب .

ذكر مقتل الملك الأجد

لما أخذت منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه في مرقد عنده بالدار ، وجلس الملك الأجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد ، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به أستاذه الملك الأجد فقتله ، ثم طلع المملوك إلى سطح الدار وألقى نفسه إلى وسطها فمات ، ودفن الملك الأجد بمدرسة والده التي على الشرف ، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعاً وأربعين سنة ، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما مات أبوه فرخشاه وانتزعت منه هذه السنة ، فذلك خمسون سنة إلا سنة ، وكان الملك الأجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور .

ذكر ملك جلال الدين خلّاط

في هذه السنة : لما طال حصار جلال الدين على خلّاط واشتد مضايقتها هجم بالسيف وفعل في أهلها ما يفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ، ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها وهو مملوكه أيبك وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب على الموصل فقتله وأخذ بثأر أستاذه .

ذكر كسرة جلال الدين ابن الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ما جرى من أخذ خلّاط اتفاق صاحب الروم كيقيباذ بن كيخسرو ابن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار

إلى سيواس واجتمع فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقيباز المذكور وسار إلى جهة خلاط ، والتقى الفريقان في التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين ، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رءوس جبال كانت في طريقهم وضعف جلال الدين بعدها وقويت عليه التتر وارتجع الملك الأشرف خلاط وهي خراب يباب ، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقيباز وجلال الدين وتصالخوا وتحالفوا على ما بأيديهم وأن لا يتعرض أحد منهم إلى ما بيد الآخر .

وفي هذه السنة : استولى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر وهي غير أرزن الروم ، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم في الملك فأخذها منه الملك المظفر غازي المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حاني وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحذب وأرزن لم تزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقي إلى الآن فسبحان من لا يزول ملكه .

وفيها : جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاها عند قرية بين حماة وباربن يقال لها لفيون وكسروهم كسرة عظيمة ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدا منصورا .

وفيها : ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة :

والسلطان الملك الكامل بديار مصر وأخوه الملك الأشرف بدمشق في ملاذه وقد تخلى عن البلاد الشرقية فإن حران وما معها صارت لأخيه الملك الكامل وخلاط صارت خرابا يبابا ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ .

وفيها : سار الملك الأشرف من دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل وأقام عنده بالديار المصرية متنزها .

ذكر قصة التتر في بلاد الإسلام

وفي هذه السنة : عاودت التتر قصد بلاد الإسلام وسفكوا وخرّبوا مثل ما تقدم ذكره ، وكان قد ضعف جلال الدين لقبج سيرته وسوء تدبيره ، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف وعادى الجميع وانصاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة واتفق موت ذلك المملوك فحزن عليه حزنا شديدا لم

يسمع بمله وأمر أهل توريز بالخروج والنواح والللطم عليه ، ثم إنه لم يدفنه وبقي يستصحب ذلك المملوك الميت معه حيث سار وهو يلطم ويبكى . وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر أحد أن يتفوه أنه ميت فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول إني الآن أصلح مما كنت فأنف أمراؤه من ذلك وخرج بعضهم عن طاعته فضعف أمر جلال الدين لذلك ولكسرت من الملك الأشرف فتمكن التتر من البلاد واستولوا على مراغة وهو استيلاؤهم الثاني .

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجئ إليه ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه فهرب جلال الدين وقتل على ما نترحه إن شاء الله تعالى .

ولما قتل تمكن التتر من البلاد وساقوا حتى وصلوا في هذه السنة إلى الفرات واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات ثم شنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة وفعلوا من القتل والتخريب مثل ما تقدم .

ومن تاريخ ظهور التتر : تصنيف كاتب إنشاء جلال الدين النسوى المنشى المقدم الذكر في سنة ست عشرة وستمائة ما اخترناه وأثبتناه من أخبار خوارزم شاه محمد وابنه جلال الدين لملازمة النسوى المذكور جلال الدين في جميع سفراته وغزواته إلى أن كبس التتر جلال الدين ، والمنشى المذكور كان معه فلذلك كان أخبر بأحوال جلال الدين ووالده من غيره . قال محمد المنشى المذكور : إن خوارزم شاه محمد بن تكش عظم شأنه واتسع ملكه وكان له أربعة أولاد قسم البلاد بينهم ، أكبرهم جلال الدين منكبرنى وفوض إليه ملك غزنة وباميان والغور وبست وتكباد وزمير داور وما يليها من الهند ، وفوض خوارزم وخراسان ومازندران إلى ولده قطب الدين أزلاغ شاه وجعله ولى عهده ، ثم في آخر وقت عزله عن ولاية العهد وفوضها إلى جلال الدين منكبرنى ، وفوض كرمان وكبش ومكران إلى ولده غياث الدين تيز شاه ، وقد تقدمت أخباره ، وفوض العراق إلى ولده ركن الدين غورشاه يحيى ، وكان أحسن أولاده خلقاً وخلقاً ، وقتل المذكور التتر بعد موت أبيه ، وضرب لكل واحد منهم النوب الخمس في أوقات الصلوات على عادة الملوك السلجوقية ، وانفرد أبوه خوارزم شاه محمد بنوبة ذى القرنين وأنها تضرب وقتى طلوع الشمس وغروبها ، وكانت دبابه سبعا وعشرين

دبابة من الذهب قد رصعت بأنواع الجواهر وكذا باقى الآلات النوبتية وجعل سبعة وعشرين ملكا يضرّبونها فى أول يوم قرعت ، وكانوا من أكابر الملوك أولاد السلاطين منهم طغريل بن أرسلان السلجوقى ، وأولاد غياث الدين صاحب الغور ، والملك علاء الدين صاحب باميان والملك تاج الدين صاحب بلخ وولده الملك الأعظم صاحب ترمذو الملك سنجر صاحب بخارى وأشباههم وكانت أم خوارزم شاه محمد ترکان خاتون من قبيلة بياووت وهى فرع من فروع يمسك ، وكانت بنت ملك من ملوكهم تزوج بها تكش بن أرسلان بن أطرز بن محمد بن أنوشتكين غرنه ، فلما صار الملك إلى ولده محمد بن تكش قدم إلى والدته ترکان خاتون قبائل يمسك من الترك فعظم شأن ابنها السلطان محمد بهم وتحكمت أيضا بسببهم ترکان خاتون فى الملك فلم يملك ابنها إقليما إلا وأفرد لخاصها منه ناحية جليلة ، وكانت ذات مهابة ورأى وكانت تنتصف للمظلوم من الظالم وكانت جسورة على القتل وعظم شأنها بحيث إذا ورد توقيعان عنها وعن السلطان ابنها تنظر إلى تاريخهما فيعمل بالأخير منها وكان طغر توقيعها عصمة الدنيا والدين ألغ ترکان ملكة نساء العالمين وعلامتها اعتصمت بالله وحده ، وكانت تكتبها بقلم غليظ . وتجود الكتابة .

قال المؤلف المذكور : ثم إن خوارزم شاه محمد لما هرب من التتر بما وراء النهر وعبر جيحون ثم سار إلى خراسان والتتر تتبعه ثم هرب من خراسان ووصل إلى عراق العجم ونزل عند بسطان أحضر عشرة صناديق ثم قال إنها كلها جواهر لا تعلم قيمتها ثم أنسار إلى صندوقين منها وقال إن فيهما من الجواهر ما يساوى خراج الأرض بجمعيتها ، ثم أمر بحملها إلى قلعة أزدغن وهى من أحصن قلاع الأرض وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة ، فلما استولى جنكز خان على تلك البلاد حملت إليه الصناديق المذكورة بختومها ، ثم إن التتر أدركوا السلطان محمد المذكور فهرب وركب فى المركب ولحقه التتر ورموه بالنساب ونجا السلطان منهم وقد حصل له مرض ذات الجنب .

قال : ووصل إلى جزيرة فى البحر وأقام بها فريداً طريداً لا يملك طارقاً ولا تليداً والمرض يزداد وكان فى أهل مازندران أناس يتقربون إليه بالمأكول وما يشتهيهِ فقال فى بعض الأيام إنى أنتهى يكون عندى فرس يرعى حول خيمتى وقد ضربت له خيمة صغيرة فأهدى إليه فرس أصفر وكان للسلطان محمد المذكور ثلاثون ألف جشار من الخيل وكان إذا أهدى إليه أحد شيئاً وهو على تلك الحالة فى الجزيرة من مأكول وغيره يطلق لذلك الشخص شيئاً ولم يكن عنده من يكتب التواريخ فيتولى ذلك الرجل كتابة توقيعه بنفسه وكان يعطى مثل السكين والمنديل علامة بإطلاق البلاد والأموال ، فلما تولى ابنه جلال الدين أمضى جميع ما أطلقه والده بالتواريخ والعلائم ، ثم أدركت السلطان محمد المنية وهو بالجزيرة على تلك الحالة فغسله شمس الدين

محمود بن بلاغ الجاويش ومقرب الدين مقدم القرائين ولم يكن عنده ما يكفن به فكفن بقميصه ودفن بالجزيرة في سنة سبع عشرة وستمائة بعد أن كان بابه مزدحماً بملوك الأرض وعظمائها يشتدرون بجنابه ويتفاخرون بلثم ترابه ، ورقى إلى درجة الملوكية جماعة من مماليكه وحاشيته فصار طشتداره وركيداره وسلحداره وجنداره وغيرهم من أرباب الوظائف كلهم ملوكاً ، وكان في أعلامهم علامات سود يعرفون بها ، فعلاصة الدوادار الدواه والسلحدار القوس وعلاصة الطشتدار المسينة والجمدار النفجه وعلاصة أميرأخور النعل وعلاصة الجاويشية قبة ذهب ، وكان يمد السماط بين يديه ويأكل الناس ويرفع من الطعام الذي في صدر السماط إلى بين يدي الأكابر إذا قعدوا على السماط للأكل ، وكانت الزبادي كلها ذهبية وفضية ، وكان السلطان محمد المذكور يختص بأمور لا يشاركه فيها أحد منها المجتر منتوراً على رأسه إذا ركب ومنها اللبح وهي أنبوبة تتخذ من الذهب الأحمر بين أذني مركوب السلطان يخرج منها المعرفة وتشد إلى طرف اللجام ، ومنها الأعلام السود والسروج السود والنفج السود محمولة على أكتاف الجمدارية ولا تحمل لغيره على الكتف ، ومنها أن جنائبه كانت تجر قدامه وجنائب غيره من الملوك كانت تجر وراءهم ، ومنها أن أذنان خيله تلف من أوساطها مدار شبرين ، ومنها الجلوس بين يديه على الركبتين لمن يريد مخاطبته .

قال المؤلف المذكور : ثم سار جلال الدين بعد موت أبيه السلطان محمد من الجزيرة إلى خوارزم ثم هرب من التتر ولحق بغزنة وجرى بينه وبين التتر من القتال ، فهرب جلال الدين من غزنة إلى الهند فلحقه جنكزخان على ماء السند وتصافقا صبيحة يوم الأربعاء لثمان خلون من شوال سنة ثمانى عشرة وستمائة ، وكانت الكرة أولاً على جنكزخان ثم عادت على جلال الدين وحال بينهما الليل ، وولى جلال الدين منهزماً وأسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع أو ثمان سنين وقتل بين يدي جنكزخان صبراً ، ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيراً ورأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بالله عليك اقتلنا أو خلصنا من الأسر فأمر بهن فغرفن وهذه من عجائب البلايا ونوادير المصائب والرزايا ثم اقتحم جلال الدين وعسكره ذلك النهر العظيم فنجا منهم إلى ذلك البر تقدير أربعة آلاف رجل حفاة عراة ورمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصة إلى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام وبقي أصحابه لفقده حائرين وفي تيه الفكر سائرين إلى أن اتصل بهم جلال الدين فاعتدوا بمقدمه عيداً وظنوا أنهم أنشئوا خلقاً جديداً ، ثم جرى بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين ووصل إلى لهاوور من الهند ، ولما عزم جلال الدين على العود إلى جهة العراق استتاب بهلوان أذربك على ما كان يملكه من بلاد الهند واستتاب معه حسن فراق ولقبه وفا ملك وفي سنة سبع وعشرين وستمائة طرد وفا ملك بهلوان أذربك واستولى وفاملك على ما كان يليه البهلوان من بلاد الهند ، ثم إن جلال الدين عاد من الهند ووصل إلى كرمان في سنة إحدى وعشرين

وستمائة وقاسى هو وعسكره فى البرارى القاطعة بين كرمان والهند شدائد ووصل معه أربعة آلاف رجل بعضهم ركاب أبقار وبعضهم ركاب حمير ، ثم سار جلال الدين إلى خورستان واستولى عليها ثم استولى على أذربيجان ثم استولى على كنجة وسائر بلاد أران ثم إن جلال الدين نفل أباه من الجزيرة إلى قلعة أزدغن ودفنه بها ، ولما استولى التتر على القلعة المذكورة نبشوه وأحرقوه وهذا كان فعلهم فى كل ملك عرفوا قبره فإنهم نبشوا محمود بن سبكتكين من غزنة وأحرقوا عظامه .

ثم ذكر ما تقدمت الإشارة إليه من استيلاء جلال الدين على خلّاط وغير ذلك ، ثم ذكر نزوله على جسر قريب آمد وإرساله يستنجد الملك الأنسرف ابن الملك العادل فلم ينجده ، وعزم جلال الدين على المسير إلى أصفهان ثم انتفى عزمه عنه وبات بمنزله وشرب تلك الليلة فسكر سكرًا خماره دوار الرأس وتقطع الأنفاس وأحاط التتر به وبعسكره مصبحين :

فماهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

وأحاطت أطلاب التتر بحركات جلال الدين وهونائم سكران فحمل بعض عسكره وهو أرخان وكشف التتر عن الحركات ودخل بعض الخواص وأخذ بيد جلال الدين وأخرجه وعليه طاقية بيضاء فأركبه الفرس وساق أرخان مع جلال الدين وتبعه التتر فقال جلال الدين لأرخان انفرد عني بحيث تشتغل التتر بتتبع سوادك وكان ذلك خطأ منه فإن أرخان تبعه جماعة من العسكر وصاروا تقدير أربعة آلاف فارس وقصد أصفهان واستولى عليها مدة ، ولما انفرد جلال الدين عن أرخان ساق إلى بأسورة آمد فلم يمكن من الدخول إلى آمد ، فسار إلى قرية من قرى ميا فارقين طالبا شهاب الدين غازى ابن الملك العادل صاحب ميا فارقين ، ثم لحقه التتر فى تلك القرية فهرب جلال الدين إلى جبل هناك وبه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وشلحوه وأرادوا قتله فقال جلال الدين لأحدهم إني أنا السلطان فاستبقنى أجعلك ملكا فأخذه الكردي وأتى به إلى امرأته وجعله عندها ومضى الكردي إلى الجبل لإحضار ماله هناك فحضر شخص كردي ومعه حربة وقال للمرأة لم لا تقتلون هذا الخوارزمى فقالت المرأة لا سبيل إلى ذلك فقد أمنه زوجى ، فقال الكردي إنه السلطان وقد قتل لى أخا بخلاط خيرا منه وضربه بالحربة فقتله ، وكان جلال الدين أسمر قصيرا تركى السارة والعبارة وكان يتكلم بالفارسية أيضا ويكتب الخليفة على مبدأ الأمر على ما كان يكتبه به أبوه خوارزم شاه محمد ، فكان يكتب خادمه المطواع منكبرنى ثم بعد أخذ خلّاط كاتبه بعبد ، وكان يكتب إلى ملك الروم وملوك مصر والشام اسمه واسم أبيه ولم يرض أن يكتب لأحد منهم خادمه أو أخوه أو غير ذلك ، وكانت علامته على تواقيعه النصر من الله وحده وكان إذا كتب صاحب الموصل أو أتابه

يكتب له هذه العلامة تعظيماً عن ذكر اسمه ، وكان يكتب العلامة بقلم غليظ وكان جلال الدين بخاطب بخزاوند عالم أى صاحب العالم وكان مفتله فى منتصف سوال من هذه السنة أعنى سنة ثمان وعشرين وستمائة .

وهذا ما نقلناه من تاريخ محمد المنتشى وهو ممن كان فى خدمه جلال الدين إلى أن قتل ، وكان كاتب الإنشاء الذى له وكان محظياً متقدماً عنده .

ذكر غير ذلك

وفى هذه السنة : انتهى التاريخ الكامل تأليف الشيخ عز الدين على المعروف بابن الأثير الجزرى المنشور غالب هذا المختصر منه فإنه ألفه من هبوط آدم إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وتوفى عز الدين ابن الأثير المذكور فى سنة ثلاثين وستمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى بعد آخر تاريخه بسنتين .

وفيهما : فى ذى القعدة توفى بالقاهرة أبو الحسن يحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوى النحوى الحنفى ، كان أحد أئمة عصره فى النحو واللغة وسكن دمشق زمناً طويلاً وصنف تصانيف مفيدة منها منظومته الألفية المسهورة ، وكان مولده سنة أربع وستين وخمسة ، والزواوى منسوب إلى زواوة وهى قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال أفريقية .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة :

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية والملك المظفر بحماة مالکها ومعها المعرة وأخوه الملك الناصر فليح أرسلان بيارين مالکها والعزیز محمد بن الظاهر غازى قد استغل بملك حلب والتز قد استولوا على بلاد العجم كلها والخليفة المستنصر بالعراق ، ثم ارتحل فى هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية فسار الملك الكامل إلى التوبك واحتفل له الملك الناصر دادود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب احتفالاً عظيماً بالضيافات والإقامات والتقدم وحصل بينها الاتحاد التام ، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك وهى منزلة الحجاج فى العشر الأخير من شعبان هذه السنة ، ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقياً وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعل نائبه بمصر وولده وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ثم سار الملك الكامل ونزل سلمية واجتمع معه ملوك أهل

بيته في جمع عظيم ، تم سار بهم إلى آمد وحصرها وتسلمها من صاحبها الملك المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذي ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان ، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس ، وكان له عجوز قوادة يقال لها الإزاء كانت تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر ونساء الملوك ، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ، ومن جملة معافله حصن كيفا وهو في غاية الحصانة أحسن الملك الكامل إلى الملك المسعود وأعطاه أقطاعا جليلة بديار مصر ، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها ، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل فخرج من الاعتقال واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة ، ثم سافر الملك المسعود المذكور إلى الشرق واتصل بالتر فقتلوه .

ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وجعل معه سمس الدين صواب العادلي وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق ، ولما خرج الملك الكامل من مصر في هذه السنة خرج صحبته وبناته فاطمة خاتون وزوجة الملك العزيز صاحب حلب وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل ، وحلب كل منها إلى بعلها واحتفل لدخولها بحماة وحلب .

وفي هذه السنة : ظنا توفي على ابن رسول النائب على اليمن واستقر مكانه ولده عمر بن على .

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة :

في هذه السنة : رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها وسار إلى ديار مصر ورجع كل ملك إلى بلده .

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية ، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي ، ثم اعتقل الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهي سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه ، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من

الملك الصالح إسماعيل ، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين ، وصاروا من أكبر أمرائه ، وكانت شيزر إقطاع سابق الدين المذكور فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها حماد دكن ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة ، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعداً له ، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز ونزل إلى خدمته فتسلمها في هذه السنة وهنا الملك العزيز يحيى بن خالد بن قيسراني بقوله :

يا مالكا عم أهل الأرض نائله وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصرك في أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

ثم ولي الملك العزيز على شيزر وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة ورحل كل منها إلى بلده .

وفي هذه السنة : استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل في انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم فأذن الملك الكامل له في ذلك ، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله في الإقامة عنده بحماة ، فامتنع وسار إلى مصر ، فبذل له الملك الكامل إقطاعاً جليلاً وأطلق له أملاك جده بدمشق ، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور في الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة قبل موت الملك الكامل بأيام .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : توفي مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كجك وقد تقدم ذكر ملكه أربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين على في سنة ست وثمانين وخمسمائة لما كانا في خدمة السلطان صلاح الدين في الجهاد بالساحل فبقي مالكاها من تلك السنة إلى هذه السنة ، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بأربل وبلادها للخليفة المستنصر فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور ، وكان مظفر الدين ملكاً شجاعاً وفيه عسف في استخراج الأموال من الرعية ، وكان يحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وينفق فيه الأموال الجليلة

وفيها : في شعبان توفي الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ولد بجزيرة ابن عمر في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ونشأ بها ، ثم سار إلى الموصل مع والده وإخوته وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي ومن في طبقته ، وقدم بغداد مراراً حاجاً ورسولاً من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة وعبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما ، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته للتوفير على العلم ، وكان إماماً في علم الحديث وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم ، صنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه الكامل وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ، ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات واختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو الموجود في أيدي الناس دون كتاب السمعياني وورد إلى حلب في سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشي طغريل الأتابك بحلب فأكرمه إكراماً زائداً ، ثم سافر إلى دمشق سنة سبع وعشرين ثم عاد إلى حلب في سنة ثمان وعشرين ، ثم توجه إلى الموصل فتوفي بها في التاريخ المذكور ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة :

في هذه السنة : في المحرم توفي شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب .

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقياذ ملك بلاد الروم

في هذه السنة : وقع من كيقياذ بن كيخسرو ملك بلاد الروم التعرض إلى بلاد خلاط ، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته ونزل شمالى سلمية في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق في حدود بلد الروم ، وقد ضرب في عسكره ستة عشر دهليزاً لسته عشر ملكاً في خدمته منهم إخوته الملك الأشرف موسى صاحب دمشق والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر والصالح إسماعيل أولاد الملك العادل والملك المعظم توران شاه ابن

السلطان صلاح الدين كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب متقدماً على منسكرك حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب صميمات ابن السلطان صلاح الدين وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل على والملك المظفر محمود صاحب حماة ابن الملك المنصور محمد والملك الصالح أحمد صاحب عينتاب ابن الملك الظاهر صاحب حلب ، والملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بن محمد بن شيركوه ، وكان قد حفظ كيقباز ملك بلاد الروم الدربندات بالرجال والمقاتلة ، فلم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم من جهة النهر الأزرق ، وأرسل بعض العسكر إلى حصن منصور وهو من بلاد كيقباز فهدموه ، ورحل السلطان وقطع الفرات ، وسار إلى السويداء و قدم بجاسته تقدير ألفين وخمسمائة فارس مع الملك المظفر صاحب حماة ، فسار الملك المظفر بهم إلى خَرْتَبَرْت وسار كيقباز ملك الروم إليهم واقتتلوا فانهزم العسكر الكامل وانحصر الملك المظفر صاحب حماة في خَرْتَبَرْت مع جملة مع العسكر وجد كيقباز في حصارهم والملك الكامل بالسويداء ، وقد أعس من الملوك الذين في خدمته بالمخامره والتقاعد ، فإن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم وقال إن السلطان ذكر أنه منى ملك بلاد الروم فرقه على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر ، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامل بذلك فما أمكنه التحرك إلى قتال كيقباز لذلك ، ودام الحصار على الملك المظفر صاحب حماة فطلب الأمان فأمنه كيقباز ونزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباز وخلع عليه وناداه ، وتسلم كيقباز خَرْتَبَرْت وأخذها من صاحبها ، وكان من الأرتقية قراب أصحاب مارددين ، وكان قد دخل في طاعة الملك الكامل وصارت خَرْتَبَرْت من بلاد كيقباز ، وكان نزول المظفر صاحب حماة من خَرْتَبَرْت يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة ، وأقام عند كيقباز يومين ثم أطلقه وسار من عنده الخمس بقين من ذى القعدة من هذه السنة ، أعني سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، ووصل بمن معه إلى الملك الكامل وهو بالسويداء من بلاد آمد ففرح به وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صاحب الكرك ، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود وأثبت الملك الكامل طلاقها منه .

وفي هذه السنة : استتم بناء قلعة المعرة ، وكان قد أشار سيف الدين على بن أبي على لهدباني على الملك المظفر صاحب حماة بينائها فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ، ولم يكن ذلك مصلحة لأن الحليين حاصروها فيما بعد وأخذوها وقربت المعرة بسببها .

وفي هذه السنة : توفي سيف الدين الأمدى وكان فاضلاً في العلوم العقلية والأصولية

وغيرها واسمه على بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي ، وكان في مبتدأ أمره حنبلياً ، ثم انتقل وصار فقيهاً شافعيّاً ، واشتغل بالأصول وصنف في أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات ، وأقام بمصر مدة وتصدر في الجامع وفي المدرسة الملاصقة لتربة الشافعي ، وتحامل عليه الفقهاء الفضلاء وعملوا محضراً ونسبوه فيه إلى انحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة ، وحملوا المحضر إلى بعض الفقهاء الفضلاء ليكتب خطه حسبما وضعوا خطوطهم به فكتب :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم

ولما جرى ذلك استتر الآمدي المذكور وسار إلى حماة وأقام فيها مدة ، ثم عاد إلى دمشق حتى توفي بها في هذه السنة ، وكانت ولادته في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .
وفيها : توفي صلاح الأربلي ، وكان فاضلاً شاعراً أميراً محظياً عند الملكين الكامل والأشرف ابني الملك العادل .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة :

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذي حصل في عسكره ، ثم رحل وعاد إلى مصر وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده .
وفيها : توفي الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين ، وكان قد مرض في العسكر الكامل فحمل إلى البيرة مريضاً وتوفي بها وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب ، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب .

وفيها : توفي القاضي بهاء الدين بن شداد في صفر ، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة ، وصحب السلطان صلاح الدين وكان فاضلي عسكره ، ولما توفي صلاح الدين كان عمر القاضي المذكور نحو خمسين سنة ، ونال القاضي بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل ما لم ينلها أحد ، ولم يكن في أيامه من اسمه شداد بل لعل ذلك في نسب أمه فاستهر به وغلب عليه ، وأصله من الموصل ، وكان فاضلاً ديناً وكان إقطاعه على الملك العزيز ما يزيد على مائة ألف درهم في السنة .

وفيها : لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل ، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة ، أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، فتضاعف السرور بقدم الوالد والولد قال الشيخ سرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة في ذلك فمناها :

غدا الملك محروس الذرى والقواعد بأشرف مولود لأشرف والد

حينما به يوم الخميس كأنه خميس بدا للناس في شخص واحد
وسميت به باسم النبي محمد وجديه فاستوفى جميع المحامد
أى باسم جد به الملك الكامل محمد والد والدته والملك المنصور محمد صاحب حماة والد
والد
ومها

كأنى به فى شدة الملك حالنا وقد ساد فى اوصافه كل سائد
ورافاك من أبنائه وبنينهم بأنجم سعد نورها غير حامد
ألا أيها الملك المظفر دعوى ستورى ها زندى ويستد ساعدى
هبتا لك الملك الذى يهدومه سرحل عسا كل هم معاود
وفيهما : لما تفرقت العساكر الكاملية ، قصد كيقباد بن كيوخرو صاحب بلاد الروم حران
والرها وحاصرها واستولى عليها ، وكانا للسلطان الملك الكامل .
وفيهما : توفى بالقاهرة القاسم بن عمر بن على الحموى المصرى الدار المعروف بابن
الفارض ، وله أشعار جيدة منها قصيدته التى عملها على طريقة الفقراء وهى مقدار ستمائة
بيت .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة :

فى هذه السنة : سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة المستنصر لما
حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل ، وقدم إلى الخليفة تحفاً عظيمة وجواهر نفيسة ،
فاكرمه الخليفة المستنصر وخلع عليه وعلى أصحابه ، وكان الناصر داود يظن أن الخليفة
يستحضره فى ملا من الناس كما استحضر مظفر الدين صاحب أربل فلم يحصل له ذلك وألح فى
طلب ذلك من الخليفة فلم يجب فعلم الناصر المذكور قصيدة يمدح المستنصر فيها ويعرض
بصاحب أربل واستحضره ويطلب الأسوة به وهى قصيدة طويلة منها :

فأنت الإمام العدل والمفرق الذى به شرفت أنسابه ومناصبه
جمعت شتيت المجد بعد افتراقه وفرقت جمع المال فأنهال كاتبه
ألا يا أمير المؤمنين ومن غدت على كاهل الجوزاء تعلو مراتبه
أبحسن فى شرع المعالى ودينها وأنت الذى تعزى اليك مذاهبه
بأنى أخوض الدو والدو مقفر مآرييه مغبرة وسبابيه
وقد رصد الأعداء لى كل مرصد فكلهم نحوى تدب عقاربهم

ومنها :

وتسمح لي بالمال والجاه . بغيتي
 ويأتيك غيري من بلاد قريبة
 فيلقى دنوا منك لم ألق مثله
 وينظر من لآء قدمك نظرة
 ولو كان يعلوني بنفس ورتبة
 لكنت أسلى النفس عما أرومه
 ولكنه مثلى ولو قلت أنني
 وما أنا ممن يملأ المال عينه
 وما الجاه إلا بعض ما أنت واهبه
 له الأمن فيها صاحب لا يجانبه
 ويحظى وما أحظى بما أنا طالبه
 فيرجع والنور الإمامي صاحبه
 وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
 وكنت أزدود العين عما يراقبه
 أزيد عليه لم يعب ذاك عائنه
 ولا يسوى التقريب تفضي مآربه

وكان الخليفة متوقفا على استحضر الناصر داود رعاية لخاطر الملك الكامل فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلا ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك .

وفي هذه السنة : سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية واسترجع حران والرها من يد كيقباز صاحب بلاد الروم وأمسك أجناد كيقباز ونوابه الذين كانوا بها وقيدهم وأرسلهم إلى مصر فلم يستحسن ذلك منه ، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق وأقام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة .

وفي هذه السنة : توفي شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعي الشاعر المشهور ، وكان شاعرا مقلداً وكان يكثر هجو الناس ، عمل قصيدة خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض لم يسلم منها أحد من أهل دمشق ، ونفاه السلطان صلاح الدين إلى اليمن فمدح صاحبها طغتكين بن أيوب وحصل له منه أموال كثيرة عمل بها ابن عنين متجراً وقدم به إلى مصر وصاحبها حينئذ العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فلما أخذت من ابن عنين زكاة ما معه على عادة التجار قال في العزيز :

ما كان من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق سحبه غدقه
 بين العزيزين يون في فعالها هناك يعطى وهذا يأخذ الصدقه

ثم سار ابن عنين المذكور إلى دمشق ولازم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبقي عنده وتوفي بدمشق في هذه السنة وديوانه مشهور .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمئة :

فيها : عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية .

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفي هذه السنة : كان قد خرج الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى واشتد مرضه وتوفي في ربيع الأول من هذه السنة ، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً ، وكان حسن السيرة في رعيته ، ولما توفي تقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد وعمره نحو سبع سنين ، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمني وعز الدين عمر بن مجلى وجمال الدولة إقبال الخاتوني والمرجع في الأمور إلى والده الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل .

وفي هذه السنة : توفي علاء الدين كيقباز بن كيخسرو صاحب بلاد الروم وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطالمش بن أرسلان بن سلجوق .

وفي هذه السنة : قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف وكان ابتداءها ما فعله سيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل ومع باقى الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل ، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إلى أن خرج من مصر ، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرم إنك إن وافقتني جعلتك ولى عهدي وأوصيت لك بدمشق وزوجتك بابتني فلم يوافق الناصر على ذلك لسوء حظه ، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل وصار معه على ملوك الشام فسر به الملك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التي طلقها منه وأركب الناصر داود بسناجق السلطنة ووعد أن ينتزع دمشق من الملك الأشرف أيه ويعطيه إياها وأمر الملك الكامل أمراء مصر وولده الملك العادل أبا بكر ابن الملك الكامل فحملوا الفاشية بين يدي الملك الناصر داود وبالف في إكرامه .

وفي هذه السنة : توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداوية بعد ما فتحها السلطان صلاح الدين وخربها وأشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دريساك وهى حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر

فيهم القتل والأسر ، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورووس الفرنج ، وكانت هذه الواقعة من أجل الوقائع .

وفي هذه السنة : استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وهو بالبلاد الشرقية وهي آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائبا عن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرني فإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباز ملك بلاد الروم وخدموا عنده ، وكان فيهم عدة مقدمين مثل بركب خان وكشلو خان وصاروخان وفرخان وبردي خان .

فلما مات كيقباز وتولى ابنه كيخسر وقبض على بركب خان وهو أكبر مقدميهم ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم فاستملمهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة :

وقد استحسنت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف وقد لحق الملك الأشرف الذرب وضعف بسببه وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى .

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفي هذه السنة : توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفي في المحرم من هذه السنة ، وتلك دمشق أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه ، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهوراً وعمره نحو ستين سنة ، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجلييلة النفيسة ، وكان ميمون النقيبة لم تهزم له راية وكان سعيداً ويتفق له أشياء خارقة للعقل ، وكان حسن العقيدة وبني بدمشق قصوراً ومنتزهات حسنة وكان منهمكا في اللذات وسماع الأغاني فلما مرض أقبل عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى أن توفي ودفن في تربته بجانب الجامع ، ولم يخلف من الأولاد إلا بنتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل بعد ما كان بينهما من المصافاة أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لا تفي بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق ، وأيضاً لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزد منها شيئاً وأيضاً بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بصر والشام وينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ، ولما استقر الملك الصالح إسماعيل في ملك

دمشق كتب إلى الملوك من أهله وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة ، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتباهه إليه وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفاً منه فقبل الملك الكامل عذره وتحقق صدق ولأثله ووعدته بانتزاع سَلْمِيَّة من صاحب حمص وتسليمها إليه .

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ووفاته وما يتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لا يشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينها .
وأما الملك الصالح إسماعيل فإنه استعد للحصار ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص ونازل الملك الكامل دمشق وأخرج الملك الصالح إسماعيل النفاطين فأحرق العقبية جميعها ، وما بها من خانات وأسواق ، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزيدون على خمسين راجلا نجدة للصالح إسماعيل وظفر بهم الملك الكامل فشنتهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسلامة فتسلمها الملك المظفر واستقرت نوابه بها ، وكان نزول الملك الكامل على دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة في قوة الشتاء ، ثم سلم الملك الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً إلى بصرى ، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محبى الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزى رسولا للتوفيق بين الملوك فتسلم الملك الكامل دمشق لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، وكان الملك الكامل شديد الحق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص ، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة ونزل على الرستن واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع الملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخل على الملك الكامل فلم يلتفت إلى ذلك ، ثم بعد استقرار الملك الكامل في دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض واشتد مرضه ، وكان سببه أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورمت منها وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته وعمره نحو ستين سنة ، وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعني سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر ، وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة ، وكان بها نائباً قبل ذلك قريباً من عشرين سنة ، فحكم

في مصر نائباً وملكاً نحو أربعين سنة ، وأشعبه حاله حال معاوية بن أبي سفيان ، فإنه حكم في الشام نائباً نحو عشرين وملكاً نحو عشرين ، وكان الملك الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير ، أمنت الطرق في أيامه ، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحداً بعده ، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها فعمرت في أيامه ديار مصر أتم العمارة ، وكان محباً للعلماء ومجالستهم وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته ، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية تقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية وبني له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي ، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى .

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه من أكابر دولته وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ وإخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور ، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتي السيف والقلم ، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش .

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفق آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر ، فحلف له جميع العسكر وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائباً عن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل ، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه إن أقام ، فرحل الملك الناصر داود إلى الكرك وتفرقت العساكر فصار أكثرهم إلى مصر ، وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ وبقي يباشر الأمور مع الملك الجواد ، ولما بلغ شيركوه صاحب حمص وفاة الملك الكامل فرح فرحاً عظيماً وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به وأظهر سروراً عظيماً ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو في عشر السبعين .

وأما الملك المظفر صاحب حماة فإنه حزن لذلك حزناً عظيماً ورحل من الرستن وعاد إلى حماة وأقام فيها للعزاء ، وأرسل صاحب حمص ارتجع سَلْمِيَّة من نواب الملك المظفر وقطع القناة الواصلة من سَلْمِيَّة إلى حماة فبيست بساتينها ثم عزم على قطع النهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حمص فبطلت نواكير حماة والطواحين وذهب ماء العاصي في أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد له الماء مسلكاً عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجري كما كان أولاً وكذلك كان قد حصل لصاحب حلب ولعسكرها الخوف من الملك الكامل فلما بلغهم موته أمنوا من ذلك .

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة .

ولما بلغ الحلبيين موتُ الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر صاحب حماة وحاصروا قلعتها وخرجت المعرة حينئذ عن ملك الملك المظفر صاحب حماة ثم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة ونازلوا حماة وبها صاحبها الملك المظفر ونهب العسكر الحلبي بلاد حماة واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب وهي صغيرة حينئذ وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضى دوقات ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباز المذكور وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب .

وفيها : خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل ونهبوا البلاد .

وفيها : سار لولو صاحب الموصل وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته ، واتقع مع بدر الدين لولو صاحب الموصل فانهزم لولو وعسكره هزيمة قبيحة وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئا كثيرا .

وفي هذه السنة : جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولى على دمشق مصاف بين جينين ونابلس انتصر فيه الملك الجواد يونس وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوى الملك الجواد بسبب هذه الواقعة وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله .

وفي أواخر هذه السنة : ولد والدى الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر صاحب حماة .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة :

في هذه السنة : رحل عسكر حلب المحاصرة لحماة بعد مولد الملك الأفضل ، وكان قد طال مدة حصارهم لحماة وضجروا فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل، عنها فرحلوا ، وضاق الأمر على الملك المظفر في هذا الحصار وأنفق فيه أموالا كثيرة ، واستمرت المعرة في يد الحلبيين وسلمية في يد صاحب حمص ، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين ، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدما فهدمت إلى الأرض في هذه السنة .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفي هذه السنة : في جمادى الآخرة ، استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها بتسليم الملك الجواد يونس ، وأخذ العوض عنها سنجار والركة وعانة ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق ، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ لينتزع دمشق منه ، وأن يعرض عنها إقطاعاً بمصر ، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبما ذكرناه ، وجهاز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة ، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله .

ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضداً له ، وكان قد لاقاه إلى أثناء الطريق ، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور في ملك دمشق ، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها .

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها وسأله الملك المظفر صاحب حماة في منازلة حمص وأخذها من شيركوه فبرز إلى الثنية ، وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص فأرسل شيركوه مالا كثيراً وفرقه في الخوارزمية فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية ، ورحل صاحب حماة إلى حماة ثم كر الملك الصالح عائداً إلى دمشق طالبا مصر ، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفرين .

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن

الملك الصالح وشرع الملك الصالح يكتب عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه وعمه إسماعيل المذكور تحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق وأخذها من الصالح أيوب ، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب .
 ووصل أيضًا في هذه السنة محيي الدين ابن الجوزي رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولى على دمشق ، وهذا محيي الدين هو الذي حضر ليصلح بين الكامل والأشرف فاتفق أنه مات في حضوره في سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم : الملك الكامل صاحب مصر ، وأخوه الأشرف صاحب دمشق ، والعزیز صاحب حلب ، وكيقباذ صاحب بلاد الروم ، فقال في ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق :

يا إمام الهدى أبا جعفر المنصور	يا من له الفخار الأثيل
ما جرى من رسولك الآن محيي الدين	في هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى	وغداً والديار منهم طول
أقفر الروم والشام ومصر	أفهدا مغسل أم رسول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة :

في هذه السنة : في صفر سار الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعها وهجموا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح إسماعيل وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب ، وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر ، وكان قد بلغه سعى عمه إسماعيل في الباطن ، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بإخبار الصالح صاحب بعلبك وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضر . وأكرمه وسرق الحمام التي لنابلس وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك فصار الطبيب المذكور يكتب أن عمك إسماعيل قد جمع وهو في نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير بعلبك فيأخذ الصالح إسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم أن عمك إسماعيل قد جمع ليعاضدك وهو واصل إليك ويسرجه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم ويترك ما يرد إليه من غيره من الأخبار واتفق أيضًا أن الملك المظفر صاحب حماة علم بسعى الصالح إسماعيل صاحب بعلبك في أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها فجهز نائبه سيف الدين علي بن أبي علي ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم وجهازهم من السلاح

والمال شيئاً كثيراً ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها وأظهر الملك المظفر وابن أبي علي أنها قد اختصا وأن ابن أبي علي قد غضب واجتمع معه هذه الجماعة وقد قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج كل ذلك خوفاً من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي علي ويمنعه فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة ، ولما وصل ابن أبي علي إلى بحيرة حمص قصد شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي علي معه وأرسل من استدعى باقى أصحاب ابن أبي علي إلى الضيافة ، فمنهم من سمع ودخل إلى حمص ، ومنهم من هرب فسلم ، فلما حصلوا عنده بجمع قبض على ابن أبي علي وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين ، واستولى على جميع ما كان معهم من السلاح والخزائن ، وبقي يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاهم . ومات ابن أبي علي وغيره في حبسه بجمع والذي سلم وبقي إلى بعد موت شيركوه خلص ، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفاً كثيراً ، وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه إسماعيل دمشق رحل من نابلس إلى الغور فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق واعتقال ولده المغيث عمر ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق ، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير بماليكه وأستاذ داره حسام الدين ابن أبي علي ، وأصبح الملك الصالح أيوب لا يدري ما يفعل ولا له موضع يقصده فقصده نابلس ونزل بها بمن بقى معه ، وسمع الناصر داود بذلك وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره ، وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره ، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقى أصحابه وبماليكه ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة ، ولما جرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود فلم يسلمه الناصر داود فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر يأخذه بلاده فلم يلتفت إلى ذلك .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك فصد الناصر داود القدس ، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصروها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضاً فإنه لما خربت القدس أولاً لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة .

وفي هذه السنة : توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بن ناصر الدين محمد بن

شيركوه بن شاذى وكانت مدة ملكه بـحمص نحو ست وخمسين سنة لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بعد موت أبيه محمد بن شيركوه وكان عمره يومئذ نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان شيركوه المذكور عسوقاً لرعيته وملك حمص بعده ولده الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه .

وفى هذه السنة : استولى بدر الدين لولو صاحب الموصل على سنجار وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل .

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفى هذه السنة : فى أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب واجتمعت عليه مماليكه وكاتبه إليها زهير وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود ، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول فى يمينه أنه كان مكرها ثم سارا إلى غزة ، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك ، وبرز بعسكر مصر ونزل على بلييس لقصد الناصر داود والصالح أخيه ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل المستولى على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام وأن يستأصلهما فسار الصالح إسماعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار ، فبينما الناصر داود والصالح أيوب فى هذه الشدة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم أيك الأسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل وقبضوا عليه وجعلوه فى خيمة صغيرة: وعليه من يحفظه ، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله ، وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود إلى مصر وبقي فى كل يوم يتلقى الملك الصالح فوجاً بعد فوج من الأمراء والعسكر ، وكان القبض على الملك العادل ليلة الجمعة ثامن ذى القعدة من هذه السنة ، فكانت مدة ملكه نحو سنتين ، ودخل الملك الصالح أيوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحد لست بقين من الشهر المذكور وزينت له البلاد وفرج الناس بمقدمه وحصل للملك المظفر صاحب حماة من السرور والفرح بملك الملك الصالح مصر مالا يمكن شرحه فإنه ما زال على ولائه حتى إنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماة وبلادها ، ولما استقر الملك الصالح أيوب فى ملك مصر وصحبته الناصر داود حصل عند كل

واحدهمها استشعار من صاحبه وخاف الناصر داود أن يقبض عليه فطلب دستوراً وتوجه إلى ثلاثة الكرك وغيرها .

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنة : وقيل في سنة ست وثلاثين توفي ناصر الدين أرتق أرسلان ابن إيلغازي ابن البي بن تمرناش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وكان يلقب الملك المنصور وملك المذكور ماردين بعد أخيه حسام الدين بولق أرسلان حسبما تقدم ذكره في سنة ثمانين وخمسمائة ، وبقي أرتق أرسلان متغلباً عليه مملوك والده البقش حتى قتله أرتق أرسلان في سنة إحدى وستمائة ، واستقل أرتق أرسلان يملك ماردين حتى توفي في هذه السنة ، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان المذكور ، حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظناً ، ثم ملك بعده في السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازي بن أرتق أرسلان ، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظناً ، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود ابن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر ثم توفي ، وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظناً ، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم حل ماردين ذكر فيه تواريخ بني أرتق ولم اتحقق صحة ذلك وسنذكر في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة :

في هذه السنة : قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره في ملك مصر على أبيك الأسمر مقدم الماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والماليك الذين قبضوا على أخيه وأودعهم الحبوس ، وأخذ في إنشاء مماليكه ، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور في هذه السنة في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكناً لنفسه .

وفيها : نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب عن قلعة جعبر وبالس وسلمهما إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب ، وتسلم عوض ذلك أعزازو بلاداً معها تساوى ما نزل عنه ، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج وخشى من أولاده وتغلبهم عليه ففعل ذلك ، لأنه كان يبلاد قريية إلى حلب لا يمكنهم التعرض إليه .

وفي هذه السنة : كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب ، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، ووقع بينهم القتال فانهزم الحلييون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور واستولى الخوارزميون على تقال الحليين وأسروا منهم عدة كثيرة ، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك سيئاً كثيراً ، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على جبلان وكثر عندهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ذكره ، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران وما معها بعد أن خربوا بلد حلب .

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران وقطعوا الفرات من الرقة ووصلوا إلى الجبول ، ثم إلى تل أعزاز ثم إلى سرمين ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم وكان قد وصل الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولى على دمشق نجدة للحليين فاجتمع الحلييون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية ، واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شِزْر ، ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتفاء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية ثم إلى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقهم العرب فأرمت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى ووصلت الخوارزمية إلى الفرات في أواخر شعبان في هذه السنة ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص إبراهيم قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية واتقوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة ، فولى الخوارزمية منهزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم ، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة وبادر بدر الدين لولو صاحب الموصل إلى

نصيبين ودارا وكانتا للخوارزمية فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيراً في بلدة دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين فحمله بدر الدين لولو إلى الموصل وقدم له ثياباً وتحفاً وبعث به إلى عسكر حلب ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك ، واستولى صاحب حمص المنصور إبراهيم على بلد الخابور ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيتم ولم يزل ذلك بيده حتى توفي أبوه الملك الصالح أيوب بمصر وسار إليها المعظم المذكور على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وبقي ولد المعظم وهو الملك الموحد عبد الله ابن المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها .

ذكر ما كان من الملك الجواد يونس

في هذه السنة : كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على شنجار وعانة فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه ، وسار لولو صاحب الموصل وحاصر شنجار ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء فسار على البرية إلى غزة وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك فسار يونس حينئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله ثم خنقه .

وفي هذه السنة : ولي الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلي ، وكان عز الدين المذكور بدمشق فلما قوى خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر سلم الصالح إسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب ، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح إسماعيل بسبب ذلك ، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب ثم خافا من الصالح إسماعيل فسار عز الدين ابن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرهاً ، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية في النحو ، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة :

والصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك وأخلص في الانتباه إلى صاحب مصر .

وفي هذه السنة : اتفقت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل .

فيها : في شعبان أصاب بن الملك المظفر صاحب حماة الفالج وهو جالس بين أصحابه في قلعة حماة وبقي أياماً لا يتكلم ولا يتحرك وكان ذلك في أواخر فصل الشتاء وأرجف الناس بموته وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لا يكاد يفهم وكان العاطب الجانب الأيمن منه وبعث إليه الصالح صاحب مصر طبيباً حاذقاً نصرانياً يقال له النفيس ابن طليب فلم تنجع فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفي بعد سنتين وكسر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة : في ذي الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل بن أيوب بإعزاز وهي التي تعرضها عن قلعة جعبر ونقل إلى حلب فدفن في الفردوس وتسلم ثواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها .

وفيها : في شعبان توفي الشيخ العلامة . كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعه بن مالك الفقيه الشافعي ، كان إمام وقته في مذهب الشافعي وغيره ، وكان يشتغل الخنفيون عليه في مذهب أبي حنيفة ويحل الجامع الكبير في مذهب أبي حنيفة وكان متقناً علم المنطق والطبيعي والإلهي ، وكان إماماً مبرزاً في العلم الرياضي وأتقن المجسطي وأقليدس والموسيقى والحساب بأنواعه ، وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضح لهم مثله ، وكان إماماً في العربية والتصريف وكان يقرى كتاب سيوية والمفصل وغيرهما ، وكذلك كان إماماً في التفسير والحديث ، وقدم الشيخ أثير الدين الأبهري واسمه المفضل بن عمر بن المفضل إلى الموصل واشتغل على الشيخ كمال الدين المذكور ، وكان الشيخ أثير الدين الأبهري المذكور حينئذ إماماً مبرزاً في العلوم ومع ذلك يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه .

قال القاضي شمس الدين ابن خلكان : ولقد شاهدت بعيني أثير الدين الأبهري وهو يقرأ المجسطي على الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور ، واستمر سنين عديدة يشتغل عليه ، وكان الأثير إذ ذاك صاحب تصانيف يشتغل فيها الناس ، وقصد تقي الدين عثمان بن

عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح الفقيه الشافعي الشيخ كمال الدين المذكور وسأله في أن يقرئه المنطق سراً وتردد ابن الصلاح إلى الشيخ كمال الدين مدة يقرأ عليه المنطق ولا يفهمه ، فقال له ابن يونس المذكور يا فقيه المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، فقال له ابن الصلاح ولم ذلك ؟ فقال لأن الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد فكأنك تفسد عقائدهم فيك ولا يصح لك من هذا الفن شيء ، فقيل ابن الصلاح إشارته وترك قراءته ، وكان الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبية عليه ، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه فعمل فيه بعضهم :

أجذك أن قد جاد بعد التعبس غزال بوصل لي وأصبح مونسى
وعاطيته صهباء من فيه مزجها كركة شعري أو كدين ابن يونس

وكانت ولادته في صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بالموصل ، وبها توفي في التاريخ المذكور رحمه الله تعالى :

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة :

وفي هذه السنة : كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص مصاف قريب الخابور عند المجدل في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة فولى المظفر غازي والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ونهبت منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهب وطاقات الخوارزمية ونساؤهم أيضاً ونزل الملك المنصور إبراهيم في خيمة الملك المظفر غازي واحتوى على خزانته ووطاقه ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب في مستهل جمادى الأولى مؤيدين منصورين .

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهي والددة الملك العزيز

وفي هذه السنة : في ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وكان مرضها قرحة في مرق البطن وحى ودفنت بقلعة حلب ، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازي ، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب ، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فسمّاها ضيفة ، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة ، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت ، فلما توفيت غازية تزوج بأختها ضيفة

خاتون المذكورة ، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتصرفت في الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام وكانت مدة ملكها نحو ست سنين ، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف إليها والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصى الخاتوني .

ذكر وفاة المستنصر بالله

وفي هذه السنة : توفي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد بن الإمام الناصر أحمد بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهراً ، وكان حسن السيرة عادلاً في الرعية ، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة ، وجعل لها أوقافاً جليلاً على أنواع البر ، ولما مات المستنصر اتفق آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور ، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي فاستبدّ كبراء دولته بالأمر وحسنوا له قطع الأجناد وجمع المال ومداواة التتر ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة :

في هذه السنة : قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقياذ بن كيخسرو بن قليج ارسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم ، فأرسل واستنجد بالحلبين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي ، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة ، وقتل التتر وأسروا منهم خلفاً كثيراً ، وتحكمت التتر في البلاد واستولوا أيضاً على خلاط وآمد وبلادها وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعقل ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان ودخل في طاعتهم ، ثم توفي غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة حسبما ذكره إن شاء الله تعالى ، وخلف صغيرين وهما ركن الدين وعز الدين ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية وبقي ركن الدين في الملك تحت حكم التتر والحاكم البراواناه معين الدين سليمان والبرواناه لقبه وهو اسم الحاجب بالعجمي ، ثم إن البراواناه قتل ركن الدين وأقام في الملك ولداً له صغيراً .

وفيها : كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح إسماعيل صاحب دمشق

في الصلح ، وأن يطلق الصالح إسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبي علي الهدباني وكانا معتقلين عند الملك الصالح إسماعيل فأطلق حسام الدين بن أبي علي وجهه إلى مصر واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب في الاعتقال واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضد بالفرنج وسلم أيضاً إلى الفرنج عسقلان وطبرية ، فعمر الفرنج قلعتيهما وسلم أيضاً إليهم القدس بما فيه من المزارات .

قال القاضي جمال الدين بن واصل :

ومررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة :

ذكر المصاف الذي كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص

في هذه السنة : وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق حتى وصلوا إلى غزة ، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب ، وكان من أكبر مماليكه وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك ، وأرسل الملك الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، وسار صاحب حمص جريدة ودخل عكا فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك ، والتقى الفريقان بظاهر غزة فولى عسكر دمشق وصاحب حمص إبراهيم والفرنج منهزمين وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ووصلت الأسرى والرءوس إلى مصر ودقت بها البتائر عدة أيام ، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقي عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وخرجت هذه السنة وهم محاصروها .

ذكر وفاة صاحب حماة

في هذه السنة : توفي جد الملك المظفر صاحب حماة تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب يوم السبت ثمان جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام كان منها مريضاً بالفالج سنتين وتسعة أشهر وأياماً ، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له ، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان شهياً شجاعاً فطناً ذكياً ، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم ، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر المذكور أبراجاً بحماة وطاحوناً على النهر العاصي ، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة .

قال القاضي جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها ، ولما مات الملك المظفر صاحب حماة ملك بعده ولده الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود المذكور وعمره حينئذ عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوماً والقائم بتدبير المملكة سيف الدين طغرل مملوك الملك المظفر ومشاركه الشيخ شرف الدين عبدالعزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ والطواشي مرشد والوزير بهاء الدين بن التاج ومرجع الجميع إلى والدته الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل .

وفيهما : بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب وفاة ابنه الملك المغيب فتح الدين عمر في حبس الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح إسماعيل . وفي هذه السنة : توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب ميافارقين ، واستقر بعده في ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازي .

وفيهما : سير من حماة الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن نصر الله المعروف بيته ببني المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغداد وصحبته مقدمة من السلطان الملك المنصور صاحب حماة . وفيها : توفي القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله بن عبد المنعم بن علي بن محمد التسافعي عرف بابن أبي الدم قاضي حماة ، وكان قد توجه في الرسالة إلى بغداد فمرض في المعرة وعاد إلى حماة مريضاً فتوفي بها وهو الذي ألف التاريخ الكبير للمظفر وغيره .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

فيها : سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة الذي كان سامريا وأسلم إلى العراق مستسفا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح إسماعيل المذكور بحيث لا يخرج عن رأيه .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها : تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح إسماعيل ابن الملك العادل ، وكان محصوراً معه بدمشق إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فتسلم دمشق على أن يستقر بيد الملك الصالح إسماعيل بعليك وبصرى والسواد ويستقر بيد صاحب حمص وماهو مضاف إليها فأجابها معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك ، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبي علي بن كان معه من العسكر المصرى ، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفى بها وبقي حسام الدين بن أبي علي نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب ، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والإقطاعات ما يرضى خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب وصاروا مع الملك الصالح إسماعيل ، وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك ، وساروا إلى دمشق وحاصروها وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقام حسام الدين ابن أبي علي الهدباني في حفظ دمشق أتم قيام وخرجت السنة والأمر على ذلك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة : قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ولم يكن للتتر بهم طاقة فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل .

وفي هذه السنة : توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقى ، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة : وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية .

وفيهما : توفي الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح الفقيه المحدث .

وفيهما : توفي علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شرح قصيدة الشاطبي في القراءات وشرح المفصل للزمخشري وسمى شرحه المفصل في شرح المفصل وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الإفادة ذكر فيه مسائل مشكلة في النحو وعدة من أبيات المعاني ولغة غريبة .

وفي هذه السنة : لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب تسلمت نواب الملك المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص ، واستقرت سلمية في هذه السنة في ملك الملك المنصور صاحب حماة .

وفيهما : توفي الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلي الأصل الحلبي المولد والمنشأ النحوي ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحا مستوفيا ليس في الشروح مثله وله غير ذلك وولد في رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب وتوفي بها في التاريخ المذكور ودفن بالمقام .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة :

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح إسماعيل والناصر داود ومحاصرتهم دمشق وبها حسام الدين بن أبي علي ، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وقصدوا الخوارزمية ، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبيين وصاحب حمص والتقوا على القصب في هذه السنة ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه إلى حلب ، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشولخان الخوارزمي ، فلحقوا بالتر وصاروا معهم ، وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به وكفى الله الناس شرهم ، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحا عظيما ودقت البشائر بمصر وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص ، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك ، وأما الصالح إسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستحار به ، وأرسل

الصالح أيوب يطلبه فلم يسلمه الملك الناصر إليه ، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبي على الهدباني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان وحمل أولاد الصالح إسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك ، وكذلك بعث بأمن الدولة وزير الملك الصالح إسماعيل وأستاذ داره ناصر الدين يغمور فاعتقلا بمصر أيضاً وزينت القاهرة ومصر ودقت البتائر بها لفتح بعلبك ، واتفق في هذه الأيام وفاة صاحب عجلون وهو سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً ، ولما جرى ما ذكرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكرياً مع الأمير فخر الدين يوسف ابن النسيخ وكان فخر الدين ابن النسيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل ، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة ثم قدمه في هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر وولى عليها وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها وضعف الملك الناصر ضعفاً بالغاً ولم يبق بيده غير الكرك وحدها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك ، وسببه أن بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره ، فأرسل أستاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله في هذه السنة وكان آخر العهد به .

وفيها : أرسل الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ابن شيركوه وطلب دستوراً من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه ويتنظم في سلك خدمته ، وكان قد حصل بإبراهيم المذكور السل ، وسار على تلك الحالة من حمص متوجهاً إلى الديار المصرية ، ووصل إلى دمشق فقوى به المرض وتوفي في دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها ، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم المذكور .

وفي هذه السنة : بعد فتوح دمشق وبعليك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبي على إلى مصر ، وأرسل موضعه نائباً بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح ، ولما وصل حسام الدين بن أبي على إلى مصر استنابه الملك الصالح بها ، وسال الملك الصالح أيوب إلى دمشق ثم سار منها إلى بعلبك ثم عاد إلى دمشق ، ووصل إلى خدمة الملك الصالح أيوب بدمشق الملك المنصور محمد صاحب حماة والملك الأشرف موسى صاحب حمص فأكرمها وقربها

ثم أعطاهما الدستور فعادا إلى بلادهما ، واستمر الملك الصالح بالشام حتى خرجت هذه السنة .

وفي هذه السنة : توفي عماد الدين داود بن موشك بالكرك وكان جامعاً لمكارم الأخلاق .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة :

وفيها : عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى الديار المصرية .

وفيها : فتح فخر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية والملك الصالح بالشام بعد محاصرتها مدة ، وكنا قد ذكرنا تسليمها إلى الفرنج في سنة إحدى وأربعين وستمائة فعمروها واستمرت بأيدي الفرنج حتى فتحتا في هذه السنة .

وفيها : سلم الأشرف صاحب حمص شميميس للملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للملك الصالح في ملك باقي الشام .

وفيها : توفي الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل بالحبس وأمه الست السوداء تعرف ببنت الفقيه نصر ، وكان مسجوناً من حين قبض عليه ببلييس إلى هذه الغاية ، فكان مدة مقامة بالسجن نحو ثمان سنين ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وخلف ولداً صغيراً وهو الملك المغيث فتح الدين عمر وهو الذي ملك الكرك فيما بعد ، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة : توجه الطواشي مرشد المنصوري ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب وهي عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة ، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الكامل ابن الملك العادل ووصلت إلى حماة في العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة أعني سنة خمس وأربعين وستمائة ، ووصلت في تجميل عظيم واحتفل للقائها بحماة احتفالا عظيماً .

وفي هذه السنة : توفي علاء الدين قرا سنقر الساقى العادلى أحد ممالك الملك العادل بن أيوب وصارت ممالكه بالولاء للملك الصالح أيوب ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى الذى صار له ملك مصر والشام على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : توفي عمر بن محمد بن عبد الله المعروف بالشلوبيني بأشبيلية كان فاضلاً إماماً في النحو شرح الجزولية وصنف في النحو غير ذلك ، وكان فيه مع هذه الفضيلة التامة بهل وغفلة ، وكنيته أبو على والشلوبيني نسبة إلى شلوبين ، وهو حصن منيع من حصون الأندلس من معاقل سواحل غرناطة على بحر الروم منه عمر الشلوبيني المذكور ، هذا ما نص عليه ابن سعيد

المغربى فى كتابه الكبير المسمى (بالمغرب فى أخبار أهل المغرب) فى المجلدة الخامسة عشرة بعد ذكر غرناطة .

قال : وقد وصف حصن شلوبين المذكور ، ومنه الشيخ أبو على عمر الشالوبينى ، قال : وقرأت عليه النحو وكان إمام نحاة أهل المغرب وكان فى طبقة أبى على الفارسى ، ومن هنا يتحقق أن الذى نقله القاضى شمس الدين بن خلكان ومن تابعه أن الشلوبين هو الأبيض الأشقر بلغة أهل الأندلس وهم محض لعدم وقوفهم على كتاب (المغرب فى حلى أهل المغرب) المذكور .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة :

وفىها : أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لولو الأرمنى فحاصروا الملك الاشرف موسى بحمص مدة شهرين فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافا إلى ما بيده من تدمر والرحبة ، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ، وكان قد حصل له مرض وورم فى مابطه ثم فتح وحصل منه ناصور ووصل الملك الصالح إلى دمشق وأرسل عسكرا إلى حمص مع حسام الدين ابن أبى على فخر الدين ابن الشيخ فنازلوا حمص وحصروها ونصبوا عليها منجنيقا مغربيا يرمى بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامى مع عدة منجنيقات أخرى وكان الشتاء والبرد قويا ، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط وكان أيضا قد قوى مرضه ووصل أيضا نجم الدين الباذراى رسول الخليفة وسعى فى الصلح بين الملك الصالح والحلبين وأن تستقر حمص بيد الحلبيين فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها ثم رحل الملك الصالح عن دمشق فى محفة لقوة مرضه واستتاب بدمشق جمال الدين بن يغمور وعزل ابن مطروح وأرسل حسام الدين ابن أبى على قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها .

وفىها : فى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة أعنى سنة ست وأربعين وستمائة ، توفى أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصالحى وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو والمذكور بالقاهرة فى صغره بالقرآن والفقه على مذهب مالك بن أنس وبالعبدية وبرع فى علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعة وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم انتقل إلى الإسكندرية فتوفى بها ، وكان مولد الشيخ أبى عمرو المذكور فى أواخر سنة سبعين وخمسائة بإسنا بليدة بالصعيد ، وكان الشيخ أبو عمرو

المذكور متفننا في علوم شتى وكان الأغلب عليه علم العربية وأصول الفقه صنف في العربية مقدمته الكافية واختصر كتاب الأحكام للآمدى في أصول الفقه فطبق ذكر هذين الكتابين أعنى الكافية ومختصره في أصول الفقه جميع البلاد خصوصا بلاد العجم ، وأكب الناس على الاشتغال بها إلى زماننا هذا وله غيرها عدة مصنفات .

وفيهما : أعنى في سنة ست وأربعين وستمائة توفى عز الدين أيبك المعظمى في محبسه بالقاهرة ، وكان المذكور قد ملك صرخد في سنة ثمان وستمائة حسبها تقدم ذكره في السنة المذكورة .

وقال ابن خلكان : إنه ملك صرخد في سنة إحدى عشرة وستمائة ، قال : لأن استاذَه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب حج في السنة المذكورة وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا وأعطاها مملوكه أيبك المذكور ، والظاهر أن الأول أصح واستمرت في يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور وأمسك أيبك في السنة المذكورة وحمله إلى القاهرة وحبسه في دار الطواشى صواب واستمر معتقلا بها حتى توفى معتقلا في هذه السنة في أوائل جمادى الأولى ودفن خارج باب النصر في تربة شمس الدولة ، ثم نقل إلى الشام ودفن في تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى هكذا نقلت ذلك من وفيات الأعيان .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة :

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طنناخ

وفي هذه السنة : سار ريد إفرنس وهو من أعظم ملوك الفرنج وريد بلغتهم هو الملك أى ملك إفرنس وإفرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج وكان جمع ريد إفرنس نحو خمسين ألف مقاتل وشتى في جزيرة قبرس ، ثم سار ووصل في هذه السنة إلى دمياط وكان قد شحنها الملك الصالح بالآلات عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بنى كتانة وهم مشهورون بالشجاعة وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربى إلى البر الشرقى ووصل الفرنج إلى البر الغربى لتسع بقين من صفر هذه السنة ، ولما جرى ذلك هربت بنو كتانة وأهل دمياط منها وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والسلاحات ، وكان هذا من أعظم المصائب وأعظم ذلك على الملك الصالح وأمر

بسنق بنى كنانة فسنقوا عن آخرهم ، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد أيس منه .

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفي هذه السنة : سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب لما ضاقت عليه الأمور مستجيراً بالملك الناصر صاحب حلب ، وكان قد بقي عند الناصر داود من الجواهر مقدار كثير قال كان يساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان ، فلما وصل إلى حلب سير الجواهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه فلم تقع عينه عليه بعد ذلك ، ولما سار الناصر داود عن الكرك استتاب عليها ابنه عيسى ولقبه الملك المعظم ، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما الأجد حسن والظاهر شاذى فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيها عيسى عليها ، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيها عيسى وتوجه الأجد حسن إلى الملك الصالح أيوب وهو مريض على المنصورة وبذل له تسليم الكرك على إقطاع له ولأخيه بديار مصر فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما إقطاعاً أرضاهما وأرسل إلى الكرك وتسلمها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة وفرح الملك الصالح بالكرك فرحاً عظيماً مع ما هو فيه من المرض لما كان في خاطره من صاحبها .

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفي هذه السنة : توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة أعني سنة سبع وأربعين وستمائة ، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة ، وكان مهيباً عالى الهمة عفيفاً طاهر اللسان والذيل شديد الوقار كثير الصمت ، وجمع من الممالك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه ورتب جماعة من الممالك الترك حول دھليزه وسماهم البحرية وكان لا يجسر أن يخاطبه أحد إلا جواباً ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين ، وكان لا يستقل أحد من أهل

دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته بالقصص ، وكان غاويًا بالعمارة بنى قلعة الجزيرة وبنى الصالحية وهي بلدة بالسايح وبنى له بها قصورا للتصيد وبنى قصرا عظيميا بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش ، وكانت أم الملك الصالح أيوب جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح ، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر توفي في حبس الصالح إسماعيل ، وكان قد توفي ولده الآخر قبله ولم يكن قد بقى له غير المعظم توران شاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى أحد ، فلما توفي أحضرت شجر الدر وهي جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشي جمال الدين محسنا وعرفت بها بموت السلطان فكتبوا ذلك خوفاً من الفرنج ، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم : السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم توران شاه المقيم بحصن كيفا وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر وكتبت إلى حسام الدين بن أبي على وهو النائب بمصر بمثل ذلك فحلفت الأمراء والأجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك في العشر الأوسط من شعبان هذه السنة ، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح ، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنه خط السلطان ، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصداً لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا ، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوهوا بذلك وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين ونزلت الفرنج بحر مساح ثم قربوا من المسلمين ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاث لخمس مضي من ذي القعدة ، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه في الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه وكان سعيداً في الدنيا ومات شهيداً ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم واستمرت بهم الهزيمة وأما الملك المعظم توران شاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق في رمضان من هذه السنة وعيدها عيد الفطر ووصل إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة من هذه السنة أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة ، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج برّاً وبحراً ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شواني فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة : وقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لولو وبين الملك الناصر صاحب حلب ، فأرسل إليه الملك الناصر عسكرياً والتقوا مع المواصل بظاهر نصيبين فانهزمت

المواصلة هزيمة قبيحة واستولى الحلبيون على أثقال لولو صاحب الموصل وخيمه وتسلم الحلبيون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل ، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة :

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط ، فبان المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث مضي من المحرم متوجهين إلى دمياط ، وركب المسلمون أكتافهم ، ولما استقر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفا على ما قيل وانحازريد أفرانس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحى ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة وقيدريد أفرانس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان ووكل به الطواشي صبيح المعظمى ، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب بها برج خشب للملك المعظم .

ذكر مقتل الملك المعظم

وفي هذه السنة : يوم الاثنين ليلة بقيت من المحرم ، قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، وسبب ذلك أن المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه ، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا وكانوا أطرافا أراذل ، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف ، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار سلطانا فيما بعد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور على ما تقدم ذكره ، فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربا طالبا البحر ليركب

في حراقتة فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله في نهار الاثنين المذكور ، وكانت مدة إقامته في المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما ، ولما جرى ذلك اجتمعت الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح في المملكة ، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر ، وحلفوا على ذلك وخطب لشجر الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل ، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولداً ومات صغيراً وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل ، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد أفرنس في تسليم دمياط بالإفراج عنه فتقدم ريد أفرنس إلى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها وصعد إليها العلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضي من صفر من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وأطلق ريد أفرنس فركب في البحر بمن سلم معه نهار السبت غد الجمعة المذكورة وأقلعوا إلى عكا ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار ، وفي واقعة ريد أفرنس المذكورة يقول جمال الدين يحيى بن مطروح أبياتا منها :

قل للفرنسيس إذا جثته	مقال صدق عن فؤول نصيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم	غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمرنا عودة	لأخذ تار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باقى والطواشى صبيح

تم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من السنة المذكورة ، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه ، وكان الملك السعيد ابن الملك العزيز عنمان ابن الملك العادل صاحب الصبية قد سلمها إلى الملك الصالح أيوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه وكان من الملك السعيد ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك الملك المغيث الكرك

كان الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب قد أرسله الملك المعظم توران شاه لما وصل إلى الديار المصرية إلى الشوبك واعتقله بها وكان النائب على الكرك والشوبك بدر الدين الصوابى الصالحى ، فلما

جرى ما ذكرناه من قتل الملك المعظم ولما استقر عليه الحال بادر بدر الدين الصوابي المذكور فأخرج عن المغيث وملكه القلعتين الكرك والشوبك ، وقام في خدمته أتم قيام .

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جرى ما ذكرناه ولم يجب أمراء دمشق إلى ذلك ، كاتب الأمراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين فصار إليهم وملك دمشق ودخلها في يوم السبت لثمان مضي من ربيع الآخر من هذه السنة ، ولما استقر الناصر المذكور في ملك دمشق خلع على جمال الدين ابن يغمور وعلى الأمراء القيمرية به وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء بماليتك الملك الصالح وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة مديدة ثم سلمت جميعها إليه ، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين .

ذكر سلطنة أيك التركماني

ثم إن كبراء الدولة اتفقوا على إقامة عز الدين أيك الجاشنكير الصالح في السلطنة ، لأنه إذا استقر أمر المملكة في امرأة على ما هو عليه الحال تفسد الأمور فأقاموا أيك المذكور وركب بالسناحق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة ، ولقب الملك المعز وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجر الدر .

ذكر عقد السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف بأقسييس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم اجتمعت الأمراء واتفقوا على أنه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة ، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف ، وأن يكون أيك التركماني أتابكه ، وأجلس الأشرف موسى المذكور في دست السلطنة ، وحضرت الأمراء في خدمته يوم السبت لخمس مضي من جمادى الأولى من هذه السنة ، وكان بغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك فصار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسايح واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك

وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضي من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا بالقاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأبيك التركمانى بالأتابكية ، وفى يوم الأحد لخمس مضي من رجب رحل فارس الدين أقطاي الصالحى الجعدار متوجها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفى فارس ، وكان أقطاي المذكور مقدم البحرية فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

ذكر تخريب دمياط

وفى هذه السنة : اتفق آراء أكابر الدولة وهدموا سور دمياط فى العشر الأخير من شعبان هذه السنة لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى ، وبنوا مدينة بالقرب منها فى البر وسموها المنشية ، وأسوار دمياط التى هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسى .

ذكر القبض على الناصر داود

وفى هذه السنة : مستهل شعبان قبض الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذى كان صاحب الكرك وبعث به إلى حمص فاعتقل بها ، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها .

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرتة

وفى هذه السنة : سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته : الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب ، والأشرف موسى صاحب حمص وهو حينئذ صاحب تل باسر والرحبة وتدمر ، والمعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين ، وأخو المعظم المذكور نصره الدين ، والأجد حسن والظاهر شاذى ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب ، وتقى الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب ، ومقدم الجيش شمس الدين لولو الأرمنى وإليه تدبير المملكة فرحلوا من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة .

ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا لقتاله ودفعه وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل وأفرج أيك التركمانى حينئذ عن ولدى الصالح إسماعيل وهما المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك ابنا الصالح إسماعيل وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وخلع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أيهما الصالح إسماعيل والتقى العسكران المصرى والسنامى بالقرب من العباسية فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة من هذه السنة ، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وبنت المعز أيك التركمانى فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيك التركمانى ، ولما انكسرت المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يسكوا فى النصر بقى الملك الناصر تحت السناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحرك من موضعه ، فجعل المعز التركمانى بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ، ثم حمل أيك التركمانى المذكور على طلب شمس الدين لولو فهزمهم وأخذ شمس الدين لولو أسيرا فضربت عنقه بين يديه ، وكذلك أسر الأمير ضياء الدين القيمرى فضربت عنقه ، وأسر يومئذ الملك الصالح إسماعيل والأشرف صاحب حمص والمعظم توران شاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ، ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين ، فلما بلغهم هروب الملك الناصر اختلفت آراؤهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها ولو فعلوه لما كان بقى مع أيك التركمانى من يقاتلهم به وكان هرب فإن غالب المصريين المنهزمين وصلوا إلى الصعيد ، ومنهم من أشار بالرجوع إلى السنام ، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح وكانت الواقعة يوم الخميس ووصل المنهزمون من المصريين إلى القاهرة فى غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر فى ملك الملك الناصر ديار مصر وخطب له فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل ومصر .

وأما القاهرة فلم يبق فيها فى ذلك النهار خطبة لأحد ثم وردت إليهم البشرى بانتصار البحرية ودخل أيك التركمانى والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة ومعه الصالح إسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وعقب ذلك أخرج أيك التركمانى أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل وأستاذ داره يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل رابع عشر ذى القعدة ، وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجم جماعة على الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب وهو يمص قصب سكر وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفن هناك وعمره قريب من خمسين سنة ، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل .

وفي هذه السنة : بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام سار فارس الدين أقطاي بثلاثة آلاف فارس إلى غزة فاستولى عليها ثم عاد إلى الديار المصرية .

ذكر قتل صاحب اليمن

وفي هذه السنة : وثب على الملك المنصور عمر صاحب اليمن جماعة من مماليكه فقتلوه ، وهو عمر بن علي بن رسول وكان والده علي بن رسول أستاذ دار الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل ، فلما سار الملك المسعود قاصداً الشام ومات بمكة على ما تقدم ذكره استتاب أستاذ داره علي بن رسول المذكور باليمن فاستقر نائباً بها لبني أيوب ، وكان لعلي المذكور إخوة فأحضروا إلى مصر وأخذوا رهائن خوفاً من تغلب علي بن رسول على اليمن ، واستمر المذكور نائباً باليمن حتى مات قبل سنة ثلاثين وستمئة ، واستولى علي اليمن بعده ولده عمر بن علي المذكور على ما كان عليه أبوه من النيابة فأرسل من مصر أعمامه ليعزلوه ويكونوا نواباً موضعه ، فلما وصلوا إلى اليمن قبض عمر المذكور عليهم واعتقلهم ، واستقل عمر المذكور بملك اليمن يومئذ وتلقب بالملك المنصور واستكثر من المماليك الترك فقتلوه في هذه السنة ، أعني سنة ثمان وأربعين وستمئة ، واستقر بعده في ملك اليمن ابنه يوسف بن عمر وتلقب بالملك المظفر وصفاً له ملك اليمن وطالت أيام مملكته على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمئة :

وفيها : توفي الصاحب محيي الدين بن مطروح وكان متقدماً عند الملك الصالح أيوب ، كان يتولى له لما كان الصالح بالشرق نظر الجيش ثم استعمله على دمشق ثم عزله وولى ابن يغمور ، وكان ابن مطروح المذكور فاضلاً في النثر والنظم فمن شعره :

عانقته فسكرت من طيب الشذا	غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا
نشوان ما شرب المدام وإنما	أمسى بخمر رُضابيه متنبذا
جاء العذول يلومني من بعد ما	أخذ الغرام على فيه مأخذاً
لا أرعوى لا أنثنى لا أنتهى	عن حبه فليهد فيه من هذى
إن عشت عشت على الغرام وإن أمت	وَجَدًا به وصباية يا حبذا

وفيها : جهز الملك الناصر يوسف صاحب الشام عسكرياً إلى غزة ، وخرج المصريون إلى السائح وأقاموا كذلك حتى خرجت هذه السنة .

وفيها : توفي علم الدين قيصر ابن أبي القاسم بن عبد الغنى بن مسافر الفقيه الحنفى المقرئ المعروف بتعاسيف ، وكان إماماً فى العلوم الرياضىة ، اشتغل بالديار المصرىة والشام ، ثم سار إلى الموصل وقرأ على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس علم الموسيقى ، ثم عاد إلى الشام وتوفى بدمشق فى شهر رجب من السنة المذكورة ، ومولده سنة أربع وسبعين وخمسمائة بأصفون من شرفى صعيد مصر .

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة :
ولم يقع لنا فيها ما يصلح أن يؤرخ .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة :
فيها : استقر الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرىة بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن ، وللملك الناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراى رسول الخليفة هو الذى حضر من جهة الخليفة وأصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم إلى مقره .
وفيها : قطع أيبك التركمانى خبز حسام الدين ابن أبى على الهدبانى قطاب دستوراً فأعطيه وسار إلى الشام فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق .

ذكر أحوال الناصر صاحب الكرك

وفيها : أفرج الملك الناصر يوسف عن الملك الناصر داود بن المعظم الذى كان صاحب الكرك ، وكان قد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفاعاة الخليفة المستعصم فيه فأفرج عنه وأمره أن لا يسكن فى بلاده فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد فلم يكتوه من الوصول إليها وطلب وديعته الجوهر فمنعوه إياها وكتب الملك الناصر يوسف إلى ملوك الأطراف أنهم لا يؤووه ولا يميروه فبقى الناصر داود فى جهات عانة والحديثة وضائق به الأحوال وبمن معه وانضم إليه جماعة من غزىه فبقوا يرحلون وينزلون جميعاً ، ثم لما قوى عليهم الحرو ولم يبق بالبرىة عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بقية الليل وهواجر النهار ، وكان معه أولاده وكان لولده الظاهر شاذى فهد فكان يتصيد فى النهار ما يزيد على عشرة غزلان ، وكان يمضى للملك الناصر داود وأصحابه أياماً لا يطعمون غير لحوم الغزلان ، واتفق أن الأشرف صاحب تل باشر وتدمر

والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقاً وشعيراً ، فأرسل صاحب دمشق وتهده على ذلك ، ثم إن الناصر داود قصد مكاناً للشرابي واستجار به فرتب له الشرابي شيئاً دون كفايته وأذن له في النزول بالأنيار وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام ، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراسته ويطلب وديعته فلا يرد لهفته ولا يجيبه إلا بالمأطلة والمطاول ، وكانت مدة مقامه متنقلاً في الصحارى مع غزبه قريب ثلاثة أشهر ، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر فأذن له في العود إلى دمشق ، ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألف درهم .

وفي هذه السنة : وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن وبعض جبالها بحيث كانت تظهر في الليل ويرتفع منها في النهار دخان عظيم .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة :

ذكر دولة الحفصيين ملوك تونس

وإنما ذكرناها في هذه السنة لأنها كالتوسطة لمدة ملكهم وهو ما نقلناه من الشيخ الفاضل ركن الدين بن قوبع التونسي قال :

والحفصيون أولهم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وهنتاة بتاتين مثناتين من فوقها ، قبيلة من المصامدة ويزعمون أنهم قرشيون من بني عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان أبو حفص المذكور من أكبر أصحاب ابن تومرت بعد عبد المؤمن ، وتولى عبد الواحد بن أبي حفص أفريقية نيابة عن بني عبد المؤمن في سنة ثلاث وستمائة ، ومات سلخ ذي الحجة سنة ثمانى عشرة وستمائة فتولى أبو الغلاء من بني عبد المؤمن ، ثم توفي فعادت أفريقية إلى ولاية الحفصيين وتولى منهم عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص في سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

ولما تولى ولي أخاه أبا زكريا يحيى قابس وأخاه أبا إبراهيم إسحق بلاد الجريد ، ثم خرج على عبد الله وهو على قابس أصحابه ورجهوه وطردهوه وولوا موضعه أخاه أبا زكريا بن عبد الواحد سنة اثنتين وستين ، فنقم بنو عبد المؤمن على أبي زكريا ذلك فأسقط أبو زكريا اسم عبد المؤمن من الخطبة ، وبقي اسم المهدي وخلع طاعة بني عبد المؤمن وتملك أفريقية وخطب لنفسه بالأمير المرتضى واتسعت مملكته وفتح تلمسان والغرب الأوسط وبلاد الجريد والزاب وبقي كذلك حتى توفي على بونة سنة سبع وأربعين وستمائة ، وأنشأ في تونس بنايات

عظيمة شامخة وكان عالما بالأدب وخلف أربعة بنين وهم أبو عبد الله محمد وأبو إسحق إبراهيم وأبو حفص عمر وأبو بكر وكنيته أبو يحيى وخلف أخوين وهما أبو إبراهيم إسحق ومحمد اللحياتي ابني عبد الواحد بن أبي حفص وكان محمد اللحياتي المذكور صالحا منقطعاً يتبرك به ، ثم تولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا ثم سعى عمه أبو إبراهيم في خلعه فخلع وباع لأخيه محمد اللحياتي الزاهد على كره منه لذلك فجمع أبو عبد الله محمد المخلوع أصحابه في يوم خلعه وشد على عميه فقهرهما وقتلها واستقر في ملكه وتلقب وخطب لنفسه بالمستنصر بالله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين ، وفي أيامه في سنة ثمان وستين وستمائة وصل الفرنسيين إلى أفريقية بجموع الفرنج ، وأشرفت أفريقية على الذهاب فقصفه الله ومات الفرنسيين وتفرقت تلك الجموع ، وفي أيامه خافه أخوه أبو إسحق إبراهيم بن أبي زكريا فهرب ثم أقام بتلمسان ، وبقي المستنصر المذكور كذلك حتى توفي ليلة حادي عشر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة ، فملك ابنه يحيى بن محمد بن أبي زكريا وتلقب بالواثق بالله أمير المؤمنين ، وكان ضعيف الرأي فتحرك عليه عمه أبو إسحق إبراهيم الذي هرب وأقام بتلمسان وغلب على الواثق فخلع نفسه ، واستقر أبو إسحق إبراهيم في المملكة في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وخطب لنفسه بالأمير المجاهد وترك زى الحفصيين وأقام على زى زناته ، وعكف على الشرب وفرق المملكة على أولاده فوثبت أولاده على الواثق المخلوع وذبحوه وذبحوا معه ولديه الفضل والطيب ابني يحيى الواثق المذكور ، وسلم للواثق ابن صغير تلقب أبا عصيدة لأنهم يصنعون للنفساء عصيدة فيها أدوية ويهدي منها للجيران وعملت أم الصبي ذلك فلقب ولدها بأبي عصيدة ، ثم ظهر إنسان ادعى أنه الفضل بن الواثق الذي ذبح مع ابنه واجتمعت عليه الناس وقصد أبا إسحق إبراهيم وقهره فهرب أبو إسحق إلى بجاية وبها ابنه أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم فترك أبو فارس أباه ببجاية وسار بأخويه وجمعه إلى الداعي بتونس والتقى الجمعان فانهزم عسكر بجاية وقتل أبو فارس وثلاثة من إخوته وأنجاله أخ اسمه يحيى بن إبراهيم وعمه أبو حفص عمر بن أبي زكريا ، ولما هزم الداعي عسكر بجاية وقتل المذكورين أرسل إلى بجاية من قتل أبا إسحق إبراهيم وجاء برأسه ، ثم تحدث الناس بدعوة الداعي واجتمعت العرب على عمر ابن أبي زكريا بعد هروبه من المعركة وقوى أمره ، وقصد الداعي ثانيا بتونس وقهره واستتر الداعي في دور بعض التجار بتونس ثم أحضر واعترف بنسبه وضربت عنقه فكان الداعي المذكور من أهل بجاية واسمه أحمد بن مرزوق بن أبي عمار ، وكان أبوه يتجر إلى بلاد السودان ، وكان الداعي المذكور محارباً قصيفاً وسار إلى ديار مصر ونزل بدار الحديث الكاملية ، ثم عاد إلى المغرب ، فلما مر على طرابلس كان هناك شخص أسود يسمى نصيرا كان خصيصاً بالواثق المخلوع قد هرب لما جرى للواثق ما جرى ، وكان في أحمد الداعي بعض الشبه من الفضل ابن الواثق فدبر مع نصير المذكور

الأمر فشهد له أنه الفضل بن الوائق فاجتمعت عليه العرب وكان منه ما ذكرناه حتى قتل ، وكان الداعى يخطب له بالخليفة الإمام المنصور بالله القائم بحق الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبي العباس الفضل ، ولما استقر أبو حفص عمر في المملكة وقتل الداعى تلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين وهو المستنصر الثانى .

ولما استقر في المملكة سار ابن أخيه يحيى بن إبراهيم بن أبي زكريا الذى سلم من المعركة إلى بجاية وملكها وتلقب بالمنتخب لإحياء دين الله أمير المؤمنين ، واستمر المستنصر الثانى أبو حفص عمر بن أبي زكريا في مملكته حتى توفى في أوائل المحرم سنة خمس وتسعين وستمائة ، ولما اشتد مرضه بايع لابن له صغير فاجتمعت الفقهاء وقالوا له : أنت صائر إلى الله وتولية مثل هذا لا يحل ، فأبطل بيعته وأخرج ولد الوائق المخلوع الذى كان صغيراً وسلم من الذبح الملقب بأبي عصيدة وبويع صبيحة موت أبي حفص عمر الملقب بالمستنصر ، وكان اسم أبي عصيدة المذكور أبا عبد الله محمد وتلقب أبو عصيدة بالمستنصر ايضا وهو المستنصر الثالث ، وتوفى في أيامه صاحب بجاية المنتخب يحيى بن إبراهيم بن أبي زكريا وملك بعده بجاية ابنه خالد بن يحيى وبقي أبو عصيدة لذلك حتى توفى سنة تسع وستمائة ، فملك بعده شخص من الحفصيين يقال له أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب ابن تومرت ، وأقام في الملك ثمانية عشر يوما ثم وصل خالد بن المنتخب صاحب بجاية ، ودخل تونس وقتل أبا بكر المذكور في سنة تسع وسبعمائة ، ولما جرت ذلك كان زكريا اللحياتى بمصر فسار مع عسكر السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه إلى طرابلس الغرب ، وبايعه العرب وسار إلى تونس فخلع خالد بن المنتخب وحبس ثم قتل قصاصا بأبي بكر بن عبد الرحمن المقدم الذكر واستقر اللحياتى في ملك إفريقية وهو ابن يحيى زكريا بن أحمد بن محمد الزاهد اللحياتى بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب ابن تومرت ثم تحرك على اللحياتى أخو خالد وهو أبو بكر بن يحيى المنتخب فهرب اللحياتى إلى ديار مصر وأقام بالإسكندرية وملك أبو بكر المذكور تونس وما معها خلا طرابلس والمهدية فإنه بعد هروب اللحياتى بايع ابنه محمد بن اللحياتى لنفسه واقتتل مع أبي بكر فهزمه أبو بكر ، واستقر محمد ابن اللحياتى بالمهدية وله معها طرابلس ، وكان استيلاء أبي بكر وهروب اللحياتى إلى ديار مصر في سنة تسع عشرة وسبعمائة ، وأقام اللحياتى في إسكندرية ثم وردت عليه مكاتبات من تونس في ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة إلى الإسكندرية يذكرون فيها أن أبا بكر متملك تونس المذكور وقد هرب وترك البلاد وأن الناس قد اجتمعوا على طاعة اللحياتى وبايعوا نائبه وهو محمد بن أبي بكر من الحفصيين وهو صهر زكريا اللحياتى المذكور وهم في انتظار وصول اللحياتى إلى مملكته أقول وقد بقيت مملكة أفريقية فهرب منها لضعفها بسبب استيلاء العرب عليها .

ذكر مقتل أقطاي

في هذه السنة : اغتال الملك المعز أيك التركماني المستولى على مصر خوسداسه أقطاي الجمدار ، وأوقف له في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة ممالك هم : قطز وهادر وسنجر الغنمي ، فلما مر بهم فارس الدين أقطاي ضربوه بسيفهم فقتلوه ، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام وكان الفارس أقطاي يمنع أيك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم للملك الأسرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ، فلما قتل أقطاي استقل المعز التركماني بالسلطنة وأبطل الأسرف موسى المذكور منها بالكلية ، وبعث به إلى عماته القطبيات ، وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر وكان انقضاء دولتهم من الديار المصرية في هذه السنة على ما ترحناه ، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطعموه في ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور وأرسل إلى غزة عسكرا فنزلوا بها وبرز المعز أيك صاحب مصر إلى العباسية وخرجت السنة وهم على ذلك .

وفيهما : قدمت ملكة خاتون بنت كيقباز ملك بلاد الروم إلى زوجها الملك الناصر يوسف صاحب الشام .

وفيهما : ولي الملك المنصور صاحب حماة قضاء حماة للقاضي شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزي بعد عزل القاضي المحبي حمزة بن محمد .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة :

فيها : عزم العزيزية المقيمون مع المعز أيك على القبض عليه وعلم بذلك واستعد لهم فهربوا من مخيمهم على العباسية على حمية واحتيط على وطاقاتهم جميعها .

وفي هذه السنة : مشى نجم الدين الباذراي في الصلح بين المصريين والشاميين واتفق الحال أن يكون للملك الناصر السام جميعه إلى العريش ويكون الحد بين القاضي ، وهو بين الورادة والعريش ، وبيد المعز أيك الديار المصرية وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده .

وفي هذه السنة : أو التي قبلها تزوج المعز أيك شجر الدر أم خليل التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر .

وفيهما : طلب الملك الناصر داود من الملك الناصر يوسف دستورا إلى العراق بسبب طلب

وديعة من الخليفة وهي الجوهر الذي تقدم ذكره وأن يمضى إلى الحج فأذن له الناصر يوسف في ذلك فسار الناصر داود إلى كربلاء ثم مضى منها إلى الحج ، ولما رأى قبر النبي صلى الله عليه وسلم تعلق في أستار الحجرة الشريفة بحضور الناس وقال اشهدوا أن هذا مقامى من رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلا عليه مستشفعا به إلى ابن عمه المستعصم في أن يرد على وديعتي فأعظم الناس ذلك وجرت عبراتهم وارتفع بكأؤهم وكتب بصورة ما جرى مشروحا ورفع إلى أمير الحج كيخسرو وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقي وأقام ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمئة :

فيها : مات كيخسرو ملك بلاد الروم وأقيم في السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاووس وركن الدين قليج أرسلان .

وفيها : توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم وصحبته مقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب مبافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق فبقى الخليفة متحيرا ثم إنه أحضر سكيئا من اليسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكيين رسول صاحب الشام علامة منى في أن له خلعة عندى في وقت آخر ، وأما في هذا الوقت فلا يمكنى فأخذ كمال الدين بن العديم السكيين وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة .

ذكر غير ذلك

فيها : جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته أنه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبي صلى الله عليه وسلم في رده وديعته ، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله في ترداده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والخطب والعليف والتبن وغير ذلك ، وثمن عليه ذلك بأعلى الاثمان وأرسل إليه شيئا نذرا وألزمه أن يكتب خطه بقبض وديعته ، وأنه ما بقى يستحق عند الخليفة شيئا فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد وأقام مع العرب ، ثم أرسل إليه الناصر يوسف بن العزيز ابن غازى بن يوسف صاحب الشام فطيب قلبه وحلف له فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية .

وفي هذه السنة : يوم الأحد ثالث شوال توفي سيف الدين طغرل مملوك الملك المظفر محمود صاحب حماة ، وكان قد زوجه المظفر المذكور بأخته ، وقام بتدبير مملكة حماة بعد وفاة الملك المظفر حتى توفي في التاريخ المذكور .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة :

ذكر قتل المعز أيك التركمانى

وفي هذه السنة : في يوم الثالث الثالث والعشرين من ربيع الأول قتل الملك المعز أيك التركمانى الجاشنكير الصالحى ، قتلته امرأته شجر الدر التى كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ، وهى التى خطب لها بالسلطنة في ديار مصر ، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيك المذكور قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل ويريد أن يتزوجها فقتلته في الحمام بعد عوده من لعب الكرة في النهار المذكور ، وكان الذى قتله سنجر الجوجرى مملوك الطواشى محسن والخدام حسبما اتفقت معهم عليه شجر الدر وأرسلت في تلك الليلة أصبع المعز أيك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبي الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يجسر على ذلك . ولما ظهر الخبر أراد ممالك المعز أيك قتل شجر الدر فحماها الممالك الصالحة فاتفقت الكلمة على إقامة نور الدين على ابن الملك المعز أيك ولقبوه الملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ، ونقلت شجر الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر وصلبوا الخادم الذين اتفقوا معها على قتل المعز أيك وهرب سنجر الجوجرى ثم ظفروا به وصلبوه واحتيط على الصاحب بهاء الدين على بن جنا لكونه وزير شجر الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار ، وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة اتفقت ممالك المعز أيك مثل سيف الدين قطز وسنجر الغنمى وبهادر وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبي ، وكان قد صار أتابكا للملك المنصور نور الدين ابن الملك على المعز أيك ورتبوا في أتابكية المذكور أقطاي المستعرب الصالحى .

وفي سادس عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة قتلت شجر الدر وألقيت خارج البرج فحملت إلى تربة كانت قد عملتها قدفنت فيها ، وكانت تركية الجنس وقيل كانت أرمنية وكانت مع الملك الصالح في الاعتقال بالكرك وولدت منه ولداً اسمه خليل مات صغيراً وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزى .

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفي هذه السنة : نقل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وتقدم إليهم بالانتزاع عن دمشق فساروا إلى غزة وانتموا إلى الملك المغيت فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل ، وانزعج أهل مصر لقدم البحرية إلى غزة وبرزوا إلى العباسية ووصل من البحرية جماعة مقفزين إلى القاهرة منهم عز الدين الأنرم فأكرمهم وأفرجوا عن أملاك الأترم ، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكرياً في أنهرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه ، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زعز ملتجئين إلى الملك المغيت صاحب الكرك ، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جلية وأطمعوه في ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه ، وسارت البحرية إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف القعدة من هذه السنة ، فانهزم عسكر المغيت والبحرية وفيهم بيبرس البندقداري المسمى بعد ذلك بالملك الظاهر إلى جهة الكرك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : وصل من الخليفة المستعصم الخلة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز .

وفيها : استجار الناصر داود بنجم الدين الباذراي في أن يتوجه صحبته إلى بغداد فأخذه صحبته ، وتوصل الناصر يوسف صاحب دمشق إلى منعه عن ذلك فلم يتهياً له وسار الناصر داود مع الباذراي إلى قرقيسيا فأخذه الباذراي ليشاور عليه فأقام الناصر داود في قرقيسيا ينتظر الإذن بالقدوم إلى بغداد فلم يؤذن له وطال مقامه ، فسافر إلى البرية وقصد تيه بني إسرائيل وأقام مع عرب تلك البلاد .

وفي هذه السنة : أو التي قبلها ظهرت نار بالحرّة عند مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لها بالليل ضوء عظيم يظهر من مسافة بعيدة جداً ولعلها النار التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة فقال : نار تظهر بالحجاز تضيء منها أعناق الإبل ببصرى ،

ثم اتفق أن الخدام بحرم النبي صلى الله عليه وسلم وقع منهم في بعض الليالي تفريط فاشتعلت النار في المسجد الشريف واحتترقت سقوفه ومنبر النبي صلى الله عليه وسلم وتآلم الناس لذلك .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة :

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

في أول هذه السنة : قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي كان رافضيا ، وكان أهل الكرخ أيضا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عاداتهم فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد .

وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل إقطاعاتهم وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس وأرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار والتقوا على مرحلتين من بغداد واقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة السام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو وهو مقدم كبير في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوتق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة .

فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف في بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيراً فأخذ أسيراً ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودي بالأمان .

وأما الخليفة فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقليل خنق وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق في دجلة والله أعلم بحقيقة ذلك ، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبي جعفر منصور ابن محمد الطاهر ابن الإمام الناصر أحمد وقد

تقدم ذكر باقى نسبه عند ذكر وفاة الإمام الناصر ضعيف الرأى قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره ، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر فى سنة أربعين وستمائة ، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً وهو آخر الخلفاء العباسيين ، وكان ابتداء دولتهم فى سنة اثنتين وتلاثين ومائة وهى السنة التى بويغ فيها السفاح بالخلافة ، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية ، وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة تقريباً وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال : لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته أن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بنى أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى يعلى بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان على بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول أى والله لتكونن الخلافة فى ولدى لا تزال فيهم حتى يأتهم العليج من خراسان فينتزعها منهم فوق مصداق ذلك وهو ورد هو لاكو وإزالته ملك بنى العباس .

ذكر الواقعة بين المغيث صاحب الكرك وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيث بن العادل بن الكامل ونزل من الكرك وخيم بغزة ، وجمع الجموع وسار إلى مصر فى دست السلطنة وخرجت عساكر مصر مع مماليك الملك المعز أيبك وأكبرهم سيف الدين قطز الذى صار صاحب مصر والغنى وبهادر والتقى الفريقان ، فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزماً إلى الكرك فى أسوء حال ونهبت أثقاله ودهليزه .

ذكر وفاة الناصر داود

وفى هذه السنة : أعنى سنة ست وخمسين وستمائة فى ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى ، توفى الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بظاهر دمشق فى قرية يقال لها البويضا ، ومولده سنة ثلاث وستمائة ، فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة ، وكنا قد ذكرنا أخباره فى سنة خمس وخمسين وأنه توجه إلى تيه بنى إسرائيل وصار مع عرب تلك البلاد وبلغ المغيث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشى منه وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها ، وبقي الملك الناصر

المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها فيينا هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر ليقدمه على بعض العساكر للقتى التتر فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيث صاحب الكرك ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة فأخذه وسار به إلى جهة دمشق فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة فتركه الرسول ومضى لشأنه فسار الناصر داود إلى البويعضا وهي قرية شرقى دمشق وأقام بها ولحق الناس في السام في تلك المدة طاعون فمات منه الناصر داود المذكور في التاريخ المذكور وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويعضا وظهر عليه الحزن والتأسف ونقله ودفنه بالصالحية في تربة والده المعظم وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناتراً وقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الحنبل وشاهى تلميذ الإمام فخر الدين الرازى وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدم ذكر بعضها ومن شعره أيضا :

عيون عن السحر المبين تبين	لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهي سودفرندها	ذبول فتور والجفون جفون
إذا ما رأت قلبا خليا من الهوى	تقول له كن مغرما فيكون

وله أيضا :

طرفى وقلبي قاتل وشهيد	ودمى على خديك منه شهود
أما وحبك لست أضمر سلوة	عن صبوتي ودع الفؤاد يبيد
منى يطيفك بعد ما منع الكرى	عن ناظرى البعد والتسويد
ومن العجايب أن قلبك لم يلن	لى والحديد لأنه داود

ومما كتب به فى أثناء مكاتبتة إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام .

وكان قد اغارت الفرنج على نابلس فى أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر :

أيا ليت أُمى أيم طول عمرها	فلم يقضها ربى لمولى ولا لبغل
وباليتها لما قضاها لسيّد	ليب أريب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتى خلّقن عواقرا	فما بشرت يوما بأنتى ولا فحل
وباليتها لما غدت بي حاملا	أصيب بما احتوت عليه من الحمل
وباليتنى لما ولدت وأصبحت	تسد إلى الشدقيات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم	ولم أرفى الإسلام ما فيه من خل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة : في ذى القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة حماة رحمها الله تعالى ، وكان قدومها إلى حماة في سنة تسع وعشرين وستمائة وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين مات أحدهم صغيرا وكان اسمه عمر وبقي الملك المنصور محمد صاحب حماة . وأخوه والدي الملك الأفضل على ، وولد لها منها ثلاث بنات أيضا توفيت الكبرى منهن وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها بقليل ، وتوفيت الصغرى وهي دينا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور وسنذكر وفاة الباقيين في مواضعها إن شاء الله تعالى وكانت الصاحبة غازية خاتون المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهدا وعبادة وحفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة : قصدت التتر ميفارقين بعد استيلائهم على بغداد وكان صاحب ميا فارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان قد ملكها بعد وفاة أبيه في سنة اثنتين وأربعين وستمائة فحاصره التتر وضائقوا ميفارقين مضايقة شديدة وصبر أهل ميفارقين مع الكامل محمد المذكور على الجوع الشديد ودام ذلك حتى كان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيهما : استد الوبا بالتام خصوصا بدمشق حتى لم يوجد مغسل للموتى .

وفيهما : أرسل الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ولده الملك العزيز محمد وصحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظي وهو من أهل قرية عقربا من بلد دمشق بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر .

وفيهما : توفي صاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى المهلبى كاتب إنشاء الملك الصالح أيوب ومولدا ليها زهير بوادي نخلة من مكة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وفي آخر عمره انكسف حاله وباع موجوده وكتبه وأقام في بيته في القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الوباء العام في يوم الأحد رابع ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ست وخمسين وستمائة ،

ودفن بالقرافة الصغرى ، وكان كريم الطباع غزير المروءة فاضلا حسن النظم وشعره مشهور كبير ، فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجه العروض أبيات منها :

يا من لعبت به سمول ما أطف هذه السمائل
مولاي يحق لى بأنى عن حبك فى الهوى أقاتل
هاعبدك واقفا ذليلا بالباب يمد كف سائل
من وصلك بالقليل يرضى والطل من الحبيب وابل

توفي هذه السنة : توفى بمصر الشيخ ركن الدين عبد العظيم شيخ دار الحديث وكان من أئمة الحديث المشهورين .

وفيهما : توفى الشيخ شمس الدين يوسف سبط جمال الدين ابن الجوزى وكان من الوعاظ الفضلاء ألف تاريخا جامعاً سماه مرآة الزمان .

وفيهما : توفى سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بابن المشد وكان أميراً مقدماً فى دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام وله شعر حسن فمه :

باكر كؤوس المدام واشرب واستجل وجه الحبيب واطرب
ولا تخف للهموم داء فهى دواء له بحرب
من يد ساق له رضاب كالشهد لكن جناه أعذب

وفيهما : كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين وبين عسكر الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الأمير مجير الدين بن أبى زكرى مصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين المذكور وقوى امر البحرية بعد هذه الكسرة وأكثروا العبث والفساد .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة :

فيها : سار عز الدين كيكاووس وركن الدين قليج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباز إلى خدمة هولاكو وأقاما معه مدة ثم عادا إلى بلادها .

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

فى هذه السنة : توفى بدر الدين لولو صاحب الموصل وكان يلقب الملك الرحيم وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة ولمامات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح ابن لولو وملك سنجار ولده

الآخر علاء الدين بن لولو وكان بدر الدين قد صانع هولاءكو ودخل في طاعته وحمل إليه الأموال ووصل إلى خدمة هولاءكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان وكان صحبة لولو الشريف العلوي ابن صلايا فقبل إن لولو سعى به إلى هولاءكو فقتل الشريف المذكور ولما عاد لولو إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات وطالت أيام بدر الدين لولو في ملك الموصل فإنه كان القائم بأمور أستاذة أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي ابن أقسنقر وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه ولما توفي الملك القاهر بن أرسلان شاه في سنة خمس عشرة وستمائة انفرد لولو بتدبير المملكة وأقام ولدى القاهر الصغيرين واحدا بعد واحد واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثا وأربعين سنة تقريبا ولم يزل في ملكه سعيدا لم يطره آفة ولم يختل ملكه نظام .

ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

وفي هذه السنة : لما جرى من البحرية ماذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره وسار في صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك وأقام على بركة زيزا محاصرا للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقطبية بنت الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل يتضرعون إلى الملك الناصر ويطلبون رضاه عن الملك المغيث فلم يجب إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية فأجاب المغيث إلى ذلك وعلم بالحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية ووصل بهم إلى الملك الناصر يوسف فأحسن إليهم وقبض المغيث على من بقى عنده من البحرية ومن جملتهم سنقر الأتسر وسكز وبرامق وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك وكان مدة مقام الملك الناصر بالعساكر على بركة زيزا ما يزيد على شهرين بقليل ثم عاد إلى دمشق وأعطى للملك المنصور صاحب حماة دستورا فعاد إلى بلده .

ذكر سلطنة قطر

وفي اواخر هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستمائة : في أوائل ذي الحجة قبض سيف الدين قطز على ولد أستاذة الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة وكان علم الدين الغنمي وسيف الدين بهادر وهما من كبار المعزية غائبين في رمى البندق فانتهز

قطز الفرصة في غيبتها وفعل ذلك ولما قدم الغنمى وبهادر المذكور أن قبض عليها قطز أيضا واستقر قطز في ملك الديار المصرية وتلقب بالملك المظفر وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر في أيام الملك المنصور على ابن أيبك مستنجدا على التتر واتفق خلع على المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين ابن العديم ولما استقر قطز في السلطنة اعاد جواب الملك الناصر يوسف أنه ينجده ولا يقعد عن نصرته وعاد ابن العديم بذلك .

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة : أعنى سنة سبع وخمسين وستمئة في الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم وتانى عشر كانون الثانى ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب ولقبوه الملك المظفر بلقب جده وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهنا الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ السيوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها :

أبشر على رغم العدى والحسد	بأجل مولود وأكرم مولد
بالنعم الغراء بل بالدولة الزهراء	بل بالفخر المتجدد
وافاك بدرا كاملا في ليلة	طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت	عنه وما بين العزيز محمد

ذكر قصد هولاكو الشام

وفي هذه السنة : قدم هولاكو إلى البلاد التى شرقى الفرات ونزل حرّان وملكها واستولى على البلاد الجزرية وأرسل ولده سموط بن هولاكو إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذى الحجة من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وخمسين وستمئة وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم وأكمن لهم التتر في باب إلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن

البلد ثم عادوا عليهم وحرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنقوا في أبواب البلد جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها بالأمان .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة :

ذكر ما كان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق إلى برزه في أواخر السنة الماضية وجفل الناس من بين يدي التتر وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزه وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقدارى من حين هرب من الكرك والتجأ إلى الناصر فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفّال ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به فهرب الملك الناصر من الدهليز إلى قلعة دمشق وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة وكذلك سار بيبرس البندقدارى إلى جهة غزة وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازى ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين لستهامته ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفاً من أخيه الملك الناصر وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر أمهما أم ولد تركية ووصل الملك الظاهر غازى إلى غزة واجتمع عليه من بها من العسكر وأقاموه سلطاناً ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقدارى الملك المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان ووعدته الوعود الجميلة ففارق بيبرس البندقدارى الساميين وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه فاقبل عليه الملك المظفر قطز وأنزله في دار الوزارة وأقطعه قلوب وأعمالها .

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

في هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة في يوم الأحد تاسع صفر كان استيلاء التتر على حلب وسببه أن هولاًكو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وأرسل هولاًكو إلى الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب يقول له إنكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه

نحن إلى العسكر فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحتين إن شتمت طردتموها وإن شتمت قتلتموها فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك وقال : ليس لكم عندنا إلا السيف ، وكان رسول هولاءكو إليهم في ذلك صاحب أرزن الروم فتعجب من هذا الجواب ونألم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك وأحاط التتر بحلب ثانی صفر وهجموا النواثر في غد ذلك اليوم وقتل من المسلمين جماعة كثيرة ومن قتل أسد الدين ابن الملك الزاهر ابن صلاح الدين واشتدت مضايقة التتر للبلد وهجموا من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشریف في يوم الأحد تاسع صفر وبذلوا السيف في المسلمين وصعد إلى القلعة خلق عظيم ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر المذكور فأمر هولاءكو برفع السيف ونودي بالأمان ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرو ودار نجم الدين أخى مرد كين ودار البازياد ودار علم الدين قيصر الموصل والخانكاه التي فيها زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم وقيل إنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ إليها من العسكر واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخر بحماة الطواشى مرشد لما سار صاحب حماة إلى دمشق ، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجه الطواشى مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاءكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم ، فأمنهم هولاءكو وأرسل إلى حماة شحنة رجلا أعجميا كان يدعى أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له خسر وشاه فقدم خسر وشاه إلى حماة وتولاها وآمن الرعية ، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيمانز أمير جندار فسلم القلعة إليه ودخل في طاعة التتر ، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقى معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة وأقام بنابلس أياما ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبى زكري والأمر على بن شجاع ومعها جماعة من العسكر ، ثم سار الملك الناصر إلى غزة فانضم إليه مماليكه الذين أرادوا قتله وكذلك اصطلى معه أخوه الملك الظاهر غازي وانضم إليه وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصل التتر إليها وكبسو العسكر الذين بها وقتلوا مجير الدين والأمر على بن شجاع وكانا أميرين جليلين فاضلين وكان البحرية قد قبضوا عليها واعتقلوها بالكرك وأفرج عنها المغيث لما وقع الصلح بينه وبين

الناصر ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ما جرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش وسير القاضي برهان الدين ابن الخضر رسولا إلى الملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منه المعاونة ثم سار الملك الناصر والملك المنصور صاحب حماة والعسكر ووصلوا إلى قطية فجرى بها فتنة بين التركمان . والأكراد الشهر زورية ووقع نهب في الجفال وخاف الملك الناصر ان يدخل مصر فيقبض عليه فتأخر في قطية ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الملك الظاهر غازي والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص وشهاب الدين القيصرى ثم سار الملك الناصر بمن تأخر معه من قطية إلى جهة تيه بنى إسرائيل ، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية وطيب قلوبهم وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقا والتقاء ملتقى حسنا وطيب قلبه ودخل إلى القاهرة وأما التتر فإنهم استولوا على دمشق وعلى ساير الشام إلى غزة واستقرت شحاينهم بهذه البلاد .

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجددات بالشام

أما قلعة حلب. فوثب جماعة من أهلها في مدة الحصار على صفى الدين بن طرزة رئيس حلب وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد بن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما لأنهم اتهموها بمواطاة التتر واستمر الحصار على القلعة واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان في يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، ولما نزل أهلها بالأمان وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم سكر وبرايق وسنقر الأتقرف سلمهم هولاءكوهم وباقي الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر فلم تطب له تلك البلاد فعاد إلى التتر وأما العوام والغربا فنزلوا إلى أماكن الحمى التى قدّمنا ذكرها وأمر هولاءكو أن يمضى كل من سلم إلى داره وملكه وأن لا يعارض وجعل النايب بحلب عماد الدين الفزوينى ووصل إلى هولاءكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم ابن شيركوه وكان قد انفرد الأشرف المذكور عن المسلمين لما توجه الملك الناصر إلى جهة مصر ووصل إلى هولاءكو بحلب فأكرمه هولاءكو وأعاد عليه حمص وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ست وأربعين وستمائة وعوضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره فعادت إليه في هذه السنة واستقر ملكه بها وقدم أيضا إلى هولاءكو وهو نازل على حلب محبى الدين بن الزكى من دمشق فأقبل عليه هولاءكو وخلع عليه وولاه قضاء الشام ولما عاد ابن الزكى المذكور إلى دمشق ليس خلعة هولاءكو وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من

أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو واستقر في القضاء ثم رحل هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين وإلى قلعة حلب فأحضره هولاكو وسلموها إليه فغضب هولاكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم وسبى النساء ثم رحل هولاكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد فصار إليها وجعل مكانه بحلب رجلاً أعجمياً وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة فخربت عن آخرها وأعطى هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل في الدار المبارز واخذ في خراب سور قلعة حماة بتقدم هولاكو إليه بذلك فخربت أسوارها وأحرقت رددخانتها ، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان ، وأما أسوار مدينة حماة فلم تخرب لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الإفرنجية ضامن الجهة المفردة بدل لخسرو شاه جملة كثيرة من المال وقال الفرنج قريب منا بحصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب أسوار المدينة وكان قد أمر هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضاً فلم يخرب منها إلا شيئاً قليلاً لأنها مدينته وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينة بالأمان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليهم فحاصرها التتر وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة وضايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة ونهبوا جميع ما فيها وجدوا في خراب أسوار القلعة وإعدام ما بها من الزردخانات والآلات ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها .

ذكر استيلاء التتر على ميافارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفي هذه السنة : أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة استولى التتر على ميافارقين وقد تقدم ذكر نزولهم عليها ومحاصرتها في سنة ست وخمسين واستمر الحصار عليهم مدة سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء وبالقتل وصاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب مصابراً ثابتاً وضعف من عنده عن القتال فاستولى التتر عليها وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور وحملوا رأسه على رمح وطيف به في البلاد ومرّوا به على حلب وحماة ووصلوا به إلى دمشق في سابع عشرين جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وطافوا به في دمشق بالمغانى والطبول وعلق رأس المذكور في شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن أبي شامة أبياتا منها :

ابن غازي غزى وجاهد قوما أثخنوا في العراق والمشرقين

طاهرا عاليا ومات شهيداً بعد صبر عليهم عامين
لم يشته إذ طيف بالرأس منه وله أسوة برأس الحسين
ثم واردوا في مشهد الرأس ذاك الرأس واستعجبوا من الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتر واستيلاؤهم على عجلون وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فانه لما انفرد عن العسكر من قُطَيْة وسار إلى تيه بنى إسرائيل بقى
متحيراً إلى أين يتوجه وعزم على التوجه إلى الحجاز وكان له بطردار كردى اسمه حسين فحسن
له المضى إلى التتر وقصد هولاء فآغتر بقوله ، ونزل ببركة زيزا وسار حسين الكردى إلى
كتبغا نائب هولاء وعرفه بموضع الملك الناصر فأرسل كتبغا إليه وقبض عليه وأحضره إلى
عجلون ؛ وكانت بعد عاصية فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها ، وكنا قد
ذكرنا حصار التتر لبعليك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخرّبوا قلعتها أيضا ، وكان بالصبيبة
صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل ، فسلم الصبيبة إليهم وصار الملك
السعيد المذكور معهم وأعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين وأما الملك الناصر يوسف
فإن كتبغا بعث به إلى هولاء فوصل إلى دمشق ثم إلى حماة وبها الأشراف صاحب حصن فخرج
إلى لقائه هو وخسرو شاه النايب بحماة ثم سار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصر وما قد حل
بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد :

يعزّ علينا أن نرى ربكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى
ثم سار إلى الأردن فأقبل عليه هولاء ووعدوه برده إلى مملكته وكان منه ما سنذكره إن شاء
الله تعالى

ذكر غير ذلك

وفي خامس عشر شعبان من هذه السنة أخرج التتر من الاعتقال نقيب قلعة دمشق وواليتها
وضربوا أعناقها بداريا واشتهر عند أهل دمشق خروج العساكر من مصر لقتال التتر فأوقعوا
بالنصارى ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع فنهبهم
المسلمون في سابع عشرين رمضان من هذه السنة وأخربوا كنيسة مريم وكانت كنيسة عظيمة

وكانت كنيسة مريم في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين وكانت ملاصق للجامع كنيسة وهي من الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان فبقيت بأيدي النصارى فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه ولم يعوض النصارى عنها فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم بكنيسة مريم عن تلك الكنيسة فعمروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في التاريخ المذكور .

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفي هذه السنة : أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة :

كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان على عين جالوت وكان من حدينها انه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر وسار من مصر بالعساكر الإسلامية وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاء على الشام ومقدم التتر سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصببية ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا وتقاربا الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستوسر ابنه وتعلق من سلم من التتر برؤس الجبال وتبعهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم إلى الشرق وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم فتبعتهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها وأما الملك السعيد صاحب الصببية فإنه أمسك أسيرا وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز فأمر به فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستمائة وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليها إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك

المظفر قطز إلى الشام وفي يوم دخوله دمشق أمر بشتق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر وفي هذه النصرة وقدم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء .

هلك الكُفَر في الشام جميعا	واستجد الإسلام بعدد حوضه
بالمليك المظفر الملك الأر	وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم	فاعتزنا بسمره وبيوضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور فقدم الملك المنصور قد امه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصوري إلى حماة ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم وهنا الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم ويعود المعرة بقصيدة منها :

زغت العدى فضمت ثل عروشها	ولقيتها فاخذت ثل جيوشها
نازلت أملاك التتر فأنزلت	عن فحلها قسرا وعن أكديشها
فغدا سيفك في رقاب كماتها	حصد المناجل في يبيس حشيشها
فقت الملوك ببذل ماتحويه إذا	ختمت خزائنها على منقوشها

ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل	ما بين بركة زيزاء وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها	من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشت حماة لوطء نعلك خذها	فوطئت عين الشمس من مفروشها
وضربت سكتها التي اخلصتها	عما يشوب النقد من مغشوشها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها	دهشت سرورا سار في مدهوشها
طربت برجعتها إليك كأنما	سكرت بخمره حاسها أوحيشها
لازلت تتعش بالنوال فقيرها	وتنال أقصى الأجر من منعوشها

وكان خسرو شاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق لما بلغه كسرة التتر ثم جهز الملك المظفر قطز عسكرا إلى حلب لحفظها ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلى العزيزي أميرا بالسواحل وغزة ورتب معه جماعة من العزيزية وكان البرلى المذكور من ممالك الملك العزيز محمد صاحب حلب وسار في جملة العزيزية مع ولده الملك الناصر يوسف إلى قتال المصريين وخامر البرلى وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم الملك الناصر وصاروا مع أيلك التركمان

صاحب مصر ثم انهم قصدوا اغتيال المعز أيك التركماني المذكور وعلم بهم فقبض على بعضهم وهرب بعضهم وكان البرلى المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعاً من بين يدي التتر أخرج البرلى من حبس عجلون وطُيِّب خاطره فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين اقوش البرلى المذكور مع العساكر إلى مصر فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة فلما استقر بدمشق على ما ذكرناه وكان مقرّ البرلى لما تولى هذه الأعمال بنابلس تارة وبيت جبرين أخرى ثم إن الملك المظفر قطز فوّض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي وهو الذي كان أتابكا لعلّ بن المعز أيك وفوّض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ودخل مع العساكر إلى مصر وصار مع المظفر قطز ففوّض إليه نيابة السلطنة بحلب وكان سببه أن أخاه الملك الصالح ابن لولو قد صار صاحب الموصل بعد أبيه فولّاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتر ولما استقر السعيد المذكور في نيابة حلب سار سيرة ردية وكان دأبه التحيل على أخذ مال الرعية .

ذكر مسير الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرّر الملك المظفر قطز المعزى المذكور أمر الشام على ما شرحناه سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق بيبرس البندقداري الصالحى مع أنص مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صغن أغلى على قتل المظفر قطز وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية فبينما قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها وساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدّم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وذلك في سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية .

ذكر سلطنة بيبرس البندقدارى المذكور

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرناه وكان عند الدهليز نايب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب وهو الذى صار أتابكا لعلى بن المعز أيبك بعد الحلبي ، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة ، فلما وصل بيبرس البندقدارى مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز سألهم أقطاي المستعرب المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا قال له أقطاي ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتحليف فحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، واستقر بيبرس فى السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر ، لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقب به أحد فطالت مدته ، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها ليكون ما قدره الله تعالى ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية ساق فى جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها واستقرت قدمه فى المملكة وكان قد زينت مصر والقاهرة لمقدم قطز فاستمرت الزينة بمقدم بيبرس المذكور وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة .

ذكر إعادة عمارة قلعة دمشق

وفى هذه السنة : فى العشر الأخير من ذى القعدة شرع الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق فى عمارة قلعة دمشق وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس وعملوا فيها حتى النساء أيضا وكان عند الناس بذلك سرور عظيم .

ذكر سلطنة الحلبي بدمشق

كان علم الدين سنجر الحلبي وقد استنابه الملك المظفر قطز بدمشق على ما تقدم ذكره ، فلما جرى ما ذكرناه من قتل قطز وسلطنة الملك الظاهر جمع الحلبي الناس وحلفهم لنفسه

بالسلطنة وذلك في العشر الأول من ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأجابه الناس إلى ذلك وحلفوا له ولم يتأخر عنه أحد ، ولقب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب الملك المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان .

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعود التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرّره قطز بحلب وجرّد معه جماعة من العزيزية والناصرية وكان ردىء السيرة وقد أبغضه العسكر وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة فجرّد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري فأشار عليه كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ما هو مصلحة وأن هؤلاء قليلون فيحصل الطمع بسببهم في البلاد فلم يلتفت إلى ذلك وأصرّ على مسيرهم فسار سابق الدين أمير مجلس بمن معه حتى قاربوا البيرة فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك فاجتمعوا وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه وكان قد برز إلى باب إلى المعروف بباب الله ولما استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالا طايلاً فهذّوه بالعذاب إن لم يقر لهم بما له فنبش من تحت أشجار حايط دار بياضى جملة من المال قيل كانت خمسين ألف دينار مصرية ففرقت في الأمراء وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشفر وبكاس معتقلاً ، ثم لما اندفع العسكر من بين يدي التتر على ما سنذكره أفرجوا عنه ، ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصرية وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي ، ثم سارت التتر إلى حلب فاندفع حسام الدين الجوكندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة ، ووصل التتر إلى حلب في أواخر هذه السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرينيا واسمها مقرّ الأنبياء فسماها العامة قرينيا ولما اجتمع المسلمون بقرينيا بدل التتر فيهم السيف فأفنوا غالبهم وسلم القليل منهم ووصل حسام الدين الجوكندارو من معه إلى حماة فضيفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة وهو مستشعر خائف من غدرهم ، ثم رحلوا من حماة إلى حمص فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصور صاحبها وصحبته أخوه الملك الأفضل على والأمير مبارز الدين وباقي العسكر واجتمعوا بحمص مع باقى العساكر إلى أن خرجت هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة :

ذكر كسرة التتر على حمص

وفي يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص ، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا في آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم ، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة ووصلوا إلى حمص واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر وسارت التتر إليهم والتقوا بظاهر حمص في نهار الجمعة المذكور وكانت التتر أكثر من المسلمين بكثير ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر وولى التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاء ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الواقعة وانضم من سلم من التتر إلى باقى جماعتهم وكانوا نازلين قرب سلمية واجتمعوا ونزلوا على حماة ولها صاحبها الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل والعسكر وأقام التتر على حماة يوماً واحداً ثم رحلوا عن حماة وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة من ذلك حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب فسافر هو وأخوه الملك الأفضل في جماعة قليلة وبقي الطواشى مرشد في باقى العسكر بحماة ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق وأما حسام الدين الجوكندار العزيزي فتوجه أيضاً بمن في صحبته ولم يدخل دمشق ونزل بالمرج ثم سار إلى مصر وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق في دورهما والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبي الملقب بالسلطان الملك المجاهد وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلوا في طاعته لضعفه وتلاشى أمره وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلى الأشرى ومعه جماعة فأقام بقلعة فامية وبقي يغير على التتر فرحلوا عن فامية وتوجهوا إلى الشرق .

ذكر القبض على سنجر الحلبي الملقب بالملك المجاهد

وفي هذه السنة : جهز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكرياً مع علاء الدين البندقدار وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين سنجر الحلبي المستولى على دمشق فوصلوا إلى دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة ، ولما وصل عسكري مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبي

لقتالهم ، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق لم يخرجوا مع الحلبي لقتالهم ولا أطاعاه لاضطراب أمر الحلبي واقتتل معهم بظاهر دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة ، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة فولى الحلبي وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جثه الليل فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها واستقر أيديكين البندقدار الصالحى في دمشق لتدبير أمورها ولما استقر الحال على ذلك رحل الملك المنصور صاحب حماة والملك والأشرف صاحب حمص وعادا إلى بلادهما واستقرا بها .

ذكر خروج البرلى عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلائه على حلب

وفي هذه السنة : بعد استقرار علاء الدين أيديكين البندقدار في دمشق ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بيبرس بالقبض على بهاء الدين بغدى الأشرفى وعلى شمس الدين أقوش البرلى وغيرهما من العزيزية والناصرية وبقي علاء الدين أيديكين متوقعا ذلك فتوجه بغدى إلى علاء الدين أيديكين فحال دخوله عليه قبض على بغدى المذكور فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلى وخرجوا من دمشق ليلا على حمية ونزلوا بالمرج ، وكان أقوش البرلى قد ولّاه المظفر قطز غزة والسواحل على ما قدّمنا ذكره ، فلما جهّز الملك الظاهر أستاذه البندقدار إلى قتال الحلبي أرسل إلى البرلى وأمره أن ينضمّ إليه فصار البرلى مع البندقدار وأقام بدمشق ، فلما قبض على بغدى خرج البرلى إلى المرج وأرسل علاء الدين أيديكين البندقدار إلى البرلى يطيب قلبه ويحلف له فلم يلتفت إلى ذلك ، وسار البرلى إلى حمص وطلب من صاحبها الأشرف موسى أن يوافقه على العصيان فلم يجبه إلى ذلك ، ثم توجه إلى حماة وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة إنه لم يبق من البيت الأيوبي غيرك وقم لنصير معك وملكك البلاد فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك وردّه ردّا قبيحا ، فاغناظ البرلى ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر وسار إلى شيزر ثم إلى جهة حلب وكان علاء الدين أيديكين البندقدار لما استقر بدمشق قد جهّز عسكرا صحبة فخر الدين الحمصى للكشف عن البيرة فان التتر كانوا قد نازلوها فلما قدم البرلى إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصى المذكور فقال له البرلى نحن في طاعة الملك الظاهر فتمضى إلى السلطان وتسأله أن يتركنى ومن في صحبتى مقيمين بهذا الطرف وتكون تحت طاعته من غير أن يكلفنى وطىء بساطة فصار الحمصى إلى جهة مصر ليؤدى هذه الرسالة فلما سار عن حلب تمكّن البرلى واحتاط على ما في حلب من الحواصل واستبد بالأمر وجمع العرب

والتركمان واستعدّ لقتال عسكر مصر ولما توجه فخر الدين الحمصى لذلك التقى في الرمل جمال الدين المحمدى الصالحى متوجها بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلى وإمساكه فأرسل الحمصى عرف الملك الظاهر بما طلبه البرلى فأرسل الملك الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصى المذكور ويأمره بالانضمام إلى المحمدى والمسير إلى قتال البرلى فعاد من وقته ثم رضى الملك الظاهر عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه وراء المحمدى في جمع من العسكر ثم أردفه بعز الدين الدمياطى في جمع آخر وسار الجميع إلى جهة البرلى وساروا إلى حلب وطرده عنها وانقضت السنة والأمر على ذلك .

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفي هذه السنة : ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعقد عزاه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وصورة الحال في قتله أنه لما وصل إلى هولاءكو على ما قدّمنا ذكره وعده برده إلى ملكه وأقام عند هولاءكو مدة ، فلما بلغ هولاءكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص بانبا غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازى وقال له أنت قلت إن عسكر الشام في طاعتك فغدرت بى وقتلت المغل فقال الملك الناصر لو كنت بالشام ماضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد أوريز كيف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هولاءكو لعنه الله ناصحا وضربه به فقال الملك الناصر باخوند الصنيعة فنهاء أخوه الظاهر وقال قد حضرت ثم رماه بفردة نانية فقتله ثم أمر بضرب رقاب الباقيين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيرا فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه ثم مات ، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعمره سبع سنين وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين وستمائة وعمره ثلاث عشرة سنة وزاد ملكه على ملك أبيه وجده فإنه ملك مثل حران والرها والرقعة ورأس عين وما مع ذلك من البلاد وملك حمص ثم ملك دمشق وبعلبك والأغوار والسواحل إلى غزة وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذى تقدم ذكره ، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبر دولته شمس الدين لولو الأرمنى ومخامرة ممالك أبيه العزيزية ، وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعمئة رأس غنم .

وكانت سماطاته وتجمله في الغاية القصوى ، وكان حليماً وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة ، فإنه لما أمنت قطاع الطريق في أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحد في الفساد بالمملكة وانقطعت الطرق في أيامه وبقي لا يقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكر وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه وكثرت الحرامية وكانوا يكبسون الدور ومع ذلك إذا حضر القاتل إلى بين يدي الملك الناصر المذكور يقول الحى خير من الميت ويطلقه فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات وانتشار الحرامية والمفسدين وكان على ذهن الناصر المذكور شئ كثير من الأدب والشعر ويروى له أشعار كثيرة منها :

فوالله لو قطعت قلبي تأسفاً وجرعتنى كاسات دمعى دما صرفا
لما زادنى إلا هوى ومحبة ولا اتخذت روحى سواك لها إلفا

وبنى بدمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية ووقف عليها وقفا جليلاً وبني بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة فدفن بها كرمون وهو بعض أمراء التتر وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم وكان مولد الناصر المذكور في سنة سبع وعشرين وستمائة فيكون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريباً .

ذكر مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبه

وفي هذه السنة : في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر فعقد الملك الظاهر ببيرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، والقاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف المعروف بابن بنت الأعز فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر فيكون عم المستعصم وأقام القاضى جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فأثبت القاضى تاج الدين نسب أحمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد ابن الظاهر بالله محمد وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكرياً وغرم على تجهيزه جملاً طائلة قيل إن قدر ما غرمه عليه ألف ألف دينار ، وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزرايينى وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور في رمضان من هذه السنة وتوجهوا إلى دمشق وكان في كل منزلة يمضى الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به ولما وصلا إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة في جبل الصالحية ونزل حول الخليفة أمراؤه

وأجنداه ثم جهّز الخليفة بعسكره إلى جهة بغداد طمعاً في أن يستولى على بغداد ويجمع عليه الناس فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودّعه ووصاه بالتأني في الأمور ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة ثم سار إلى الديار المصرية ودخلها في سابع عشر ذى الحجة من هذه السنة ، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانه والحديثة وولى عليها وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الحضور إليهم ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر وقتلوا الخليفة المذكور وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم وجاءت الأخبار بذلك .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة : لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضي شمس الدين ابن خلكان فسافر في صحبته من مصر إلى الشام فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين ابن صدر الدين بن سنا الدولة وكان قطر قد عزل المحيي بن الزكي الذي ولاه هولاكو القضاء وولى ابن سنا الدولة فعزله الملك الظاهر في هذه السنة ، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان . وفيها : قدم أولاد صاحب الموصل وهم الملك الصالح إسماعيل ثم أخوه الملك المجاهد اسحق صاحب جزيرة ابن عمر ثم أخوهما الملك المظفر على صاحب سنجار أولاد لولو فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليّة بالديار المصرية واستمروا في أرغد عيش في طول مدة الملك الظاهر .

وفيها : في ربيع الآخر وردت الأخبار من ناحية عكا أن سبع جزر في البحر خسف بها وبأهلها وبقي أهل عكا لابسين السواد وهم يبكون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم . وفيها : جهّز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الأيد مرى فتسلّم الشوبك في سلخ ذى الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستمئة وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك .

ثم دخلت سنة ستين وستمئة :

في هذه السنة : في نصف رجب وردت جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغادة وكانوا قد تأخروا في العراق بعد استيلاء التتر على بغداد ، وقتل الخليفة وكان مقدّمهم يقال له شمس الدين سلاّر فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاه وعين لهم الإقطاعات بالديار المصرية . وفيها : في رجب أيضاً وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية عماد الدين

ابن مظفر الدين صاحب صهيون رسولاً من أخيه سيف الدين صاحب صهيون وصحبته هدية جليلة فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه .

وفيها : جهّز الملك الظاهر عسكرياً إلى حلب وكان مقدّمهم شمس الدين سنقر الرومى فأمنت بلاد حلب وعادت إلى الصلاح ثم تقدّم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومى وإلى صاحب حماة الملك المنصور وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومى إلى مصر ووصلوا إليها في تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهم ما ينوف عن ثلثمائة أسير فقابلهم الملك الظاهر بالإحسان والإنصاف .

وفيها : لما ضاقت على أقوش البرلى البلاد وأخذت منه حلب ولم يبق بيده غير البيرة دخل في طاعة الملك الظاهر وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالإحسان إليه وترتيب الإقامات له في الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية في ثاني الحجة من هذه السنة أعنى سنة ستين فتلقاه الملك الظاهر وبالغ في الإحسان إليه وأكثر له العطا فسأل أقوش البرلى من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل وما زال يعاوده حتى قبلها وبقي أقوش البرلى العزيزى المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغير عليه وقبضه في رجب سنة إحدى وستين وستمائة فكان آخر العهد به .

وفيها : في ذي القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق وهو علاء الدين بيبرس الوزيرى وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين أيديكين البندقدار عنها وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكرياً مع عز الدين الدمياطى وغيره من الأمراء فلما وصلوا إلى دمشق خرج بيبرس لتلقيهم فقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى مصر فحبسه الملك الظاهر واستمرّ الحاج بيبرس في الحبس سنة وشهراً وكانت مدّة ولايته بدمشق سنة وشهراً أيضاً وكان بيبرس المذكور ردىء السيرة في أهل دمشق حتى نزع عنها جماعة كبيرة من ظلمه وحكم في دمشق بعد قبض بيبرس المذكور علاء الدين أيدي كان الحاج الركنى تم استتاب الملك الظاهر على دمشق الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى .

وفيها : في يوم الخميس في أواخر ذي الحجة من هذه السنة أعنى سنة ستين وستمائة جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد أن أثبت نسبه وبايعه بالخلافة ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وقد اختلف في نسبه فالذى هو مشهور بمصر عند نسابة مصر أنه أحمد بن حسن بن أبى بكر ابن الأمير أبى على الفتى ابن الأمير حسن بن الراشد بن المسترئدا بن المستظهر ، وقد مرّ نسب المستظهر مع جملة خلفاء بنى العباس وأما عند الشراف

العباسيين السلمانيين في درج نسيهم الثابت فقالوا هو أحمد بن أبي بكر على ابن أبي بكر أحمد بن الإمام المسترشد الفضل بن المستظهر ، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزله في برج محترزا عليه وأشرك له الدعاء في الخطبة لا غير ذلك .

وفيها : جهز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري رسولا إلى الملك الظاهر ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد السلطان الملك الظاهر عاتبا على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك ثم انصلح خاطره وحمله ما طيب به قلب صاحبه الملك المنصور ثم عاد إلى حماة .

وفيها : توفي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي الإمام في مذهب الشافعي ، وله مصنفات جليلة في المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى .

وفيها : في ذى الحجة توفي الصاحب كمال الدين عمر بن عبد العزيز المعروف بابن العديم انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة وكان فاضلا كبير القدر ألف تاريخ حلب وغيره من المصنفات وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر ثم عاد بعد خراب حلب إليها فلما نظر ما فعله التتر من خراب حلب وقتل أهلها بعد تلك العمارة قال في ذلك قصيدة طويلة منها :

هو الدهر ما تبنيه كفاك يهدم	وإن رمت إنصافاً لديه فيظلم
أيا ملوك الفرس جمعا وقيصرا	وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم	وما منهم إلا مليك معظم
وملك بنى العباس زال ولم يدع	لهم أثرا من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدا	تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجائب	أحل بها يا صاح إن كنت تعلم
ومنها :	

فيا لك من يوم شديد لغامه	وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت	مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم
وهي طويلة وآخرها :	

ولكنها لله في ذا مشيئة	فيفعل فينا ما يشاء ويحكم
------------------------	--------------------------

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة :

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

في هذه السنة : في حادى عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر ببيرس من الديار المصرية إلى الشام فلاقته والدته الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة وتوثقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان وأحسن إليها ثم توجهت إلى الكرك وتوجه صاحبها شرف الدين الجاكي المهندار يرسم حمل الإقامات إلى الطرقات يرسم الملك المغيث ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور في ثانى عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص في نصف الشهر المذكور فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه .

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله واستيلاء الملك الظاهر ببيرس على الكرك

في هذه السنة : كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبى بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك وسببه أنه كان فى قلب الملك الظاهر ببيرس منه غيظ عظيم لأمر كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر ببيرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق وهرب الملك الظاهر ببيرس المذكور وبقيت امرأته فى الكرك والله أعلم بحقيقة ذلك وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر ببيرس ما زال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدم ذكره ، وكان عند المغيث شخص يسمى الأجد وكان يبعثه فى الرسالة إلى الملك الظاهر فكان الظاهر يباليغ فى إكرامه وتقريبه فاغتر الأجد بذلك وما زال على مخدمه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر حكى لى شرف الدين ابن مزهر وكان ابن مزهر المذكور ناظر خزانة المغيث قال لما عزم المغيث على التوجه إلى خدمة الملك الظاهر لم يكن قد بقى فى خزانته شئ من المال ولا القماش وكان لوالدته حواصل فى البلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم واشترينا باثنى عشر ألف درهم خلعا من دمشق وجعلنا فى صناديق الخزانة الاثنى عشر الألف الأخرى ونزل المغيث من الكرك وأنا والأجد وجماعة من أصحابه معه فى خدمته قال وشرعت البريدية تصل إلى الملك المغيث فى كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر ويرسل صاحبهم مثل غزلان ونحوها

والمغيث يخلع عليهم حتى نقد ما كان بالخزانة من الخلع ومن جملة ما كتب إليه في بعض المكاتبات الملوك تنشد في قدوم مولانا :

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى يمشى إلى عبد

قال وكان الخوف في قلب المغيث شديداً من الملك الظاهر قال ابن مزهر المذكور ففاتحنى في شيء من ذلك بالليل فقلت له احلف إلى أنك لا تقول للأبجد ما أقوله لك حتى أنصحك فحلف لي فقلت له اخرج الساعة من تحت الخام واركب حجرتك النجيلة ولا يصبح لك الصباح إلا وأنت قد وصلت إلى الكرك فتعصى فيه ولا تفكر بأحد قال ابن مزهر ففأفلنى وتحدث مع الأبجد في شيء من ذلك فقال له الأبجد هذا رأى ابن مزهر إياك من ذلك وسار المغيث حتى وصل إلى بيسان فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاء في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة ، فلما شاهد المغيث الملك الظاهر ترجل فمنعه الملك الظاهر وأركبه وساق إلى جانبه وقد تغير وجه الملك الظاهر فلما قارب الدهليز أفرد الملك المغيث عنه وأنزله في خيمة وقبض عليه وأرسله معتقلاً إلى مصر فكان آخر العهد به قيل إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر ببيرس بقلعة الجبل فأمرت جوارها فقتلته بالقباقيب ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث ومن جملتهم ابن مزهر المذكور ثم بعد ذلك أفرج عنهم انتهى كلام ابن مزهر .

ولما التقى بالملك الظاهر ببيرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عن ما كتب إليهم به في أطعاهم في ملك مصر والشام وكتب في ذلك مشروح وأثبت على الحكم وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز أعطاه الملك الظاهر إقطاعاً بديار مصر وأحسن إليه ثم جهز الملك الظاهر بدر الدين البيسى وعز الدين أستاذ الدار إلى الكرك فتسلماها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعنى سنة إحدى وستين وستمائة ، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتب أمورها ثم عاد إلى الديار المصرية فوصل إليها في سابع عشر رجب من هذه السنة .

ذكر الإغارات على عكا وغيرها

وفي هذه السنة : لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور أرسل عسكرياً هدموا كنيسة الناصرة وهى من أكبر مواطن عبادات النصارى لأن منها خرج دين النصرانية وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم وأغار ثانياً على عكا وبلادها وهدم برجاً كان خارج البلد وذلك عقيب إغارة عسكريه وهدم الكنيسة الناصرة .

ذكر القبض على من يذكر

وفيها : بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر واستقراره في ملكه في رجب قبض على الرشيدى ثم قبض في ثاني يوم على الدمياطى والبرلى وقد تقدّمت أخبار البرلى المذكور .

ذكر وفاة الأشرف صاحب حمص

وفي هذه السنة : بعد عود الملك الأشرف صاحب حمص موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص مرض واشتدّ به المرض وتوفى إلى رحمة الله تعالى وأرسل الملك الظاهر وتسلم حمص في ذى القعدة من هذه السنة أعني سنة إحدى وستين وستمائة وهذا الملك الأشرف موسى هو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه ، وقد تقدّمت أخبار الأشرف موسى المذكور وأخذ الملك الناصر يوسف صاحب حلب منه حمص بسبب تسليمه شيميس للملك الصالح أيوب صاحب مصر وأنه يعوّض عن حمص تل باشر ثم أعاد هولاكو عليه حمص فبقيت في يده حتى توفى في أواخر هذه السنة وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر بيبرس في ذى القعدة كما تقدّم ذكره وكان جملة من ملك حمص منهم خمسة ملوك أولهم شيركوه بن شاذى ملكه إياها نور الدين الشهيد ثم ملكها من بعده ابنه ناصر الدين محمد بن شيركوه ثم ملكها بعده ابنه شيركوه بن محمد وتلقب بالملك المجاهد ثم ملكها بعده ابنه إبراهيم بن شيركوه وتلقب بالملك المنصور ثم ملكها بعده ابنه موسى بن إبراهيم وتلقب بالملك الأشرف حتى توفى في هذه السنة وانقرض بموته ملك المذكورين .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة :

في هذه السنة : قبض الأشكرى صاحب القسطنطينية على عز الدين كيكائوس بن كيخسرو بن كيقباز صاحب بلد الروم وسببه أن عز الدين كيكائوس المذكور كان قد وقع بينه وبين أخيه فاستظهر أخوه عليه فهرب كيكائوس وبقي أخوه ركن الدين قليج أرسلان في سلطنة بلاد الروم ، ثم سار كيكائوس المذكور إلى قسطنطينية فأحسن إليه الأشكرى صاحب قسطنطينية وإلى من معه من الأمراء واستمرّوا كذلك مدة ، فعزمت الأمراء والجماعة الذين كانوا مع عز الدين المذكور على اغتيال الأشكرى وقتله والتغلب على قسطنطينية وبلغ ذلك

الأشكرى فقبض عليهم واعتقل عز الدين كيكأوس بن كيخسرو في بعض القلاع وكحل الأمراء والجماعة الذين كانوا عزموا على ذلك فأعمى عيونهم وقد تقدّم ذكر كيكأوس المذكور وأخيه قليج أرسلان في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وفيها : في ثامن شهر رمضان توفي الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى المعروف بشيخ الشيوخ بحماة وكان مولده في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى وكان ديناً فاضلاً متقدماً عند الملوك وله النثر البديع والنظم الفائق وكان غزير العقل عارفاً بتدبير المملكة فمن حسن تدبيره أن الملك الأفضل على ابن الملك المظفر محمود لما ماتت والدته غازية خاتون بنت الملك الكامل رحمهما الله تعالى ، حصل عند الملك الأفضل المذكور استشعار من أخيه الملك المنصور محمد صاحب حماة فعزم على أن ينتزع من حماة ويفارق أخاه الملك المنصور وأذن له أخوه الملك المنصور في ذلك ، فاجتمع الشيخ شرف الدين المذكور بالملك الأفضل وعرفه ما يعتمد منه من السلوك مع أخيه الملك المنصور ثم اجتمع بالملك المنصور وقبّح عنده مفارقة أخيه وما برح بينهما حتى أزال ما كان في خواطرهما وصار للملك الأفضل في خاطر أخيه الملك المنصور من المحبة والمكانة ما يفوت الوصف وكان ذلك من بركة شرف الدين المذكور وللشيخ شرف الدين المذكور أشعار فائقة قد تقدّم ذكر بعضها وكان مرة مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام بعمان فعمل الشيخ شرف الدين :

أفدى حبيباً منذ واجهته عن وجه بدر التمام أغنانى
في وجهه خالان لولاهما ما بت مفتوناً بعمان

وأشدها الملك الناصر فأعجبه إلى النهاية وجعل يردّد إنشادهما وقال لكاتبه كمال الدين ابن العجمي هكذا تكون الفضيلة فقال ابن العجمي إن التورية لا تخدم هنا لأن عمان مجرورة في النظم فلا تخدمه في التورية فقال الملك الناصر للشيخ شرف الدين ما قاله .
فقال الشيخ شرف الدين إن هذا جايز وهو أن يكون المثنى في حال الجر على صورة الرفع واستشهد شرف الدين يقول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى مساعداً لنباه الشجاع لصمماً
واستشهد بغير ذلك فتحقق الملك الناصر فضيلته .

تم الجزء الثالث من تاريخ أبي الفدا
ويليه الجزء الرابع وأوله
ذكر فتوح قيسارية

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ذكر أخبار الإسماعيلية بالسام وقتلهم وحصر الفرنج دمشق	٧
ذكر ملك عماد الدين زنكى حماة	٧
ذكر غير ذلك	٨
ذكر فتح الأنارب	٨
ذكر وفاة الأمر بأحكام الله العلوى	٩
ذكر غير ذلك	٩
ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود	١٠
ذكر غير ذلك	١١
ذكر الحرب بن المسترشد الخليفة وبين عماد الدين زنكى	١٢
ذكر وفاة تورى صاحب دمشق	١٢
ذكر ملك شمس الملوك إسماعيل مدينة حماة	١٣
ذكر غير ذلك من الحوادث	١٣
ذكر قتل إسماعيل صاحب دمشق	١٥
ذكر قتل حسن ابن الحافظ لدين الله العلوى	١٥
ذكر الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان وأسر الخليفة وقتله	١٥
ذكر خلافة الراشد	١٦
ذكر قتل دبيس	١٦
ذكر غير ذلك	١٧
ذكر ملك سهاب الدين حمص	١٧
ذكر غير ذلك	١٧
ذكر خلع الراشد وخلافة المقتفى	١٨
ذكر حصر زنكى حمص ورحيله إلى بارين وفتحها	١٩
ذكر ملك عماد الدين زنكى حمص وغيرها	١٩
ذكر وصول ملك الروم إلى السام وما فعله	٢٠

٢١ ذكر مقتل الراشد
٢١ ذكر غير ذلك
٢٢ ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه
٢٢ ذكر قتل محمود صاحب دمشق
٢٢ ذكر ملك زنكى بعلبك
٢٣ ذكر غير ذلك
٢٧ ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب
٢٧ ذكر حصار عماد الدين زنكى حصن جعبر وفنك ومقتله
٢٨ ذكر غير ذلك من الحوادث
٢٨ ذكر ملك الفرنج المهدية بأفريقية وحال مملكة بنى باديس
٢٩ ذكر حصر الفرنج دمشق
٣٠ ذكر غير ذلك من الحوادث
٣٠ ذكر وفاة غازى بن زنكى
٣١ ذكر وفاة الحافظ لدين الله العلوى وولاية الظاهر
٣١ ذكر غير ذلك من الحوادث
٣٣ ذكر هزيمة نور الدين من جوسلين ثم أسر جوسلين
٣٤ ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه وملك ملكشاه ومحمد ابنى محمود
٣٤ ذكر فتح دلوک
٣٤ ذكر ابتداء ظهور الملوك الغورية وانقراض دولة آل سبكتكين
٣٦ ذكر وفاة صاحب ماردين
٣٧ ذكر أخبار الغز وهزيمة السلطان سنجر منهم وأسرهم
٣٨ ذكر غير ذلك من الحوادث
٣٩ ذكر قتل الظاهر وولاية ابنه الفائز
٤٠ ذكر حصر تكريت
 ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن
٤٠ محمد بن بورى بن طغتكين
٤١ ذكر وفاة خوارزم شاه

٤١ ذكر وفاة ملك الروم
٤١ ذكر هرب السلطان سنجر من أسر الغز
٤٢ ذكر غير ذلك من الحوادث
٤٣ ذكر الزلازل بالشام وأخبار بني منقذ أصحاب شيزر إلى أن ملك نور الدين شيرز
٤٥ ذكر وفاة السلطان سنجر
٤٥ ذكر غير ذلك من الحوادث
٤٦ ذكر فتح المهدي
٤٧ ذكر وفاة السلطان محمد
٤٧ ذكر مرض نور الدين
٤٧ ذكر أخبار اليمن (من تاريخ اليمن لعمارة)
٤٨ ذكر مسير سليمان شاه إلى همدان وما كان منه إلى أن قتل
٤٩ ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين
٥٠ ذكر وفاة المقتفى لأمر الله
٥٠ ذكر خلافة المستنجد
٥٠ ذكر وفاة صاحب غزنة
٥٠ ذكر وفاة ملكشاه السلجوقي
٥١ ذكر غير ذلك من الحوادث
٥١ ذكر نهب نيسابور وتخريبها وعمارة الشاذباخ
٥١ ذكر قتل الصالح بن رزق
٥٢ ذكر ملك عيسى مكة حرسها الله تعالى
٥٢ ذكر غير ذلك
٥٣ ذكر وزارة شاور ثم الضرغام
٥٣ ذكر وفاة عبدالمؤمن
٥٤ ذكر غير ذلك من الحوادث
٥٨ ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر
 ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء
٥٩ الدولة الأيوبية

٦٣ ذكر غير ذلك من الحوادث
٦٤ ذكر وفاة المستنجد وخلافة المستضيء
٦٥ ذكر غير ذلك من الحوادث
٦٦ ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية
٦٧ ذكر غير ذلك
٧٠ ذكر ملك شمس الدولة توران شاه بن أيوب اليمن
٧٠ ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمنى
٧٢ ذكر وفاة نور الدين محمود
٧٢ ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر
٧٣ ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها
٧٥ ذكر غير ذلك من الحوادث
٧٥ ذكر انهزام سيف الدين غازى صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين
٧٦ ذكر غير ذلك
٨٠ ذكر وفاة المستضيء وخلافة الإمام الناصر
٨٠ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل
٨١ ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب
٨٢ ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام
٨٣ ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن
٨٣ ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد
٨٤ ذكر غير ذلك من الحوادث
٨٥ ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد
٨٦ ذكر غير ذلك من الحوادث
٨٧ ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن
٨٧ ذكر غزو السلطان الكرك
٨٧ ذكر وفاة صاحب ماردین
٨٨ ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل
٨٩ ذكر وفاة صاحب حصن كيفا

- ٨٩ ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين
- ٨٩ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ذكر نقل الملك العادل أخى السلطان من حلب وإخراج الملك الأفضل بن السلطان
- ٩٠ من مصر إلى دمشق
- ٩٠ ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل
- ٩١ ذكر غير ذلك
- ٩١ ذكر غزوات السلطان الملك الناصر صلاح الدين وفتوحاته
- ٩٢ ذكر وقعة حطين وهى الوقعة العظيمة التى فتح الله بها الساحل وبيت المقدس
- ٩٤ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ٩٥ ذكر فتوحات السلطان صلاح الدين وغزواته
- ٩٧ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ٩٧ ذكر حصار الفرنج عكا
- ٩٨ ذكر غير ذلك
- ١٠٠ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ١٠٠ ذكر استيلاء الفرنج على عكا
- ١٠٢ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر
- ١٠٣ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ١٠٤ ذكر عقد الهدنة مع الفرنج وعود السلطان إلى دمشق
- ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا
- ١٠٦ بعده
- ١٠٧ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ذكر وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شادى
- ١٠٧ وشىء من أخباره
- ١١٠ ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان
- ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التى بيد الملك العادل
- ١١١ وعوده وموته
- ١١١ ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

١١٢ ذكر غير ذلك
١١٢ ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الري
١١٤ ذكر غير ذلك
١١٦ ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل
١١٧ ذكر وفاة سيف الإسلام
١١٨ ذكر أخبار ملوك خلاط
١١٩ ذكر وفاة العزيز صاحب مصر
١٢٠ ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين
١٢١ ذكر وفاة يعقوب ملك المغرب
١٢١ ذكر الفتنة بفيروزكوه
١٢٣ ذكر وفاة خوارزم شاه
١٢٥ ذكر غير ذلك من الحوادث
١٢٧ ذكر غير ذلك
١٢٧ ذكر الحوادث باليمن
١٣٠ ذكر وفاة غياث الدين ملك الغورية
١٣٠ ذكر غير ذلك
١٣٢ ذكر قتل ملك الغورية شهاب الدين
١٣٤ ذكر غير ذلك
١٣٤ ذكر غير ذلك
١٣٥ ذكر استيلاء الملك الأوحـد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط
١٣٦ ذكر قتل خوارزم شاه مع الخطا لما وراء النهر
١٣٧ ذكر قتل غياث الدين محمود وعلى شاه
١٣٧ ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجها إلى بلاده الشرقية
١٣٨ ذكر مقتل صاحب الجزيرة
١٤٠ ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل
١٤١ ذكر غير ذلك
١٤١ ذكر وفاة الملك الأوحـد صاحب خلاط

- ١٤٥ ذكر استيلاء الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن
- ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب
- ١٤٦ حلب
- ١٤٧ ذكر غير ذلك
- ١٤٨ ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل
- ١٤٨ ذكر قصد كيكاس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حلب
- ١٤٩ ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب
- ذكر استيلاء عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي آقسنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل
- ١٥١ ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل
- ١٥٢ ذكر وفاة صاحب سنجار
- ١٥٢ ذكر تخريب القدس
- ١٥٣ ذكر استيلاء الفرنج على دمياط
- ١٥٣ ذكر ظهور التتر
- ١٥٤ ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته
- ١٥٥ ذكر وفاة كيكاس وملك أخيه كيقباز
- ١٥٥ ذكر غير ذلك
- ١٥٧ ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة
- ١٥٧ ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة
- ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميافارقين
- ١٥٨ ذكر مسير التتر إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته
- ١٦٠ ذكر عود دمياط إلى المسلمين
- ١٦٢ ذكر وفاة صاحب آمد
- ١٦٢ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ١٦٥ ذكر أحوال غيات الدين أخى جلال الدين ابني خوارزم شاه محمد
- ١٦٥ ذكر حادثة غريبة

- ١٦٦ ذكر وفاة ملك المغرب
- ١٦٦ ذكر عصيان المظفر غازي بن العادل على أخيه الملك الأشرف
- ١٦٧ ذكر وصول جلال الدين من الهند إلى البلاد
- ١٦٨ ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين يوسف
- ١٦٨ ذكر وفاة الإمام الناصر
- ١٦٩ ذكر خلافة ابنه الظاهر
- ١٧٠ ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله
- ١٧٠ ذكر خلافة المستنصر
- ١٧٠ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ١٧١ ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق
- ١٧٢ ذكر وفاة ملك المغرب وأخبار الذين تملكوا بعده
- ١٧٤ ذكر غير ذلك
- ١٧٦ ذكر انتزاع دمشق
- ١٧٦ ذكر وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ابن الملك العادل بن أيوب
- ١٧٧ ذكر القبض على الحاجب نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله
- ١٧٧ ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة
- ١٧٩ ذكر عمارة شميميس
- ١٨٠ ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك
- ١٨٠ ذكر مقتل الملك الأمجد
- ١٨٠ ذكر ملك جلال الدين خلاط
- ١٨٠ ذكر كسرة جلال الدين ابن الملك الأشرف
- ١٨١ ذكر قصة التتر في بلاد الإسلام
- ١٨٢ ذكر قتل جلال الدين
- ١٨٦ ذكر غير ذلك
- ١٨٧ ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر
- ١٨٨ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ١٨٩ ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقيباذ ملك بلاد الروم

١٩٤ ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب
١٩٥ ذكر وفاة الملك الأتurf
١٩٦ ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ووفاته وما يتعلق بذلك
١٩٨ ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة
١٩٨ ذكر غير ذلك من الحوادث
١٩٩ ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق
٢٠١ ذكر غير ذلك
 ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر
٢٠٢ ذكر وفاة صاحب ماردين
٢٠٣ ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها
٢٠٤ ذكر ما كان من الملك الجواد يونس
٢٠٥ ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهي والددة الملك العزيز
٢٠٧ ذكر وفاة المستنصر بالله
٢٠٨ ذكر المصاف الذي كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص
٢٠٩ ذكر وفاة صاحب حماة
٢١٠ ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق
٢١١ ذكر غير ذلك من الحوادث
٢١١ ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك
٢١٢ ذكر غير ذلك من الحوادث
٢١٣ ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طنناخ
٢١٦ ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك
٢١٧ ذكر وفاة الملك الصالح
٢١٧ ذكر غير ذلك
٢١٨ ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم
٢١٩ ذكر مقتل الملك المعظم

- ٢٢٠ ذكر ملك الملك المغيث الكرك
- ٢٢١ ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق
- ٢٢١ ذكر سلطنة أيبك التركماني
- ذكر عقد السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف بأقسييس
- ٢٢٢ ذكر تخريب دمياط
- ٢٢٢ ذكر القبض على الناصر داود
- ٢٢٢ ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرتة
- ٢٢٤ ذكر قتل صاحب اليمن
- ٢٢٥ ذكر أحوال الناصر صاحب الكرك
- ٢٢٦ ذكر دولة الحفصيين ملوك تونس
- ٢٢٩ ذكر مقتل أقطاي
- ٢٣٠ ذكر غير ذلك
- ٢٣١ ذكر قتل المعز أيبك التركماني
- ٢٣٢ ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز
- ٢٣٢ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ٢٣٣ ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية
- ٢٣٤ ذكر الواقعة بين المغيث صاحب الكرك وعسكر مصر
- ٢٣٤ ذكر وفاة الناصر داود
- ٢٣٦ ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة
- ٢٣٦ ذكر غير ذلك من الحوادث
- ٢٣٧ ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل
- ٢٣٨ ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك
- ٢٣٨ ذكر سلطنة قطز
- ٢٣٩ ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة
- ٢٣٩ ذكر قصد هولاكو الشام
- ٢٤٠ ذكر ما كان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

- ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق
 ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم ٢٤٠
- ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب ٢٤١
- ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجددات بالشام ٢٤٢
- ذكر استيلاء التتر على ميافارقين وقتل الملك الكامل صاحبه ٢٤٣
- ذكر اتصال الملك الناصر بالتتر واستيلاؤهم على عجلون وغيرها من قلاع الشام ٢٤٤
- ذكر غير ذلك ٢٤٤
- ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا ٢٤٥
- ذكر مسير الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله ٢٤٧
- ذكر سلطنة بيبرس البندقدارى المذكور ٢٤٨
- ذكر إعادة عمارة قلعة دمشق ٢٤٨
- ذكر سلطنة الحلبي بدمشق ٢٤٨
- ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعود التتر إلى الشام ٢٤٩
- ذكر كسرة التتر على حمص ٢٥٠
- ذكر القبض على سنجر الحلبي الملقب بالملك المجاهد ٢٥٠
- ذكر خروج البرلى عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلاؤه على حلب ٢٥١
- ذكر مقتل الملك الناصر يوسف ٢٥٢
- ذكر مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبه ٢٥٣
- ذكر غير ذلك من الحوادث ٢٥٤
- ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام ٢٥٧
- ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على
 الكرك ٢٥٧
- ذكر الإغارات على عكا وغيرها ٢٥٨
- ذكر القبض على من يذكر ٢٥٩
- ذكر وفاة الأشرف صاحب حمص ٢٥٩
- الفهرس ٢٦١

١٩٩٩/٢٧٠٤	رقم الإيداع
ISBN 977-02-57٤2-7	الترقيم الدولي

١/٩٢/٨٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

Dhakhāir AL Arab 69



AL Mùkhtasar Fi Akhbar AL Bashar

Introduction by

Dr. Hussein Mou'nis

Edited by

Dr. Mohammad Zeinhom

Yehia AL Sayed.

..0171/.1



Bibliotheca Alexandrina



0312281



DAR AL-MAAREF